علي الطنطاوي

أعلام من التاريخ

جمع وترتيب حفيد المؤلف
مجاهد مأمون ديرانية



دار المنارة

أعلام من التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطَّنطاوي

أعلام من التاريخ

جمع وترتيب حفيد المؤلف

مجاهد مأمون ديرانيّة

دار المنارة
للنّشر والتوزيع

ⓗ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطنطاوي، علي مصطفى

أعلام من التاريخ / علي مصطفى الطنطاوي

ط٢ - جدة، ١٤٤٢هـ   ٤٤٤ص ؛ ٢٢×١٥سم

١-التراجم   أ. العنوان

ديوي ٩٢٠   ١٤٤٢/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٨٠٢   **ردمك** ٤-١٢-٨٣١٢-٦٠٣- ٩٧٨

الطبعة الثانية
٢٠٢١

دار المنارة للنشر والتوزيع

أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية

هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨

info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

مقدمة

هذا الكتاب جديد قديم، وقد بات قديمُه جديداً لطول انقطاعه عن القرّاء.

أخذ الكتابُ اسمَه من سلسلة رسائل «أعلام التاريخ» التي كتبها علي الطنطاوي -رحمه الله- عام ١٩٥٩ وصدرت طبعتها الأولى في السنة التالية. وقد ظُلمت هذه السلسلة لأنها لم تُطبَع في كتاب واحد، فأكثر القراء (وأنا منهم) يحبون الكتب ويعزفون عن الكتيّبات، فلم تلقَ من الحظ والرواج ما لقيَتْه سائر الكتب. ثم انقطعَت عن الصدور واختفت من الأسواق من سنوات طويلة، فلما اشتغلت بكتب جدي -مراجَعةً لقديمها ونشراً لما لم يُنشَر منها من قبل- عزمت على جمعها وإصدارها في كتاب واحد، ثم عثرت بين أوراقه على مخطوطات لترجمات لم تجد طريقها لأيٍّ من كتبه المنشورة، فنويت أن أضمّها إليه.

وتأخر العمل في هذا الكتاب لأن الله شاء أن تصدر قبلَه كتبٌ سواه، فلما بدأت به أخيراً رأيت أن أضيف إليه ثلاث مقالات لم يكتبها الشيخ لتُنشَر مستقلة، إنما كتبها مقدّمات لأصدقاء طلبوا منه التقديم لبعض كتبهم، فجاءت مقدماتُه أقربَ إلى التراجم لهم والحديث عنهم. وقد ضمها الأخ الصديق الشيخ مجد مكي إلى «المقدمات» التي جمعها ونشرها في مجلد مستقل، فلم أتردد في

السطو عليها وإضافتها إلى هذا الكتاب، مع إضافات وترقيعات في بعض المواطن اعتمدت فيها على «الذكريات» أحياناً وعلى كتابات مخطوطة في مواطن أخرى. كما استللت ثلاثاً أُخَرَ من «الذكريات»، مع جهد بذلته فيها في الجمع والاختيار والاقتصار على مقاطع وحذف أخرى، حتى جاءت ترجمات تناسب هذا الكتاب. وصنعت شيئاً مشابهاً مع ابن الجوزي، الذي جمعتُ مقالة متكاملة عنه من المقدمة الطويلة التي كتبها علي الطنطاوي لكتاب «صيد الخاطر» في وقت قريب من كتابة سلسلة «أعلام التاريخ».

* * *

ثم أقدمت على خطوة جريئة لبثت أفكّر فيها وأتردد حيالها دهراً، حتى شرح الله صدري لها وجرّأني عليها. وهذا بيانها.

حينما صحبت جدي -في النصف الثاني من السبعينيات الميلادية المنصرمة والسنوات التي بعدها- كنت أساعده بترتيب أوراقه، وكانت فيها مقالات تامة أو ناقصة جمَعَها في ظروف مستقلة لتكون كتباً يأمُل بإخراجها ذات يوم، وقد كتب على كل واحد عنوان الكتاب المأمول. وكان منها ظرف كبير خَطَّ عليه بيده بخط الثلث (الذي كان يحبه ويتقنه) هذا العنوان: «رجال عرفتهم».

ثم طال الزمان ولم يخرج الكتاب[1]، فلما نشر ذكرياته (في

---

(١) فقد كان من طبعه -رحمه الله- التأجيل والتسويف، فلا يكاد يكتب إلا وفاءً بالتزام مع مجلة أو جريدة أو برنامج إذاعي أو تلفازي.

«المسلمون» أولاً ثم في «الشرق الأوسط» آخِراً) وقطع فيها شوطاً صارت تمر عليه أسابيع يَمَلّ فيها من كتابة الحلقات ويدافعها ما استطاع، وكثيراً ما كان يؤخر كتابتها إلى الساعات الأخيرة قبل التسليم، فإذا بلغ به السأم أقصاه ولم يستطع مدافعة النشر مَدَّ يده إلى بعض ما في تلك الظروف من مقالات فأرسلها إلى الجريدة.

وهكذا وجدَت أكثرُ مقالات «رجال عرفتهم» طريقها إلى النشر، بدءاً بالحلقة التاسعة بعد المئة من «الذكريات» التي نشرها في منتصف آذار عام ١٩٨٤. وكان ربما جمع في الحلقة الواحدة مقالتين لعَلَمين مختلفين، لأنها كانت دون الطول المعتاد لمقالات الجريدة. فلما نشرَت «دار المنارة» طبعة جديدة من كتاب «رجال من التاريخ» رأى أن يضم تلك المقالات (وقليلاً غيرَها) إليه، ووضع بين يديها «توضيحاً» قال فيه: "كل يوم يمضي يصير تاريخاً، وما مَرَّ من فصول هذا الكتاب إنما كان أخبار رجال من التاريخ البعيد، وما سيأتي مما لم يكن في الطبعات السابقة للكتاب هو من أخبار رجال من التاريخ القريب، ضممته إليه وألحقته به". فصدر الكتاب وقد تضخم وضَمّ -مع مقالاته القديمة عن الأعلام المتقدمين- مقالات جديدة كثيرة عن رجال متأخرين.

فلما أخرجت هذا الكتاب الجديد فكرت بأن أعيد الأمر إلى ما كان في خاطر جدي رحمه الله، فأسترجعَ تلك المقالات من «رجال من التاريخ» وأجمعَها مع أمثالها، حتى تلتئم مقالاته عن الأعلام المتأخرين جميعاً في كتاب واحد كما أحبَّ باديَ الأمر. فإذا أضفتُ إليها رسائل «أعلام التاريخ» (وبعضَ المقالات القديمة التي عثرت عليها بين أوراقه لأعلام متقدمين) صار عندنا

كتابان متشابهان في المادة ومتقاربان في الحجم: «رجال من التاريخ» الذي صدر أول مرة سنة ١٩٥٨، و«أعلام من التاريخ» الذي يصدر اليوم. وهذا ما كان.

* * *

أخذت تلك المقالات من كتاب «رجال» وعارضتها على أصولها المنشورة والمخطوطة، فصححت أخطاء كثيرة وجدَت طريقَها إلى مقالات الجريدة وظهرت -من ثَمّ- في طبعات الكتاب المتتالية، وحيث وجدت مقالتين جُمِعَتا معاً (بهدف النشر في الجريدة) رددتهما إلى أصلهما مقالتَين مستقلّتَين. ثم اجتهدت في ترتيب مقالات الكتاب الجديد، فأخَّرتُ المتقدمين وقدمت المتأخرين، لأن «الأعلام» الخمسة طويلة، وأكثر القراء يفضلون البدء بمقالات خفيفة قصيرة قبل الانتقال إلى طِوال المقالات.

وسوف يلاحظ قارئ هذا الكتاب أن منهج الشيخ في كتابة رسائل «أعلام التاريخ» مختلف عن أسلوبه في كتابة المقالات القصيرة، التي كان أكثرها -في أصله- أحاديث أذاعها من إذاعة دمشق في مطلع خمسينيات القرن الميلادي المنصرم. فالمقالة القصيرة تدور على صور قليلة مختارة من سيرة العَلَم المترجَم وشخصيته، أما «الأعلام» فقد كُتبت بتوسع فجاءت أقرب إلى الاستقصاء، وربما جرَّت المناسبةُ إلى دراسة موجزة في موضوع متصل بصاحب الترجمة، فمع ترجمة «أحمد بن عرفان الشهيد» سنطّلع على طرف من تاريخ الإسلام في الهند، ومع ترجمة «القاضي شَريك» سنقرأ عن القضاء وفنونه وأصوله ومنزلته في الإسلام، ومع ترجمة «الإمام النووي» سنلمّ ببعض أهم مصادر

الفقه الشافعي وكتبه، كـ«المنهاج» و«الروضة» و«المهذّب» وشرحه العظيم «المجموع».

* * *

وبعد، فقد ترجم علي الطنطاوي لرجال وأعلام من التاريخ، ثم جاء وقتٌ صار هو فيه رجلاً من رجال التاريخ وعلماً من أعلامه:

ما زالَ يدأَبُ في التاريخِ يكتُبُهُ   حتى غدا اليومَ في التاريخِ مكتوبا

وقد تصور هو نفسُه هذا اليومَ فكتب في ذكرياته: "ربما كُتِبَت يومئذ في رثائي فصول ومقالات، وربما أثنوا عليَّ بما لست له بأهل أو هجوني بما لا أستحقّ، أو أعرضوا عني فأهملوني حتى نسوني... ما الذي ينالني من ذلك كله؟ ماذا ينفع الميتَ من الثناء وماذا يضرّه من الهجاء وماذا يؤثّر فيه الإهمال والنسيان؟ إنّ دعوة صالحة من قلبٍ حاضر من أخ مؤمن بظهر الغيب خيرٌ للميت من ديوان كامل من عبقري الشعر في رثائه، ومن مئة خطبة في تأبينه وعشرة كتب في دراسة أدبه".

اللهمّ إنه قد وفد عليك وصار في ذمتك وأنت أهل الرحمة والمغفرة، فارحمه برحمتك واعفُ عنه بكرمك يا رحيم يا كريم. واغفر لكاتب هذه السطور ولمن قال -من القرّاء الكرام- آمين.

مجاهد مأمون ديرانيّة

جدة، الثامن عشر من رمضان ١٤٣٩

الثالث من حزيران ٢٠١٨

الشيخ طاهر الجزائري*

هذا رجل لا تكفي للحديث عنه مقالة ولا رسالة، لأن له في كل مظهر من مظاهر الحياة في الشام اليوم أثراً، وفي كل ناحية من نواحي الإصلاح عملاً، ولأنه كان باعث نهضة وكان معلم جيل.

هَلَّ هلال النهضة العربية في بلاد الشام، ومن الشام -ساحله وداخله- انبعثت أنوارها حتى ملأت دنيا العرب، فكانت نهضة عربية إسلامية حفزت العرب إلى الزهو بمجد آبائهم والعمل على إعادة ذلك المجد؛ تسلحوا لها بالعلم، وكان الشيخ من أوائل من رَغَّب فيه ودفع إليه. وعادوا إلى اللغة الفصحى والبيان العربي، وكان في مقدمة من أعاد الناس إلى الفصحى وجَلا لهم وجه البيان. وبَنَوها على الهمم الشُّم والعزائم الرواسخ، وكان من السابقين إلى تثبيت هذه العزائم وإعلاء تلك الهمم، وهو الذي تخرَّجت به الصفوةُ المختارة من رجال الرعيل الأول في العلم وفي الأدب وفي السياسة.

ولم آسَف على فوات لقائي برجل من رجال هذا العصر كما أسفت على أني لم ألقَه، وأنّ كل حظي من قربه أني شيّعتُ

---

* حديث أذيع من إذاعة دمشق أوائل الخمسينيات، ثم نشره مقالةً في مجلة «رابطة العالم الإسلامي» سنة ١٩٦٥ (مجاهد).

جنازته[١]، ولكني قرأت الكثير عنه ورويت الكثير من أخباره عن أقرب الناس إليه، أستاذي محمد كرد علي وخالي محب الدين الخطيب، رحمهم الله جميعاً.

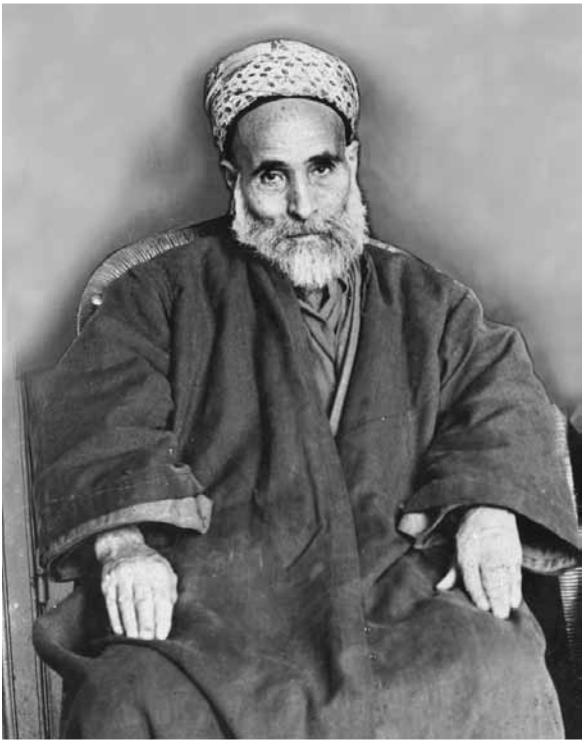
ولقد عرفت رجالاً وسمعت برجال كانوا أعلمَ علماً وكانوا آدَبَ أدباً، وكانوا أكتبَ وكانوا أخطب، وكانوا أعظم جاهاً وأضخم اسماً وأبعد ذكراً من الشيخ طاهر، ولكن للشيخ طاهر مزيّة لم يكن مثلها -فيما أعلم- لواحد منهم، اللهمّ إلا جمال الدين الأفغاني (الذي كان صوته أول صوت أهاب بالقافلة النائمة أن تستيقظ وتعاود المسير) هي أنه كان يترك أثراً من الخير أينما حل. فكان لقاؤه -أينما لقيته- درساً، ومجلسه -حيثما جلس- مدرسة، يعلّمك مسألة أو يرشدك إلى كتاب أو يلقنك خلقاً من أخلاق الخير.

وكان يعلّم بفعله لا بقوله؛ دعا إلى النظر في الكتب فلم يكد يدع كتاباً لم ينظر فيه[٢]، ودعا إلى التأليف فكان له من

---

(١) قال في الذكريات (٨/ ٢٩٠): "وأنا لم أدرك من الشيخ طاهر إلّا أنهم سيَّرونا في جنازته لمّا مات في أعقاب الحرب الأولى، وكنا تلاميذ في الابتدائية، وكان وزير المعارف أحد تلاميذه المقرَّبين وهو أستاذنا محمد كرد علي" (مجاهد).

(٢) في مقالة «طرق الدعوة إلى الإسلام»: "كان الشيخ طاهر الجزائري إذا رأى مخالِفاً له أظهر له التواضع وتجاهل ما يعرفه أمامه، وجاءه بكتاب من الكتب التي تصحّح خطأه وترده عنه فقال له: إني وجدت هذا الكتاب في مكتبتي ولم أعرف ما فيه، وأنا أحب أن تنظر فيه ثم تخبرني: هل هو نافع لي فأقرأه أم هو من الكتب الضارّة؟ ويترك =



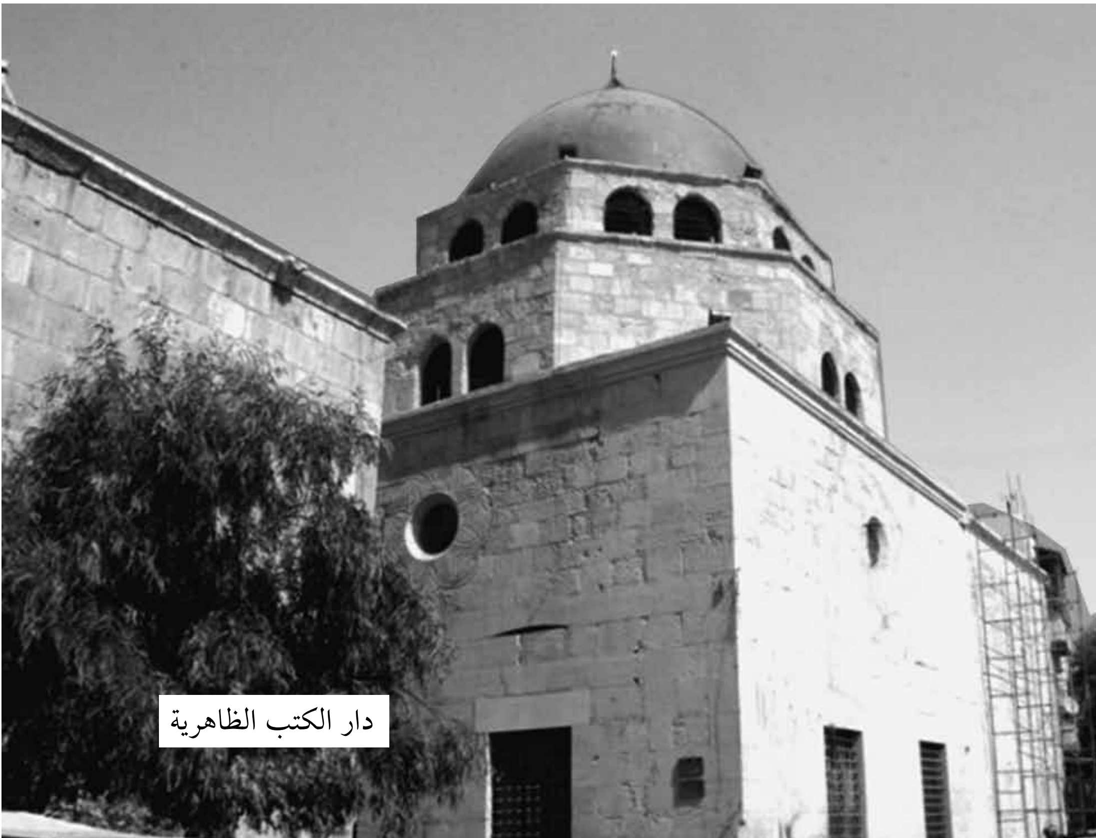
التواليف ما عدَّه من مكثري المصنفين، ودعا إلى حفظ الوقت، فلم يكن يضيع من وقته لحظة في عمل غير نافع، ودعا إلى ترك هذه المجاملات والرجوع إلى أخلاق المسلمين الأولين، من الصراحة والصدق وقصد الحقائق وترك الأباطيل، فكانت حياته كلها كذلك.

* * *

= له الكتاب، فلا تمر أيام ويستكمل قراءته حتى يكون قد رجع عن خلافه" (فصول إسلامية، ص٢٤) (مجاهد).

ولما كاد ييأس المصلحون لم ييأس الشيخ طاهر، ولم يَرَ مستحيلاً إيقاظ هؤلاء العرب الذين ناموا دهوراً طوالاً تحت أغطية الجهل والعامية والخمول. ولم يسلك طريق الطفرة، فالطفرة لا تأتي بخير، ولا الثورة، فالثورة تُبيد ولا تُشيد، بل عمد إلى إزالة أسباب الداء، وإلى الترغيب في العلم والحثّ عليه ليحارب الجهل، ورَدِّ الناس إلى اللغة وتعريفهم فضلَها ليدفع العامية، ونشرِ أخبار السلف وتاريخ الفتوح لينفي الخمول.

وكان يعطي كلاً ما يناسبه، كالطبيب الذي يحمل دواءه الشافي ويدور على المرضى، فلا يعطي إلا بمقدار ولا يداوي إلا عن بيّنة من المرض. يجمع حوله طائفة من أعلام الشباب، هم صفوة خلطائه وعيون مريديه، فيصرّح لهم الرأي ويبين لهم



دار الكتب الظاهرية

الطريق، وطائفة من الشيوخ يعرّض لهم تعريضاً ويمهد لهم تمهيداً، وطائفة من العامة ينشئهم على برنامجه وييسّرهم من حيث لا يشعرون في طريقه، وطائفة من العامة يَقنع منهم بتقويم الأخلاق وإصلاح المجتمع. وكان يجالس الموظفين الكبار والباشوات الأتراك، يأمل أن ينال منهم خيراً، وقد نال منهم في الحقيقة خيراً كثيراً.

كانت الكتب المخطوطة متفرقة في المساجد والزوايا، يُخشى عليها الضياع ويُخاف التلف، فعمل على جمعها في مدرسة الملك الظاهر التاريخية في دمشق، فقام عليه الجاهلون من أصحاب النظر القصير أعداء كل إصلاح وقالوا: "شرط الواقف"! فاستعان عليهم بصديقه الوالي حمدي باشا، ولولا صداقته إياه لضاعت هذه الكتب ولم تنشأ «دار الكتب الظاهرية» التي نعدّها اليوم من مفاخر الشام[1].

وكان التعليم في الشام قاصراً على الكتاتيب للصغار وحلقات المساجد للكبار، فكان من أكبر العاملين على افتتاح المدارس العصرية، ووضع بذور «المعارف» في سوريا. والغريب أنه قد افتتح مدارس للبنات من تلك الأيام وأن الناس قد أقبلوا

(١) قال في حاشية على مقالة «هذي دمشق»: "الذي يعود إليه الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية -إذ جمع فيها الكتب التي كانت متفرقة في المساجد والزوايا- هو العلامة الشيخ طاهر الجزائري، أحد نوادر الدنيا علماً وعملاً وصراحة وشرف نفس وجرأة وسعياً للمصلحة العامة، وبفضله أنشئت المدارس الابتدائية في دمشق" (كتاب «دمشق» ص٣٥) (مجاهد).

عليها، ولدى عمتي التي تعيش معنا إلى اليوم[1] شهادة عليها خاتم الشيخ طاهر تاريخها سنة ١٣٠١هـ، ولولا صلته برجال الحكم من الأتراك ما كانت المدارس.

وكان في طرف مقبرة الباب الصغير تل، لا يمسي مساء كل يوم حتى يستحيل إلى ساحة حرب، يقتتل فيه أهل الميدان وأهل الشاغور بالحجارة والعصيّ، عصبية جاهلة كان لها في بلاد العرب كلها أمثال، كالفُتوّات في مصر والزكرتكيات في الشام والقبضايات في لبنان وأبو جاسم لر في العراق. وعلم الشيخ (وكان من أعلم الناس بخطط دمشق) أن تحت هذا التل مدافن نفر من آل البيت، فسعى حتى أزال التل وأبرز القبور، وآخى بذلك بين الحيين، وإنْ كان قد فتح بذلك باباً جديداً للبدع المنكرة من حيث لا يريد.

* * *

وكانت له -وهو شيخ بذهن رجل درس في أوربا- معرفة بقيمة العلوم الجديدة وبالصحافة وأثرها وبالعمل المنظم. وكان أشدَّ خلق الله تشجيعاً للناشئين وتنشيطاً للعاملين، يحاول أن يوصل الناس جميعاً إلى المثل الأعلى، لا يرفعهم جميعاً إليه، فإنه لا يمكن أن ترفع الناس كلهم إليه، ولكنه يقربه إليهم ويسهّل بلوغَه عليهم حتى ترتفع بهم هممهم إلى محاولة بلوغه. وكان

(١) قال جدي رحمه الله في حاشية في هذا الموضع من المقالة: "توفيت رحمها الله بعد كتابة هذا الفصل". قلت: ولم أدركها، توفيت سنة ١٩٥٥ قبل مولدي بسنتين (مجاهد).

يقول لأصحابه: إن جاءكم من يريد تعلّم النحو في ثلاثة أيام فلا تقولوا له إن هذا مستحيل، بل علّموه، فلعله يقرأ في هذه الثلاثة الأيام من النحو ما يحبّبه إليه فيستمر عليه. وكان كلما رأى مخايل النجابة في أحد سيَّرَه في طريق العلم ووصله بشعبة من شعبه، وكان أكثر اهتمامه بإدخال العلم إلى بيوت الأكابر، وهو الذي دفع صديقنا الأستاذ سامي العظم، وكيل وزارة العدل السورية بالأمس ونزيل مصر اليوم(١) إلى طرق هذا الباب.

وكان قد فرغ من أمر طعامه ولباسه، فكان مضرب الأمثال في ذلك. وكانت ثيابه عجباً من العجب، لأنه لم يكن يفكر فيها ولا يريد منها أكثر من أن تستر وأن تدفئ، وكان يتخذ من جيوب الجبّة مكتبة، ففي جيبٍ(٢) كتابٌ مخطوط، وفي جيبٍ رسالة، وفي جيبٍ أوراقٌ ودفاتر، وفي الجيب الرابع خبز وقطع من الجبن ومن الحلاوة!

وحدثني الشيخ قاسم القاسمي -رحمه الله- أن أصحابه رأوا جبته قد أَبْلَتها الأيام وصيَّرَتها شيئاً نكراً، فاحتالوا عليه حتى اشترى جبة جديدة، وأخفوا عنه القديمة فاضطُرَّ إلى لبسها. ولم يكن أصعبَ عليه من لبس الجديد. وذهبوا به إلى مجلس في دُمَّر في قصر الأمير عمر الجزائري، وكان المجلس حول بركة عظيمة لها نافورة عالية مشهورة، وكانت فيه جِلّة العلماء، الشيخ عبد الرزاق

---

(١) توفي بعد كتابة هذا الفصل رحمه الله.

(٢) الجيب فتحة عنق القميص، لكني استعملت الكلمة بالمعنى الذي يعرفه الناس.

البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي وأمثالهما، وإذا بالشيخ ينزع الجبة ويقوم بها إلى البركة فينزل بها فيها غَمْساً غمساً، ثم ينشرها على شجرة حتى تجفّ وتنكمش وتُقَرمد فيلبسها! ويسأله سائل منهم فيقول: كانت جديدة، شغلتني بالخوف عليها عن العلم، فالآن استرحت من التفكير فيها.

وكان من أحفظ خلق الله لوقته، يسهر الليل كله في مطالعة أو مذاكرة أو عبادة أو سعي بإصلاح. وكان أكثرُ مقامه في مدرسة عبد الله باشا في طريق بين البحرتين في دمشق القديمة، فإن كان مشغولاً وطرَقه طارق أطَلَّ فقال له: "مشغول، عُدْ في وقت آخر". يقولها له مهما كانت منزلته.

حدثني أحد وجهاء العامة قال: ذهبت إليه مرة، فردَّني وأبى أن يدخلني، فتألمت وأزمعت هجره، ثم قلت: أعامله بمثل ما عاملني به. فجاءني مرة، ففتحت له وقلت: "مشغول، عد في وقت آخر". فذهب مسروراً يقول: بارك الله، بارك الله، هكذا، هكذا. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، صدق الله.

فإن دخل عليه «الغليظ»[١] من حيث لا يشعر دفع إليه كتاباً وقال: "خذ، اقرأ هذا". وتركه وعاد إلى ما كان فيه. ومن قوله في ذلك: "أشغلوهم (يعني الغِلاظ) قبل أن يشغلوكم". وكان يطيل المشي وحده ومعه كرّاس ينظر فيه. مشى يوماً في وادي الشاذِروان في دمشق (وهو أجمل أودية الدنيا بإجماع أئمة الذوق) فلحقه أحد الثقلاء، وكان من عادة الشيخ الإسراع في المشي، فجعل

(١) الغليظ هو الثقيل بعامية أهل الشام (مجاهد).

يسايره ويسرع معه، يحدثه حديثاً له أول وليس له آخر عن جدّه الذي مات ومَن ورثه وكيف قسموا الإرث وخلاف من خالف في ذلك وما يقول كل من الفريقين المختلفين... حتى وصل معه إلى قريب «الهامَة»، والشيخ لا يسمع منه ولا يلتفت إليه، حتى انتهى فقال: سيدي، هل أصبنا أم أخطأنا؟

فما رَدَّ عليه، فأمسك بيده، حتى إذا انتبه قال: هل أصبنا أم أخطأنا؟ قال: نعم، بلى (وكانت هذه لازمته) نعم بلى، الإنسان يخطئ ويصيب، الإنسان يخطئ ويصيب. وترك الرجل مصعوقاً من الدهشة ومضى.

* * *

أما إباؤه وعزّته في نفسه فلم يكن بعدَهما زيادة لمستزيد. نزح إلى مصر لمّا ضاقت الشام وحكّامها بدعوته، وأخذ يبيع من كتبه ومن ذخائر المخطوطات التي أفنى حياته في اقتنائها ليعيش. وكان يأبى الثمن الغالي من مكتبة المتحف البريطاني وأمثالها من المؤسسات الأجنبية أو من أفراد الناس الذين يشترون الكتب للتجارة، ويبيع بنصفه لدار الكتب المصرية، ليبقى الكتاب في أيدي العرب ولا يخرج منها إلى أيدي الإفرنج.

فلما كادت تنفد كتبه سأل أحمد تيمور باشا الشيخ علي يوسف أن يكلم الخديوي (وذلك سنة ١٩١٣) في مَنحه مرتباً دائماً أُسوةً بمن كان يمنحهم المرتبات من العلماء والأدباء. ونجحت الوساطة ومُنح الراتب، فلما خُبِّر به غضب أشد الغضب وقال للشيخ علي: كأني بك قلت للخديوي: إن الشيخ طاهر أثنى

عليك. نعم، إني أثنيت عليه لتأييده مشروع زكي باشا في خدمة الكتب العربية، ولكن ما الذي يضمن لك ألّا يأتي الخديوي بضد هذا العمل الطيب يوماً فأذمه، فلماذا تُسَوّد وجهك بسببي؟ ومَن أذن لك أن تُدخل نفسك في خصوصيات أمري؟ اذهب فأبطلْ ما سعيت بإتمامه.

ورجع يعيش عيش الكفاف والتقتير بأثمان ما بقي من كتبه. فكان الشيخ علي يوسف يقول بعد ذلك: كنت أظن أن هذه الطبقة قد انقرضت، فلما رأيت الشيخ طاهراً علمت أنه لا يزال على وجه الأرض بقية منها.

* * *

وبعد، فإني ما رأيت الشيخ، ولكني رأيت آثاره الخيِّرة في كل مكان وسمعت الثناء عليه وذكر مناقبه على كل لسان. كان من المؤلفين المكثرين إنْ عُدَّ المؤلفون المُكثرون، وكان من أئمة المربين إنْ ذُكِرَ المُرَبّون، وكان من رؤوس المصلحين ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها ونتفيأ ظلالها وننعم بخيراتها. رحمه الله وطيَّبَ ذكراه.

* * *

الشيخ بدر الدين الحسني*

لقد فتحت عينيّ على الدنيا وأنا أسمع الناس في دمشق، العالِم منهم والجاهل، يصفونه بأنه «شيخ الشام» وأنه المرجع في كل أمر، في الخاص والعام. إن قال وقف العلماء عند قوله، وإن أمَرَ لم يخالف أحدٌ عن أمره، يُجْمعون على تقديمه وتعظيمه ويرون طاعته من طاعة الله، لأنه يبين للناس حكم الله ويعلّمهم شريعة الله.

كان رجل العلم؛ عاش ثمانين سنة بالعلم وللعلم، ما جرى فيها بغير العلم لسانُه إلا أن تكون كلمة لا بد منها، يوجز فيها العبارة ويستعين على إفهامها بالإشارة، ثم يعود إلى درسه وكتابه. ما ترك الدرس قط ولا يوم وفاته، ما تركه إلا ساعة احتضاره.

الرجل الذي لبث ثمانين سنة ما مَسَّ جنبُه الأرض وما

* أصل هذه المقالة حديث أذاعه علي الطنطاوي من إذاعة دمشق في مطلع الخمسينيات، ثم نشره في مجلة «رابطة العالم الإسلامي» سنة ١٩٦٥، وقد أضفت إليها بضعَ فقرات أخذتها من مقالة أقدم، نُشرت في «الرسالة» سنة ١٩٣٥ بعنوان «السنة التي مات فيها شيخ الشام»، وأعاد جدي نشر جزء منها في الحلقة ٨٧ من «الذكريات» (٣/٢٥٥) وأشرت إلى مواضعها في الحاشية (مجاهد).

اضطجع إلا في مرض الموت، ما مرض قبل ذلك قط وما نام كما ينام الناس، بل كان يجلس في الليل ليقرأ، فإذا غلبه النعاس اتكأ برأسه على وسائد أعدت له، فأغفى ساعتين أو ثلاثاً من الليل متقطعات، ومن النهار ساعة. الرجل الذي كان يراقب الله والناسُ عنه غافلون، ويقرأ العلم ويسبح والناس نائمون. تخلّف عن قافلة العلماء العاملين الأوّلين ليجيء وحدَه في آخر الزمان (وما تنكب عن السَّنَن ولا حاد عن الطريق) كما تتخلف الزُّهَرة عن النجوم لتكون نجمةَ الصبح هاديةَ المُدْلجين ومرشدة الضالين، وكما تتخلف الزَّهْرة الأخيرة في الروض لتكون هدية الملوك وتحفة الأبهاء.

كان عجباً في علمه وإحاطته واستقامة ذاكرته التي لم تَلْوِها الأيام وتوقُّد ذهنه الذي لم تطفئه السنون، عجباً والله لا ينقضي به الإعجاب. كان فهرساً حياً لكل مخطوط ومطبوع من الكتب في كل فن، فلا تكاد تسأله المسألة حتى يقول لك: "هات الكتاب الفلاني وافتح"، فتفتح كيفما جاء معك، فيقول: "قبل" أو "بعد"، حتى إذا دنوت أخذ الكتاب فقلب صفحتين أو ثلاثاً فإذا جواب مسألتك كأنما وضعه بيده! كان هذا شأنَه أبداً، لم تكن هذه نادرة من نوادره، وكان ذلك منه في صعاب المسائل وغرائبها، يقع عليها في غرائب الكتب قبل أن تقع أنت على الكلمة في القاموس.

وكان -والعلماء في دمشق متوافرون وأهل الاختصاص كثيرون- يُعَدّ الإمام المَرجع في كل فن: في اللغة وغريبها، وفي الصرف وفي النحو، وفي فقه المذاهب الأربعة المدونة والمذاهب التي لم تدوَّن، مذاهب الصحابة والتابعين والأئمة



من أمثال الأوزاعي والليث والظاهري والطبري، وفي البلاغة وفي الحديث روايةً ودراية، وفي معرفة الرجال والأسانيد، وفي الكلام والفلسفة والأخبار... يقرأ دائماً، لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائماً أو في صلاة أو درس أو في طريقه من المسجد إلى البيت. ما فارق الكتب قط ولا استعان على النظر بنظّارة، وقد مات وهو حديد البصر صحيحُه.

* * *

ما أحبَّ في الدنيا غير الكتب (وأواني الخزف الصيني)، فكان يشتري الكتاب يسمع به ولو كان مطبوعاً في أقصى الهند،

ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهباً، ولا يدع كتاباً حتى يقرأه أو يتصفحه تصفح المتثبت، كأن عينيه «زجاجة فوتوغراف» ودماغه لوحته، فلا يرى مسألة إلا ثبتت صورتها فيه إلى الأبد[١].

وكان يَقرأ ويُقرئ أبداً ما شاء وشاء الطالب. أَقرأَ الرياضيات قوماً لمّا طلبوها منه، والفلك والفلسفة، كما أقرأ الحديث. وكان درسه في الأموي أعجوبة، من رآها ووعاها فقد رأى إحدى عجائب الزمان، وكان كمجالس الإملاء الأولى التي كانت الدعائم الكبرى في صرح تاريخنا العلمي. وإذا كان السيوطي قد قال إنه آخر مَن أملى في اللغة والحديث فقد قال ذلك لأنه لم يدرك الشيخ بدر الدين، وكم ترك الأول للآخر!

وكان يبدل موضوع الدرس بمناسبات عجيبة إذا رأى ما يدعو إلى تبديله. وقف مرة على الحلقة العلامة الأجَلّ أصولي العصر الشيخ محمد بخيت، فأوسع الناس له ودعَوه إلى الدخول، فدخل كالكاره وقعد متعظماً، كأنه يترفع عن أن يجلس من أحد مجلس التلميذ (وكان بعلمه وفضله أهلاً لهذا الترفع) فحوّل الشيخ الدرس حتى جاء على مسألة أصولية، وكان الدرس

(١) كذا كان التصوير قديماً، تنطبع الصورة «السلبية» على لوح زجاجي مطلي بنترات الفضة أو هاليدات الفضة، ثم تُنقَل (تُعكَس) منه إلى اللوحة الورقية فنحصل على الصورة «الإيجابية». ثم حَلَّ الفِلْمُ (وهو شريط بلاستيكي من البولِستر أو السليولوز) محلِ زجاجة التصوير. هذا الوصف المختصر جداً قد لا يكون دقيقاً تماماً، وهو خلاصة ما بقي في ذهني من دورة في التصوير وتحميض الأفلام وطباعة الصور تلقيتها قبل نحو خمس وأربعين سنة (مجاهد).

في أوله، وأفاض في علم الأصول ساعتين، والشيخ بخيت يلمّ أطرافه ويضمّ ثوبه حتى جلس على ركبته وطفق ينظر مشدوهاً، فلما انتهى قام إليه كأنه يشير إلى تقبيل يده، والشيخ يتملص، إذ كان يكره أن تقبَّل يدُه ولا يحب ذلك من العامة، فكيف من شيخ الإسلام؟ وقال له الشيخ بخيت: ربنا يخليك، ما فيش في الدنيا النهار ده واحد تاني زَيَّك!

* * *

كان علمه عجيباً، وكانت سيرته أعجب من علمه. عاش أكثر من ثمانين سنة، وما عاش في الحقيقة إلا يوماً واحداً أُعيدَ ثلاثين ألف مرة، فكان في ثباته واستقامته مثلاً مُفرداً. كان ينهض من منامه بعد نصف الليل. وما كان ينام في الحقيقة، وإنما كان يجلس يقرأ الليل كله كتلميذ ليلة الامتحان، فإذا غلبه النعاس أمال رأسه على الوسادة فأغفى، ثم أفاق والمصباح إلى جانبه وأمامه مائدة عليها أطباق صغار فيها الفرانِيّ[1] والمعجَّنات والفواكه، ينال منها.

فإذا نهض توضأ من البركة في داره الكبيرة (التي بقيت فارغة إلى الآن). وكان في شبابه يكسر بيده الجليد ويتوضأ في الشتاء، فلما شاخ كان يُعَدّ له الإبريق على المدفأة ليجده -إذا احتاج إليه- ساخناً. ثم يقوم فيصلي ما شاء الله أن يصلي، فإذا كان السحَر خرج فوجد بعض مريديه وتلاميذه ينتظرونه أمام الباب تحت الشاذِروان (الرواق) لا يثنيهم مطر ولا برد، حتى يخرج، فيمشون

(١) الفرانِيّ جمع فُرْنِيّة، وهي الكاتو.

معه إلى «الأموي»، فيصلي فيه مع الجماعة ثم يمضي إلى «دار الحديث»، إلى غرفة له فيها صغيرة مبسوطة بالبُسُط، ما فيها إلا جلد و«طرّاحة» ومخدات من قش.

ولطالما دخل هذه الغرفةَ من ناس، من رجال الدين ورجال الأديان، وطالما دخلها علماء أعلام وأمراء وحكام كانت ترتجّ الأرض من تحتهم وترتجف القلوب من خشيتهم، فإذا دخلوها نزعوا أحذيتهم وجلسوا على ركبهم وتخشّعوا وصمتوا: جمال باشا (وما أدراكم ما جمال باشا؟) وولاة من قبله ومفوَّضون سامُون[1] من بعده، فكان جلال هذه الغرفة يجعل الجبّارَ طفلاً والعالِمَ العلامة تلميذاً، والكبيرَ عند نفسه وعند الناس صغيراً أمام هيبة العلم والتقى والدين.

* * *

كان يبقى في غرفته في دار الحديث في إقراء وذكر وصلاة حتى يقترب الغروب، إلا أن يكون يومَ الجمعة، فيجلس للدرس العام يحدّث الناسَ تحت قبة النسر من بعد الجمعة إلى أذان العصر، لا يسكت ولا يتنحنح ولا يعيد كلمة ولا يقطع جملة، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح. يبدأ بحديث فيرويه مُسنَداً ويستقرئ طرقه كلها ويتحدث عن رواته، ثم يشرحه لغة ونحواً وبلاغة شرحَ إمام من الأئمة الأولين، فكل كلمة بشاهدها وكل شاهد بتفسيره. ثم يذكر تعليقات المحدّثين بأسانيدها ومصادرها، ثم يذكر ما أخذ منه الفقهاء وما اختلفوا فيه وأدلة كل منهم، ثم

(١) الوالي أيام العثمانيين والمفوَّض السامي أيام الفرنسيين (مجاهد).

يوازن بينها ويرجِّح راجحها، ويَبْسط الكلام فيما يتصل بذلك من الفلسفة والتصوف والعلوم. وكان الشيخ في الفلسفة الإسلامية منقطعَ النظير.

وكان يَمضي الدرسان أو الثلاثة ولم يتعدّ الشيخُ شرحَ حديث واحد. وطالما حضر هذا الدرسَ جِلّةُ علماء دمشق ومَن يزورها من علماء الأقطار، فخرجوا مُعجَبين مُكْبرين. ولم يكن يردّ سائلاً أو طالب علم، وكان يوليه ما شاء من وقته ووجهه، وكان إذا استُفتي قال للسائل: انظر كتاب كذا وكتاب كذا، وربما دلّه على الصفحة التي يجد فيها المسألة، لا يحبّ أن يفتيه هو.

وكان يصوم الدهر (وفاء بنذر نَذَره) فإذا كان المساء أكل ما قُدِّم إليه، ولم يُعرَف عنه في سفر ولا حضر أنه اشتهى طعاماً أو كرهه، إلا مرة كان في سفر فقيل له: ما نطبخ؟ فقال: ما شئتم. قالوا: عندنا بامياء وفول وعدس. قال: هل قلتم إن عندكم فولاً؟ ففهموا أنه يشتهيه. ولم يُروَ عنه في هذا الباب أكثرُ من هذا.[١]

* * *

وهو ابن نفسه، شيخه كتابه، ما عُرف عنه أنه قرأ إلا على الشيخ أبي الخير الخطيب، أخذ عنه مبادئ العلوم، ثم اشتغل وحده وأقبل على المطالعة، ما ترك النظر في الكتب ساعة من نهار عمره كله، وما ترك الإقراء قط، ولقد كان موعد درس من

(١) هذا المقطع كله (ما بين الفاصلين النجميين) من مقالة «السنة التي مات فيها شيخ الشام» (مجاهد).

دروسه قبل وفاته بساعتين، فلما رأى الطلبةُ ما به هَمُّوا بالرجوع، فأشار لهم أن يقرؤوا وهو يستمع.

ولقد كان يعيش في سعة من دنياه، ولكن الدنيا كانت في يده لا في قلبه. وكان اعتماده على الله لا على المال، فلا يحرص عليه حتى يناله من غير حِلّه ولا يجزع إن ذهب بغير علمه، ولا يتسع المجال إلا لشاهد واحد: اشترى مرة مجموعة من الزبادي الصينية النادرة بنحو مئة ليرة ذهبية (وقد قلت لكم إنه لم يكن له رغبة إلا في شيئين يشتريهما ولو بأغلى الأثمان، الكتب وأواني الخزف الصيني) ووضعها في دهليز مغلق بجانب الغرفة، تكون فيه دائماً أكياس من السكر والرز يعطي منها فقراء الطلبة. فقال للشيخ صادق أبي قورة (رحمة الله على الاثنين): "يابا (وكانت تلك كلمته) ادخل". أي أن يأخذ شيئاً من السكر والرز. وكان قليل الكلام، إن كفت الإشارة ترك العبارة، وإن أجزأت الكلمة قطع الجملة. فدخل يأخذ، وأمال الكيسَ فرماه على الصيني الذي شُري بمئة ليرة ذهبية فطحنه طحناً، وتراكض الطلبة فكفَّهم الشيخ وقال: لا يابا.

وراح يطيّب خاطر الشيخ صادق لئلا يخجل، ومدَّ يده بشيء من المال فدفعه إليه.

* * *

أما دينه وعبادته وصلته بالله فهاكم عليها شاهداً آخر، شاهداً واحداً أيضاً. حدثني السيد كامل باش إمام رحمه الله قال: لمّا مُدَّت سكة الحديد الحجازية (أعادها الله) وسار أول قطار كان

فيه الشيخ، فوقف القطار في عُرض البادية لشيء طرأ عليه، فنزل بعض القوم يصلّون ونزل الشيخ، فلمّا أحرموا بالصلاة وكادوا يركعون صفّر القطار، فانفضّوا إليه فتعلقوا به وتركوا الشيخ قائماً، وسار القطار. قال: فنظرتُ إليه، فلا والله ما التفت ولا تحرك، فكدت أُجَنّ، وأقبلت على من بيده أمر القطار فرجوته أن يَقِفَه، فأمر بالقطار فقهقهر حتى رجع إلى حيث ترك الشيخ، فإذا هو جالس لم يسلّم. فلما سلّم قام فركب، وما يبالي بانقطاعه في البادية ولا بالموت الذي يحوم حوله ما دام قائماً بين يدي رب الأرض والسماوات ومَن بيده الموت والحياة.[1]

وكان من أعجب أمره أنه لم يغتب أحداً قط ولم تَجْرِ في مجلسه غيبة. وهذه مسألة قد يستسهلها مَن لم يجرّبها، فجربوا أن تَدَعوا الغيبة وسماعها يوماً واحداً فقط ثم قولوا: يرحم الله الشيخ، الذي كان في عمله وفي سيرته بقيّةَ السلف ونادرةَ العصر، والذي سيمر وقت طويل قبل أن ترى مثلَه ديارُ الشام، لا بل بلادُ الإسلام.

* * *

(١) هذه الفقرة من مقالة «السنة التي مات فيها شيخ الشام» (مجاهد).

الشيخ علي الدَّقْر

نشرت سنة ١٩٦٥*

الرجل الذي هَزَّ دمشق من أربعين سنة هَزَّة لم تعرف مثلها من مئتي سنة، وصرخ في أرجائها صرخة الإيمان فتجاوبت أصداؤها في أقطار الشام، واستجاب لها الناس يعودون إلى دين الله أفواجاً، يبتدرون المساجد ويستَبِقون إلى حلقاتها. وأعانه عليها زميله وصديقه الشيخ هاشم الخطيب، وملأ ذكرهما البلد وشغل أهلها ودخل أثرهما كل دار، وكان الاختلاف فيهما في كل مجلس وصارا حديث الناس، فمن لم يكن معهما متحمساً لهما كان عليهما متحمساً في عدائهما.

وإذا كان قراء «الرابطة»[1] لم يسمعوا باسم الشيخ علي الدقر قبل الآن فإن اسمه عندنا على كل لسان، وهو في الشام علم الأعلام. وإذا كان من المصلحين من طارت شهرتهم في الآفاق فإن الشيخ علي ممّن عُرفوا في بلادهم وجُهلوا فيما وراءها. وهو تلميذ الشيخ بدر الدين، ما طالت قراءته عليه، ولا بلغ بين

---

* في مجلة «رابطة العالم الإسلامي»، عدد رمضان ١٣٨٥ (مجاهد).

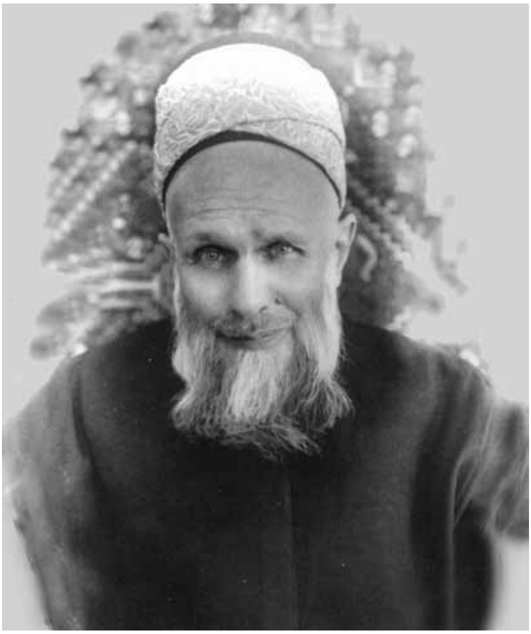
(١) يقصد المجلة التي نُشرت فيها هذه المقالة (مجاهد).

تلاميذه مبلغ الشيخ محمود العطار، فضلاً عن أن يبلغ في العلم منزلة الشيخ نفسه أو يدانيه، ولكنه أُعطي من التوفيق في العمل والعمق في الأثر ما لم يُعطَ مثلَه الشيخ بدر الدين ولا غيره من مشايخ الشام في تلك الأيام.

لقد أمضى شطراً من عمره لا يدري به أحد، وشطراً لا يجهله فيه في دمشق أحد. ولقد سمعنا به أول مرة سنة ١٩٢٦ ونحن طلاب في المدارس الثانوية، وكان من أوائل «الموادّ» في منهج دعوته ترك المدارس الحكومية والإقبال على طلب العلم الديني، فكنا نذهب إليه لنسمع هذه الدعوة العجيبة، ولا نستطيع أن نجهر بإنكارها خوفاً من مريدي الشيخ المؤمنين بها الذين يبطشون بخصومها!

ثم نال منا كلام الشيخ وأثّرت فينا مواعظه فجعلنا نذهب لنستمع إليها، نخرج من المدرسة فنكتب دروسنا على عجل ونسأل: أين درس الشيخ اليوم؟ فإذا عرفنا مكانه أسرعنا إليه. نقعد في الحلقة قبل موعد الدرس بساعة، نخشى من كثرة الازدحام ألّا نجد -إن تأخرنا- مكاناً، لأن الشيخ علي كان يدرّس في مسجد صغير عند باب الجابية في دمشق، فكان يمتلئ كله ويقف الناس على أبوابه وأمام نوافذه.

ولم يكن في الدرس علم غزير، ولكن كان فيه شيء لا يجده سامعه عند ذوي العلم الغزير، فيه الموعظة التي تخرج من القلب لتقع في القلب، فتحرك فيه خامد الشعور وتثير فيه كامن الإيمان. فيه ما يملأ بالدموع الأماقي ويُبكي من الخشوع العيون، فيه ما يقيم ويُقعد ويلين أفئدة كانت أشد من الصخر، ويستخلص



من أيدي الشيطان نفوساً كان قد تملكها وتحكم فيها الشيطان، فيه ما يُشعر حاضرَه أنه انتقل من هذه الدنيا إلى مجالس الجِنان. فيه ما لا أستطيع أن أعرّف القارئين به، لأنه شيء يُرى ولا يوصَف ويُذاق ولا يعرَّف.

وكان الشيخ يُسأل: من أين يأتي بهذا الكلام الذي يلقيه على الناس ومن أي كتاب ينقله؟ فما كان يجيب، ولو أجاب لقال بأنه ينقله من الصلاة في ظلمات الليالي والمناجاة في هدآت الأسحار، ومن حلاوة الإيمان التي يذوقها في ساعات الخلوة بالله والتوجه إليه والقيام بين يديه، من هناك يملأ هذه «البطارية» التي يعيش أهلُ الدرس ساعةً في ضوئها.

❊ ❊ ❊

ولم يكن في سيرة الشيخ علي قبل تلك السنة حادث يستحق التسجيل، فلقد كان أبوه من سَراة التجار، وكان له إخوة أكبر منه يشاركون أباهم أعماله ويعاونونه في تجارته، على حين كان يتبع هو العلماء ويحضر الدروس، ويقرأ على الطريقة الأزهرية التي لم نكن نعرف طريقة لطلب العلم غيرها، وهي أن يأخذ الشيخ نسخة من الكتاب ويأخذ كل تلميذ نسخة، فيقرأ لهم ويشرح أو يقرؤون عليه ويفسر، لا عمل له إلا بيان قصد المصنِّف وتوضيح عبارته، أما تلخيص الموضوع والكلام فيه والإلمام بجوانبه وأمثال هذا مما يهتم به طالب العلم اليوم فلم يكن من همّهم. فإذا ختموا الكتاب شرعوا بغيره، فلا يدرس طالبُ العلم علوماً ولكن يقرأ كتباً.

كانت هذه طريقة العلماء جميعاً، وهي التي سلكها الشيخ علي. ولم يظهر عليه نبوغ في علم من العلوم يسترعي الانتباه، ولكنه ظهرت عليه بوادر الصلاح وحضور القلب، وأنه إن وعظ لم يأت بألفاظ حلوة تقرع الأذن ثم لا تجاوزها، بل بمَعانٍ تصل إلى القلوب قبل أن تصل الألفاظ إلى الآذان.

وانتهى من طلب العلم واكتفى بما حصل منه، فقعد يدرّس في المسجد الصغير عند باب الجابية في دمشق، المعروف بجامع السادات، ويحضر درسَه نفر كانوا -لقلّتهم- تتسع لهم سدة المسجد، فكان الشيخ يقرأ فيها لا ينزل منها.

وكان أبوه يحتاج إليه لمعاونته في أعماله الكثيرة وتجارته الواسعة، وكان مقياس صلاح الرجال عنده القدرة على الأعمال وعلى اكتساب المال، فلما رأى ما انتهى إليه تألم وشكاه إلى

صديق له، بقّال أمام المسجد، وقال له: ما أدري والله من أين يعيش وكيف تكون حاله بعدي؟

واستمر الشيخ علي في درسه. وكانت أيام الانتداب في الشام، وقد بدأ الفساد يدخل إلى البلاد، والشيخ لا يدري بشيء لأنه لا يعرف من دنياه إلا داره ومسجده وكتابه وصلاته، حتى جاءه من قَصَّ عليه خبر ما جَدَّ في البلد من التكشف (وكان كل الذي جَدَّ أن امرأة واحدة، معاونة مديرة دار المعلمات، سارت في الطريق مكشوفة الوجه!) وخبر المدارس التي تُعلِّم علوماً ما سمع بها الشيخ وما عرفها، من علوم الكفار، وأن مدرّسيها من الذين تعلموا في بلاد الإفرنج أو على أيدي الإفرنج.

فعَظُمَ عليه الأمر، وفكر ليالي طوالاً: ماذا يعمل؟ وظهر أثر هذا التفكير الطويل في دروسه، فلم يعد يقتصر على شرح عبارة الكتاب، بل صار يتكلم من عنده، يرقّق القلوب ويذكّر بالآخرة ويدعو إلى الإصلاح، فكثر المستمعون حتى ضاقت عنهم السدة، فنزل إلى أرض المسجد، ثم ضاق عنهم المسجد، فصار يدرّس في جامع السنانية الكبير.

وكان -لصفاء قلبه- يقول: نحن نحن، ما تبدل فينا شيء، فلماذا هذا الإقبال؟

وتسابق الناس إليه وازدحموا عليه كما ازدحموا على زميله في الدعوة الشيخ هاشم رشيد الخطيب. وأشهد لقد سمعته مراراً فوجدت أن عنده ما يدفع إلى هذا الازدحام. ولم يكن في دروسه -كما قلت- علم غزير، ولكن كان فيها من روعة التذكير وشدّة

التأثير ما ليس له نظير. كان يخشع هو فيخشع السامعون، ويبكي فيبكون، وربما قال كلاماً عادياً تسمعه كل يوم فتحسّ إذا سمعته منه كأنك لم تسمعه من قبل.

* * *

وكان غنياً من جهتين، غنياً بماله الذي ورثه عن أبيه وغنياً بقلبه، وهذا هو الغِنَى. ورُبَّ رجلٍ يملك من الأموال ما لا تأكله النيران وقلبه قلب فقير، وفقيرٍ لا يملك قوت يومه وبين جنبيه نفس مِلك.

وكان أقرب الناس إليه التجار وأبناء القرى، لا سيما قرى حوران. وكان أكثر أهلها يومئذ بعيدين عن الدين، فعمد الشيخ إلى كل بلدة أو قرية، يأخذ من أولادها مَن يعلمه ويفقّهه في الدين، فيلازم الشيخ سنوات يعود بعدها إلى بلده معلماً ومرشداً، فأحيا الله به تلك الديار ورَدَّها إلى شرعة الإسلام.

ولم تمرّ على دعوته شهور حتى تجاوبت أصداؤها في أقطار الشام كلها، وأحس بها القاصي والداني واعترف بقوتها العدو والصديق. ولكنها عُنيت بالمظهر أكثر من عنايتها بالجوهر، وقامت على إصلاح «الخارج» قبل إصلاح «الداخل»، فتسابق الرجال إلى لوث العمائم على الطرابيش حتى لم يبقَ في البلد شاش، وأسرعت النساء إلى اتخاذ الإزار الأبيض بدل الملاءات السود حتى فُقد من السوق القماش، واستراح الحلاقون من العمل في وجوه الرجال، فعُطلت الشفرات وعملت الأمشاط. ثم مَلَّ العامة من هذا كله وفتَرَت حماستهم، وذهبت حِدّة هذه

الدعوة من نفوسهم وزال بريقها في عيونهم فانصرفوا عنها. كان أثرها فيهم كحريق القش اليابس، يلتهب في دقيقة لينطفئ بعد ساعة[1].

ولكن النار التي أوقدها الشيخ لم تنطفئ، ولئن خبت عند العامة فلم يبقَ لها لهيب ظاهر فلقد بقيت في الخاصة خفيّة، ولكنها دائمة، كنار الفحم الحجري، بطيء اشتعالها بطيء زوالها. ذلك أن الشيخ لمّا رأى إقبال أولاد القرى عليه، من حوران ومن البلقاء، ورآهم غرباء في دمشق لا نادي لهم فيها، خاف عليهم من الفساد وأشفق عليهم من التعب. وكان في دمشق غرف كثيرة في المساجد موقوفة على طلبة العلم، قد تسلّط عليها ناس ليسوا من أهل العلم ولا من طلابه، يتخذونها مجالس للتسلية أو بيوتاً

(١) قال في مقالة «حصاد ربع قرن في حقل الدعوة»: "بقي المشايخ في عزلتهم حتى أخذت الحماسة الدينية مأخذها من اثنين منهم، هما الواعظان الشعبيان العالمان الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب. وكان الثاني أعلمَ والأول أكثرَ شعبية وصوفية، فقاما بحركة هزّت دمشق وضواحيها هزّاً عنيفاً، وجدّدا الدعوة إلى الدين بعزيمة صادقة وهمّة وحماسة وعنف شديد، فأقبل عليهما الناس إقبالاً منقطع النظير، ولكنهما -مع الأسف- قد جعلا همَّهما الأكبر اتخاذ العمائم وإسبال اللحى وإلباس النساء الأُزُر البيض بدل الملاءات السود! ثم إنهما دعوا إلى مقاطعة مدارس الحكومة قبل أن يُعدّوا مدارس غيرَها، وإلى ترك العلوم الطبيعية ونبذ الأدب والاقتصار على النحو والفقه والحديث والتفسير! فكان ذلك سبباً في فشل هذه الدعوة، وكان فشلها سريعاً كما كان نجاحها سريعاً، فكانت كأنها حريق في تل من القش" (فصول في الدعوة والإصلاح، ص١٥٧) (مجاهد).

للسكن أو مخازن لعروض التجارة. فاستخلص منها ما استطاع استخلاصه فأسكن فيه هؤلاء الطلاب.

ثم رأى أن هذا كله لا يكفي وأن طلبة العلم في حاجة إلى مسكن قائم ومورد دائم، فألّفَ من هؤلاء التجار الذين يحفّون به جمعية سمّاها «الجمعية الغراء لتعليم أولاد الفقراء». وهو اسم غريب، ولكن العبرة بالمسمَّى لا بالاسم، وعملت هذه الجمعية عملاً عظيماً، ففتحت مدارس للصغار ومعهداً علمياً للكبار.

* * *

وكانت في دمشق مدرسة كبيرة بناها نائب الشام على عهد المماليك، الأمير تنكز[1] وكانت في الأصل في ظاهر دمشق فصارت اليوم لُبَّ البلد. وكانت الدولة العثمانية قد جعلت منها مدرسة حربية، ثم ورثها الفرنسيون لما اغتصبوا الحكم في الشام، فاستعان الشيخ علي بالشيخ بدر الدين على جعل المعهد فيها.

وكان الشيخ بدر الدين (كما قلت لكم من قبل) شيخ دمشق، أمرُه فيها الأمر، لا يخرج عليه حاكم أو محكوم، وكان لا يمشي إلا إلى مسجده ومدرسته، فلما استعان به الشيخ علي قال: امشِ يابا.

وكانت كلمته لكل من يخاطبه من كبير أو صغير «يابا». فمشى معه الشيخ علي وتلاميذه من ورائه حتى دخل الشيخ المدرسة، فأسرع إليه مديرها (وكان ضابطاً فرنسياً كبيراً) يستقبله

(١) المؤرخون يرادفون بين اسم جنكيز وتنكز، فلعل هذا من ذاك.

ويكرمه ويسأله عمّا يأمر به، فقال له والترجمان يترجم: يابا، هذه مدرسة دينية وفيها مسجد، وأنتم ما لكم فيها حق، فأعطوها للشيخ علي يجعلها معهداً علمياً. فقال له الضابط: كما تأمر، لكنا نحتاج إلى مهلة حتى نفتش عن محل ننتقل إليه وننقل إليه متاعنا. قال الشيخ: طيّب يابا.

ولم يمر شهر حتى استلمت الجمعية الغراء المدرسة. وكانت واسعة الرقعة، تصل بين شارع النصر وميدان المرجة، ولكنها مخرَّبة قديمة البناء، فشرعت الجمعية بتجديد بنائها وجمعت لذلك الأموال الكثيرة، قدم جُلَّها أعضاءُ الجمعية، واشتغلت في ذلك سنين حتى أعيد بناء المدرسة كلها ورجعت كالعروس بعد أن صارت كالعجوز.

❊ ❊ ❊



وأنا أحب (والكلام عن الشيخ علي وشيخه البدر) أن أعرض للقراء صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين، هي رحلته في سنة ١٩٢٤ مع الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، من دمشق إلى دوما إلى النبك إلى حمص إلى حماة إلى حلب. هذه الرحلة التي طافوا فيها بلاد الشام (سوريا) كلها، وكانوا كلما وصلوا بلدة أو قرية خرج أهلها على بكرة أبيهم (كما كان يقول أجدادنا)[١] لاستقبالهم بالأهازيج والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا وحمّسوا، وأثاروا العزة الإسلامية في النفوس وذكّروا بالمجد الغابر وحثّوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية التي امتدت سنتين وأذهلت ببطولتها أهل الأرض.

والثورة (كما نعرف نحن، وقد رأيناها رأي العين، ويعرف كل شامي أدرك تلك الأيام) قد قامت في الغوطة قبل أن تقوم في الجبل (جبل الدروز) وقد بدأت بخروج طلبة العلم بدافع الجهاد، ومن أوائل من خرج إليها شيخٌ من تلاميذ الشيخ هاشم لا يزال حياً، فاسألوه فعنده الخبر اليقين، هو الشيخ محمد إسماعيل الخطيب.

ومن هؤلاء الذين خرجوا وعملوا العجائب البطل الشهيد حسن الخراط، وقد كتبت عنه فصولاً طوالاً في مجلة «الناقد»

---

(١) كذا التعبير الصحيح، بالتعدية بحرف الجر «على» وليس بحرف الجر «عن» كما هو شائع على ألسنة العامة، لأن البكرة يُركَب عليها ولا يُركَب عنها (والبَكْر هو الفتيّ من الإبل) (مجاهد).

التي كانت تصدر في دمشق سنة ١٩٣٠[١]، وكان حارساً ليلياً أمّياً، قاد عصابات المجاهدين ووقف بهم في وجه فرنسا يوم كانت فرنسا أقوى دولة برية في أعقاب الحرب الأولى، وغلبها واحتل دمشق ثلاثة أيام!

وكانت معارك «جسر تورا» تهتز بأخبارها أسلاك البرق وأمواج اللاسلكي وتتناقلها أكبر جرائد العالم، فهل تعرفون ما جسرُ تورا؟ إنه جسر قديم على نهر عرضه خمسة أمتار، كانت تقف وراءه المئات من الثوار تحتمي بحيطان البساتين وبشجر الزيتون والمشمس، وترد بالبنادق العثمانية العتيقة حملة فيها عشرة آلاف ومعها المصفحات ويقودها جنرال!

وليس الكلام عن الثورة، ولكن قلت ما قلت لأبيّن أثر الشيخ بدر الدين وتلميذيه علي وهاشم في قيامها.

❊ ❊ ❊

---

(١) في الذكريات (١/٣٨٨): "في أيام عملي في «فتى العرب» طلب مني الأستاذ أديب الصفدي أن أكتب له شيئاً في «الناقد»، وهي مجلة أسبوعية كانت من أوائل المجلات التي صدرت في دمشق، كانت وسطاً بين المجلات الأدبية والمجلات الإخبارية، فكتبتُ رواية عن حسن الخراط نشرتُ منها فصولاً، كنت أعتمد فيها على الخيال أكثر من استنادي إلى الحقائق، ولم تَدَعْني سلطات الانتداب أتمّها. وهذه الفصول في كتابي الذي طُبع في تلك الأيام وأودعته بواكير كتاباتي، وسميته «الهيثميات» لأني كنت أتكنّى بأبي الهيثم وأمضي مقالاتي بهذه الكنية" (مجاهد).

وبعد، فإن «حركة» الشيخ علي لم تقف، ولا تزال بعد موته قريباً مما كانت في أواخر حياته، فمعهده لا يزال قائماً، ومن طلابه الذين ينهجون نهجه ويتبعون أثره اثنان من علماء الشام، الشيخ حسن حبنكة، وله معهد ضخم يبث فيه العلم وينشر روح الإسلام، والشيخ عبد الكريم الرفاعي، وعنده مئات ومئات من الطلاب، وهو قائد من أفضل قادة الجبهات الإسلامية إخلاصاً وعلماً وعملاً وعفّة يد ونزاهة نفس وحسن خلق.

وكان سر نجاح الشيخ علي صلاحه وعبادته وورعه، وأنه موقن بما يدعو إليه، يقيم الحق الذي يراه على نفسه وأهله قبل أن يقيمه على الغريب. وكان من منهجه أنه إذا جاء رمضان وقفَ دروسَ العلم وانصرف إلى العبادة وتلاوة القرآن وذكر الله بالقلب وباللسان، معتكفاً هو وتلاميذه في المسجد، تاركين الدنيا وراء بابه، قلوبهم مع الله وألسنتهم رطبة بذكر الله، يعيشون في جنة من جنان الخلد ولكنها في الدنيا، فيكون لهم من رمضان مدد روحي وذخر يدّخرونه زاداً للسنة كلها.

وكان الشيخ علي (كالشيخ بدر الدين) جميل الصورة ناصع البياض أزرق العينين حلو التقاسيم، له لحية بيضاء كبيرة تزيده جمالاً، وكان كلاهما يتخذ العمامة التجارية من القماش الهندي المطرز، لا العمامة البيضاء عمامة العلماء.

* * *

قلت إن والد الشيخ شكاه مرة إلى صديق له بقّال عند باب الجابية، وقال له: ما أدري كيف يعيش هذا الولد وكيف يصير

إذا كبر؟ وقد عُمِّر[1] هذا البقال حتى بلغ الشيخ ذروة مجده وازدحمت عليه الألوف وأقبلت عليه القلوب، وكان يوماً في دكانه، فرأى الشيخ خارجاً من المسجد ووراءه الحشود من أرباب العمائم، فذكر ما قاله الأب، واستغرق في الذكرى حتى غاب عن حاضره، وعَرَتْه حالة روحية غريبة، فنزل من الدكان واتجه إلى مقبرة «الباب الصغير» وصرخ بأعلى صوته: يا أبا صادق، يا أبا صادق، ارفع رأسك وانظر ابنك علي كيف صار؟

* * *

(١) كذا الصواب، بالبناء للمجهول، لأن الله هو الذي يعمِّر (أي يُحيي) الناس وهم يعمَّرون (مجاهد).

الشيخ محمود ياسين*

في هذا الحيّ المعتزل الساكن الذي كان آخر البلد، ما بعده إلا المقبرة، فنَبَعت من ورائه اليوم شوارعُ فِساح وساحات وقصور عامرات، وكان آخرَ دمشق القديمة فصار أولَ دمشق الجديدة، ولكنه بقي على شرقيّته وشاميته، لم يصل إليه الجديد ولم يألف أهله التقليد. والذي كان أبداً مسكن الصالحين، لم يَخْلُ من عالم زاهد وفقيه معلم، من يوم كان القريةَ التي خرج منها الأوزاعي، إلى أن شُيِّد فيها الجامع المأنوس الذي أُسِّس من يوم أُسس على التقوى وأقيم على الهُدى، وبُنِيَ على أنقاض الخان الذي كان ماخوراً فجمع الله به بين فضيلتين: باطل يُرفَع وحق يوضَع، فذهبت الغانيات الفاتنات وجاء العابدون المتبتلون، فمن ذلك سُمّي «جامع التوبة»[1]. في حارة ضيقة إذا مَدَّ الرجل يديه

* أصل هذه المقالة حديث أذيع من إذاعة دمشق أوائل الخمسينيات من القرن العشرين (مجاهد).

(١) هو مسجد حي العُقَيبة الذي وُلد فيه علي الطنطاوي وفيه دَرَج، وكان والده الشيخ مصطفى إماماً فيه، وله قصة ذكرها جدي في مواضع متعددة من كتبه، قال في حاشية على مقالة «في الكتّاب» (وهي في كتاب «من حديث النفس»): "لهذا المسجد قصة، هي أنه كان خاناً =

بلغتا جدارَيها، في دار فيها صغيرة، صحنها بركة حولها مجاز، وبناؤها غرفتان فوق درج، كان يقيم الشيخ الزاهد حقاً، الشيخ محمود ياسين الحمّامي رحمه الله رحمةً واسعة.

وفي تلك الساحة باب، إنْ أنت جُزتَه دخلت إلى بستان فسيح وروض أنيق، فيه ما رجوت من زهر وما اشتهيت من ثمر، جُمعت فيه فواكه الشتاء والصيف وأزهار السهل والجبل وجنى اليوم والأمس من كل غضّ جديد وقديم، مَرَّت عليه قرون وما فقد جِدّته ولا أضاع غضارته، وفيه اللذة وفيه الربح وفيه المتعة وفيه النفع، وفيه نهر إن شئت نَهِلتَ منه وإن شئت عَلَلت[1]، وإن شئت ملأت وإن شئت سبحت، وفيه قصر مسحور تُشرف منه على الدنيا كلها، غابرها وحاضرها، تستمع منه كل حديث ولو قضى محدثوه من عصور، وتجالس فيه كل عالم وأديب ولو مات من دهور، ثم إن أردت أقبلوا عليك وإن أشرت سكتوا عنك، لا يغضبون ولا يعتبون، وإن استعدت أعادوا عليك[2].

والمكان بعدُ -يا سادة- ذَرْعُه خمسٌ في خمس، ولكنه

= يُدعى «خان الزنجاري» تُرتكَب فيه أنواع الموبقات والمعاصي، فبلغ ذلك الملك الأشرف، فاشتراه وهدمه وأقام مكانه هذا المسجد الذي يسمى جامع التوبة، وهو من المساجد الكبيرة في دمشق" (مجاهد).

(١) نَهِل: شرب الشرب الأول، وعَلَّ: شرب ثانياً أو تباعاً (مجاهد).

(٢) في أبيات مشهورة لابن الأعرابي:

لنـا جُلَساء لا نَمَل حديثَهم ... أَلِبَّاءُ مأمونون غَيْباً ومَشْهَدا
يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مُسَدَّدا

وهي أبيات سائرة لها قصة معروفة (مجاهد)

حوى هذا كله وأكثر منه. هذه هي مكتبة الشيخ، وهذي هي الغرفة التي قلّما كنت أجد مكاناً هو أحلى في عيني وأمتع لقلبي منها، وقلّما أجد ذكريات بقعة أعزَّ عليّ وأطهر وأغلى من ذكرياتها، فكنت كلما جئتها شعرت بأنس الروح ولذة الاطمئنان(١).

* * *

وإذا كانت دمشق قد بكت في صاحب هذه المكتبة -يوم تُوفي- رجلَ الصلاح والإصلاح، فقد بكيت فيه مع العلم العمل ومع الزهد الرضا. كانت حياته في نظري درساً لمن أراد أن يتعلم كيف يكون المرء سعيداً، وكيف يجمع الدنيا والآخرة واللذة والشرف، وكيف يثق أن السعادة ليست بالمال الذي يتقاتل الناس عليه ولا الجاه الذي يسعون إليه، ولا بالقصور الشُّمّ والمنازل العَوالي، فقد زرت القصور وجالست الملوك وصاحبت الأغنياء

---

(١) وصف علي الطنطاوي هذه المكتبة في الحلقة ١٦٥ من ذكرياته (١٣٨/٦)، قال: "أنا حين أذكر دمشق وأحنّ إليها وتتراءى لي صور الأماكن المحبّبة إلى نفسي فيها، أذكر هذه المكتبة التي طالما كنت أحبّ زيارتها والقعود فيها مع الشيخ ومع تلاميذه: إخواننا الشيخ ياسين عرفة والشيخ محمود الحفّار والشيخ كامل القصّار، وصديقه وصديقنا الشيخ عبد القادر العاني، رحمه الله ورحم من مات منهم. وقد قدر الله أن تمرّ الأيام وأن أشتري هذه المكتبة وأن أُودِعها الكلّية الشرعية في دمشق، وهي باقية فيها إلى الآن. ومن اطّلع على عقد البيع رأى عجباً؛ فالجهة التي باعت يمثّلها أنا لأنني كنت رئيس مجلس الأيتام، والجهة التي اشترت يمثلها أنا لأنني كنت رئيس مجلس الأوقاف!" (مجاهد).

ولازمت الرؤساء، فلم أرَ السعادة على أتمّها وأكملها إلا في أمثال هذه الدار التي لا تتجاوز غرفة مفروشة بالسجاد النظيف على الخشب، على جوانبها مقاعد والجدران كلها كتب. يخلع الداخل إليها نعله ثم يجلس على الأرض، فحيثما جلست دفء ونظافة تُشعرك نظافة الروح ودفء الحب، يستقبلك فيها هذا الشيخ بوجه تقرأ في أساريره الطيب والإخلاص وترى في عينيه الحب والطهر، يسلم عليك ويرحّب بك، لا ترحيب المتكلف وسلام المنافق، وترى منه الود الصادق والرأي المُحكَم والنكتة والتواضع، وتراه حائراً فيما يكرمك به.

يُلزمك محبته ويشعرك إجلاله، لا يتصنع لذلك ولا يريده ولا يتطلبه بلفظ ولا فكر، ولكن منظره ومخبره يوحيان إليك بذلك كله. وكان ينعم بمتعة الطُّرفة على أحسن ما نَعِم بها بشر، فكان يعيش في قفر الحياة في واحة مخضرّة ظليلة وروضة مُمْرعة أنيقة.

كان سعيداً لأنه كان مؤمناً بالله، يعلم بأن كل ما جاءه فمنه وكل ما ذهب منه فبحكمه. كان راضياً أبداً إن أُعطي أو مُنع لأنه كان راضياً عن الله، ويوقن بأن الرزق مقسوم وأن الله هو المُحيي لا المال، فكان المال أهون شيء عليه، فإن جاءه أكل منه وأطعم، وإن بعد عنه عفّ وصبر.

وكان واسطة عقد جماعة من كرام الناس، أحبَّهم وأحبوه، ودعاهم إلى الخير فاتبعوه، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فأطاعوه، فاتحدوا قلباً وقالباً، فهم يقرؤون معاً ويصلّون معاً، ويذهبون ويجيئون ويجِدّون ويهزلون، كل دار لأحدهم دار لهم



كلهم وكل ماله مالُهم، يجيء الشيخَ محتاجٌ منهم فيعطيه كيسَ ماله ليأخذ منه ما يريد، ولكنه يُضيّق فلا يأخذ منهم، خَلّة فيه رحمه الله.

تآخت أُسرهم وتوادّت نساؤهم، حتى إن أربعة منهم، أحدهم الشيخ، رأوا حاجة الناس إلى الاصطياف ورأوا فساد المصايف، فاختاروا بقعة في الهامة من فوقها الجبل الأشْجَر ومن تحتها ومن حولها الخمائل المتتالية والنهر يجري أسفلَ منها زاخراً فياضاً، فبنوا فيها داراً مشترَكة فيهم مهايَأة، قسموا بينهم أيام

الصيف وأيام الشتاء وليالي القمر وليالي الظلام، فكانت شيوعية إسلامية[1].

* * *

وكان رجلَ دين حقاً. لست أعني أنه من هؤلاء الواعظين المحترفين الذين يَعِظون من ألسنتهم لا من قلوبهم، قد لبسوا ثياب الصلاح على المنبر كما يلبس الممثل ثياب الملك على المسرح، فإذا تم الوعظ وانقضى التمثيل نُضيت تلك الثياب فعاد الملك صعلوكاً والواعظ طمّاعاً خبيثاً! ولا الذين يتخذون التُقى دعوى يكسبون بها الدنيا والنسك شبكة يصطادون بها المال، يزهّدون الناس ولا يَزْهدون ويعظون ولا يتعظون، ولا الأتقياء في المجّان فقط، يصلّون مئة ركعة ويسبّحون ألف تسبيحة ويسكنون المساجد ويعانقون المصاحف، ثم لا تجود أكُفّهم بقرش إلا إنْ جاد بالمال الحديدُ الأصمّ، ولا تلين قلوبهم لعطاء إلا إنْ لانَ جلمدُ الصخر! ولا من الذين طلقوا الدنيا ثلاثاً وحرّموا على أنفسهم طيّباتها وعافوا لذيذ المأكل وناعم الملبس... بل أعني بالتقيّ حقاً الذي يتبع الشرع ويقف عند أمره ونهيه ويجد حلاوة الإيمان ولذة العبادة، وما رآه أحد يصلي إلا اشتهى الصلاة، من كثرة خشوعه وظهور إخلاصه وطيب صلاته.

---

(١) هذه هي «المُهايَأة» المعروفة في الفقه. في «الذكريات» (٦/٣٣٢): "هل سمعتم بالمُهايأة؟ إذا كان للدار مالكان لا تتّسع لهما ولا يمكن أن تُقسَّم بينهما فإنهما يقسمان الوقت، فيستعملها كل واحد منهما شهراً أو سنة ويستعملها الآخر مثل ذلك" (مجاهد).

لا يجلس متجهّمَ الوجه يعظ أبداً ويتلو الأحاديث، ولا يتظاهر بخشونة الثوب وتطويل السُبحة وتعريض الجبّة كما يصنع هؤلاء الذين يدّعون الولاية دعوى بلا دليل، فإذا جاءت الدنيا وعُرضت المطامع نسوا دعواهم! بل كان زاهداً حقاً، وهو يأكل ويشرب ويستمتع ويؤمّ البساتين، ولا يأكل محرماً. وكانت زهادته في المال، عرضت له الفرص ليكون موظفاً كبيراً فأبى وآثر تعليم الصبيان في مدرسة صغيرة، فلما جاء الفرنسيون جعلوا للمدارس الخاصة معونة على أن يفتشوها، فأبى، وكان وحدَه المعارض، فأُغلقت مدرسته. ولم يكن يملك شيئاً، فعُرض عليه القضاء، فأبى إلا أن يكون كاتباً في المحكمة الشرعية. ثم عُيّن مدرساً، وكان في المدرّسين من يأخذ المال بلا عمل، فحمل كتابه وذهب فدرّس. وكان ينفق -بعد هذا- إنفاقَ من لا يخشى الفقر ولا يرجو إلا الله ولا يعتمد إلا عليه، يجيئه الأصحاب فيأخذون من ماله ومن علمه، يقرؤون عليه ويأكلون عنده.

* * *

يا سادة: لو شئت أن أحدثكم عن الشيخ محمود -رحمه الله- صديقاً لوجدت له في رأسي ذكريات من أقدس وأنفس ما عرف الناس من ذكريات الصداقات، ولو شئت أن أحدثكم عنه معلّماً لوجدت مآثره في التعليم، ولو شئت أن أحدثكم عنه مصلحاً لوجدت جهده في الإصلاح، ولكن الوقت ضيق، وأنا أريد أن أحدثكم عنه على أنه الرجل التقيّ السعيد.

إني لأعرض سير من أعرف فلا أكاد أعرف رجلاً كان -في ظني- أسعدَ منه، وإذا كان المعلمون يأخذون الأجر من الطلاب

فإن الشيخ يُعطي الطلاب أجرة، ولم يرزأ احداً شيئاً، يعطي ولا يأخذ ويتفضل ولا يقبل أن يُتفضَّل عليه.

هذي -يا سادة- لحظات مع رجل عاش سعيداً ومات حميداً، فما رأيت في الناس مَن أحبه الناس حَيّاً وبكَوه ميتاً مثلما أحبوه وبكوه. ولقد كانت جنازته مأتماً عاماً، ما تدري فيه مَن المعزّي ومن المُعزَّى! وهو الذي ستظل مآثره وتظل سيرته درساً لمن أراد أن يعرف كيف يجمع الإنسان سعادة الدارين ولذة الحياتين، رحمه الله.

* * *

الشيخ عزيز الخاني*

قعدت أتذكر ما أعرفه عن الفقيد رحمة الله على روحه، وأعرض أصباحي معه وأماسيّ وما رأيت منه وما سمعت عنه، فإذا أنا أمام آلاف من صور الخير والجمال تمرّ بي مواكبَ إثر مواكب، وكلٌّ حافلٌ بالنبل فيّاض بالفضل، وإذا أنا أغيب في نشوة هذه الذِّكَر الحلوة كأني غائب عن نفسي على أجنحة حلم شهيّ فاتن، وإذا أنا أرى فيها «فِلماً» يكرّ مسرعاً تتداخل صوره وتتعانق مشاهده، لولا أنه فِلْمٌ واقع حقَّقَته هذه النفس النبيلة العظيمة، لم يبدعه الخيال المجنّح ولا اخترعته العبقرية المبدعة.

ولم أدرِ ماذا آخذ منه وماذا أدع، ولو تركتموني أتحدث ما أشاء لحدثتكم عنه أياماً وليالي حديثاً يهزّ قرارات القلوب ويحرك أعماق النفوس، وما كذبت فيه ولا بالغت، ولكنها ربع ساعة! هل أستطيع أن أجمع ذكريات ثماني سنين كنت فيها في صحبة الفقيد، أجلس بقربه جنبي إلى جنبه، ثماني سنين رأيته فيها في رضاه وفي غضبه وصَحِبته فيها في حضره وفي سفره، كيف أُدخل هذه السنين الطوال في هذه الدقائق القصار؟ إن ذلك لا يكون إلا بمعجزة، وقد مضى عصر المعجزات.

---

* كلمة ألقيت في حفل تأبين الشيخ، وقد توفي سنة ١٩٥٠ (مجاهد).

يا سادة: إن القلم يقف إن لم يمدَّه قلب واع وذهن مفكر، وإنه ليقف إن طغت على القلب العواطف وازدحمت على الذهن الفِكَر، فاعذروني إذا أنا أجملت ولم أفصّل وأشرتُ ولم أوضح، ومررت بهذه الحياة مَرَّ الطيارة بالمدينة الحافلة بكل جليل وجميل.

إني أذكر يوم سعيت إلى لقائه من عشر سنين أولَ ما وليت القضاء، أحيّيه تحية القاضي الصغير للقاضي الكبير، أمشي على تردد، أخشى أن لا أصل إلى قلبه وبيننا مسافة عشرين سنة في العمر وبيننا مسافات في الدرجة وفي الزي. وكنت أصدّق ما يقول المراجعون من أن دون المشايخ حجاباً من الجِدّ والصرامة وما لا أسميه، فلم أكَدْ أَلِجُ الباب حتى أحسست بنفحة من لطفه وظرفه، كما يحس الضالّ في الصحراء المحرقة حين يدخل الواحة وتهب عليه نسائمها. وتلَقّاني بالتحية والتَّجِلّة[1] ورفعني حتى صَغُرت في عين نفسي بمقدار ما كبر في عيني، وحدّثني عن كتبي ومقالاتي وأبي وجدي، ولم تمضِ ربع ساعة حتى شعرت أني -من حبي له- حيال والد أو عَمّ كريم.

وكلما أوغلت في صحبته رأيت الدلائل الجدد على نبله، ورأيت أن ما بدأني به أول يوم يُعاد كل يوم، حتى إني إذا قمت لحاجة أبى إلا أن يقف لي ويودعني وإن رجعت بعد لحظة أبى إلا أن يقف لي ويستقبلني! ووجدت أن ما صنعه بي يصنعه بالناس جميعاً، مع الموظفين والمراجعين والزائرين، يُنادي كلاً بأحب الأسماء إليه ويزيل وَحشته ويطرح كُلفته ويتحمل غِلظته ويغتفر غلطته.

---

(١) التجلة: الإجلال (مجاهد).



تمدّه ذاكرة قوية يعرف بها الناس، فيسأل كلاً عن أهله وعياله وعن خاصة أمره سؤال المحتفي به، فيُشعر بذلك كل واحد أنه صديقه الأوحد وصَفِيّه الأدنى. وكانت هذه الخلة من أطيب الخلال، وبمثلها امتلك مجدّد العصر صديقُنا الشيخ حسن البنا قلوب الناس، ما رأيت مثلها إلا له ولقليل من الناس، منهم الشيخ محمد محمود الصواف.

وكان يُعطي من قلبه مثل ما يعطي من لسانه، فكان أوفى الناس لصديق وأبرَّهم به وأقضاهم لحاجته، وما أعرف رجلاً سأله أمراً يقدر عليه إلا أجابه إليه. وكان يذيع الحب أينما سار، كحامل المسك حيثما مشى فاح منه العطر. وكان يتسع قلبه للصديق

والعدو، والتّقي والشقي، والمسلم والكافر. وكان يُحسن حتى لمن يسيء إليه وينفع من يضره. وأشهد أني ما سمعت منه -على طول ما صحبته- كلمة سوء بإنسان جرى به لسانه، ولا عرفت أن قلبه انطوى على كره إنسان.

وكان يُعطي من جيبه مثل ما يعطي من قلبه، ولطالما رأيته يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، يمد يده بالعطية وعلى لسانه كلمة الاعتذار وعلى شفتيه بسمة التحية، خشية أن يجرح بها شعور السائل أو يُدخل بها الهوان على نفسه. وما كان يرضى قط أن يركب سيارة لا يدفع أجرتها، أو يدعوه أحد ولا يجدد له دعوة، أو يهدي إليه شيئاً ولا يضاعف له الهدية، كل ذلك على ضيق في ذات يده وقناعته براتبه وعلى ما باع من إرث أبيه وجده. وما عرفته -مع ذلك كله- أخذ قرشاً من كشف، وكان ذلك حقه هو، ولكنه كان يترفّع عنه. أما نظافة يده وبعده عن الحرام فأمر يعرفه كل من كانت له صلة به.

ولم يكن لطفه من ضعف. كان من أعز خلق الله نفساً وكان يأبى الدنيّة ويرى أن له الصدر، لا لذاته بل لأنه يحمل لواء الدين بين أبناء الدنيا، وما عرفت ولا عرف الناس أنه رضي مرة بغير الصدر ولو كان في مجلس الرئيس، ولا ركب على غير اليمين، ولا خرج إلّا أولاً. وقد آتاه الله من الهيبة والجلال ما مكن له ذلك حتى عند من لم يعرفه، ولو كان يتسع المجال لسردت عليكم من قصصه في مصر حتى عند ضباط الإنكليز -لمّا زرتها معه سنة ١٩٤٧، وكانت لا تزال في أيديهم- لسمعتم عجباً.

والغريب أنه كان يبلغ ذلك بلطفه ورقَّته، ولقد بدا منه في

أخريات أيامه جانب ما كنت أعرفه هو جانب الشدة والصرامة، وله في مسألة دين الدولة مواقف مثل مواقف الجبال الرواسخ.

* * *

ليتني أستطيع أن أمضي في الحديث، ولكن أزف الوقت، وإن في الحفلة[١] لَخطباء أنصع مني بياناً وأفصح لساناً، فعفواً يا سادة إن لم أصف كل ما أعرفه عن الفقيد، والعفو يا سيدي يا سماحة القاضي العزيز والسلام عليك، سلام القلب، سلام الحب، سلام الإخاء، سلام الوفاء. سلام عليك، لئن أورث الأغنياء مالاً وترك العلماء كتباً فلقد خلّفت لوعة في كل قلب وحسرة في كل فؤاد، وحسبُك سيرتك باباً إلى الخلود إن أنت لم تترك مصنفات وتآليف، وما أكثرَ من خَلَد من الأعلام بسيرته وحدها، من لدن سفيان والفضيل بن عياض إلى الشيخ بدر الدين.

السلام عليك، سيمر دهر طويل قبل أن نرى بعدك رجلاً مثلك، له قلب مثل قلبك ونُبل مثل نُبلك، ومن له هيبتك وهيئتك وعزتك وعفتك، وما أسفت إلا اليوم على أني لم أكن شاعراً لأرثيك. ولكن لا، لا والله ما ينفعك اليوم شعر ولا نثر ولا تفيدك الخطب ولا المقالات، ما ينفعك إلا دعوة صالحة من رجل صالح. اللهم (وما أنا بالعبد الصالح، وإني لَمُقرّ بذنوبي معترف بعيوبي ولكن رحمتك وسعت كل شيء) اللهم اغفر له وارحمه، وزد في حسناته وتجاوز عن سيئاته، وألحقه بالذين أنعمتَ عليهم

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في حفلة التأبين في القاعة الكبرى بجامعة دمشق.

من النبيّن والصدّيقين والشهداء والصالحين، اللهم وزميلَه الشهيد الذي قُتل ظلماً وعدواناً ولم يُذكر في حفل ولم تُقم عليه خطب، عادل العلواني[1].

أيها السادة، أحضروا قلوبكم واجمعوا خواطركم وتوجهوا إلى الله قائلين: آمين.

* * *

(١) قُتل القاضي الشيخ عادل العلواني غيلةً وتسبب مقتله بضجّة ورجّة في دمشق. اقرأ قصته في الحلقة ١٢٣ من الذكريات (٤/٣٣٥)، وانظر مقالة «القاضي الشهيد» في كتاب «كلمات صغيرة» (مجاهد).

الشيخ كمال الخطيب

نشرت سنة ١٩٥٣*

رجل كان فذاً بين الرجال، لا ترى مثلَه العصورُ الطوال. وإذا كان الرجل العادي المهذب كالنسخة المطبوعة من الكتاب فإن الشيخ كمال نسخة مخطوطة مفردة، وقد يكون في المخطوطة خرمٌ أو نقصٌ أو يكون على صفحاتها أثر من دهن أو بلل، ولكنها -مع ذلك- أثمن من المطبوعة وإن كان ورقُها نظيفاً وطبعها متقناً، لأن هذه واحدة في الدنيا ولأن من تلك آلاف الآلاف.

كان الشيخ كمال بقية عصر مضى، ولكنه أبى أن يَمضي معه فعاش في القرن الحاضر كما كان في القرن الماضي، فكان تحفة في متحف ولكنها تمشي، وصفحة من تاريخ ولكنها تتكلم. وكان بطلاً في جسم عجوز وغنياً في ثياب سائل، وكان فكرة استحالت رجلاً ومثلاً أعلى سُوّي إنساناً.

ولكلٍ منا مثل أعلى يتمثله إذا انفرد بنفسه، أما مثل الشيخ الأعلى فهوَ أعماله التي يعملها. ولكل منا أفكار يفكر فيها إذا خلا بعقله، أما أفكار الشيخ فهي كلماته. وكل منا يعرف حقائق الناس

* في «الرسالة»، العدد ١٠٢٣ بتاريخ ١٩٥٣/٢/٩.

ومثالبهم وعيوبهم ولكنه يكتمها عنهم، أما الشيخ فكان يقول لكل إنسان ما يعرفه عنه، لا يستثني من ذلك أحداً من الناس أبداً. وليس الذي بالشيخ ما يسمّونه الصراحة أو الوقاحة، بل هو شيء لا أعرف له اسماً لأني لم أجده عند شخص آخر: يقول لكلٍّ رأيه فيه بأوضح عبارة وأقصرها وأشدها، ثم يمشي لا يريد بها جلب منفعة ولا درء مضرة. ثم يحبه مع ذلك الناس كلهم ويحترمونه ويخافونه: رجال الشعب ورجال الحكومة، والعلماء والجهلاء، والأغنياء والفقراء، لا يَسْلم من لسانه أحد، ولكن لا يكرهه أحد.

* * *

ولم يكن يبالي حبَّهم ولا كرههم ولا يحفل بإكبارهم ولا احتقارهم، لأنه يعيش من نفسه في عالَم، غايةُ مطلبه من الدنيا قماشٌ يستر عورته، ولم أقل جبة ولا رداء لأنني لم أكن أدري ما كان يلبس على التحقيق: أجُبَّةً غيَّرَها طولُ البَلَى حتى صارت من قِصَرها وتَثَنّيها كالرداء، أم رداء أبْلَتْه الأيام فصار كالجبة؟ وشيءٌ يملأ جوفه، سواء عنده أكان هذا الشيء خبزاً يابساً أم كان أرزاً ولحماً. ومكانٌ يضع عليه جنبه، سريراً أو فراشاً أو قطعة ممهدة من الأرض الفضاء! فإن وجد ذلك لم يطلب شيئاً بعده، لا يرجو جاهاً ولا مالاً ولا يخاف سجناً ولا رهقاً.

كان أخوه الأصغر زكي بك زعيماً كبيراً من زعماء الشام، ولي الوزارة مراراً ورياستها بالوكالة مرة، وهو محام معروف، وأخوه الآخر كان طبيباً كبيراً، وأهله ذوو ميسرة وغنى، ولكنه لا يرزأ أحداً شيئاً، ولا يجرؤ واحد منهم على دعوته إلى طعام أو منام.

ولقد حدّثني الأستاذ زكي بك أنه ما افتقر هذا الفقرَ إلا لأنه كان كبيرَ إخوته؛ مات أبوه وخلّف له هذين الصغيرين، فباع أملاكه كلها وأنفق عليهما حتى استكملا الدرس في إسطنبول (وكانت باريسَ تلك الأيام) ثم أبى أن يأخذ منهما قرشاً واحداً، وإذا عرضا عليه هدية أو دعَوَاه دعوة غضب أشد الغضب، فتركا ما يريدان لما يريد، فعاش أغنى الناس، لا لأنه كان أكثرَهم مالاً، بل لأنه كان أقلَّهم حاجة. ولا فرق بين أن تكون لك كنوز قارون فتنال بها كل ما تطلب أو أن تكون مطالبك هيّنة يسيرة فلا تحتاج إلى مال كثير لتنالها، ومن هنا قال مَن قال: إن السعادة هي القناعة.

قنع من الحياة بأيسر ما تحفظ به على صاحبها الحياةُ: رغيف يسدّ جوعته وقماش يستر عورته. وكان إذا طلب الناسُ المصايف واتخذوا لها الدور وأعدوا العدة حمل عباءته وعَيْبَته[1] ومشى مشياً إلى بَسِّيمَة، درّة الوادي وجوهرة العقد في جيد بَرَدَى، فوضع العباءة والسفرة في المغارة فوق العين الخضراء، ثم نزل فدار بالقهوات وجالس الجماعات فوعظ ونصح وأمر ونهى، لا يرزأ أحداً طعاماً ولا شراباً ولا مالاً ولا يُدخل جوفه من عند أحد شيئاً، ثم عاد إلى المغارة فأكل فيها ما استطاع أن يُعدّه لنفسه، رغيفاً ولحماً أو خبزاً وزيتوناً أو شاياً وكسرات يابسة من خبز الأمس، وحمد الله ونام.

---

(١) وعاءٌ مثل الكيس، غالباً من جلد وقد يكون من الخوص، يوضع فيه المتاع، يشبه ما يدعوه عامة الشام «السَّك» (وأحسبها من الكلمة الأجنبية sack) (مجاهد).

لا يخشى السرقة على مال ولا الخسارة في تجارة، ولا الشرَّ من عدو ولا خيبة الأمل في صديق.

* * *

وهذا هو عمله في دمشق: ينزل من قبل أذان الفجر إلى جامع بني أمية، فيصلي ويقرأ أجزاء من القرآن، ثم يبقى في الجامع، يمرّ على الحلقات، فإن وجد ما يعجبه شجّع المدرس بكلمة، وإن أنكر شيئاً رَدَّ عليه، وإن أحس غموضاً وضّحَ أو إيجازاً شرحَ أو مللاً من السامعين نفَّسَ عنهم بنكتة، ويعرف له المدرسون ذلك فلا يأبَونه منه، وإن أبى بعضهم سلقه بلسان حديد فحطّ من كبريائه وألان من إبائه، حتى كان شيخنا الشيخ صالح التونسي (وهو مدرّس الحرم النبوي الآن[1]) يسمّيه «مفتش الجامع».

وهو يعرف أكثر أهل دمشق وآباءهم وأجدادهم، ويدور في الأسواق يراقب الناس ويدرس أحوالهم. أمضى سبعين سنة وهو في هذه المراقبة، فإن رأى حقيراً رفعته الأيام بلا سبب فتكبّر رماه بكلمة كالقنبلة فعرّفه قدرَه وجرّأ الناس عليه، وإن رأى دجالاً انخدع به الناس فحسبوه عالماً حَطّ منه فصرفهم عنه، وإن أبصر جاسوساً أو ممالئاً للفرنسيين صرخ: "الله يلعن الجواسيس والمنافقين"! وإن نظر إلى أمٍّ ولدُها وسخ قال لها: "ها هو الماء، اغسلي وجهه فالنظافة من الإيمان". وإن رأى بائعاً يغش مشترياً أو مشترياً يضايق البائع، أو شاباً يتحرش بالنساء أو امرأة تتصدى

(١) أي وقت نشر هذه المقالة في الرسالة، سنة ١٣٧٢هـ.

للشباب، أو رأى معتدياً على آخر في جسده أو ماله أقام القيامة عليه، فكأن البلد كلها مدرسة والناس تلاميذها وهو المعلّم فيها.

وهو قاموس حيّ، فيه تاريخ دمشق وأنباء أحداثها وأخبار رجالها ونسائها، حوادث رآها ووعاها وناس عاشرهم وخبرهم. وله آراء في السياسة صائبات وأنظار ثاقبات، وله كلام مغطّى تعودَه أيام الاستبداد الأولى أيام الاتحاديين، حين كان الجواسيس يخالطون الناس في أسواقهم ومجامعهم ومدارسهم وطرقهم، وحين كانت للجدران آذان وكان يؤخَذ الناس في أوساط الليل من بيوتهم بلا محاكمة ولا تحقيق إلى حيث لا يدري أحد. وكان الناس يستمعون له ولا يجرؤون على معارضته.

وكان يتوسط في الخصومات ويعرض لحلّ المشكلات ويقضي بين الناس بلا محكمة ولا مرسوم جمهوري، فيسمع من الخصمين ويوازن بين حجج الفريقين ثم يقضي، والويل من جحيم لسانه لمن لا ينفّذ حكمه! فكم ألّفَ بين زوجين وأصلح بين شريكين. وكان يأخذ من الأغنياء سطوةً واقتداراً أو حباً وإكباراً فيعطي الفقراء المستورين، فيسعف الله به وجوهاً لولاه أذهب ماءها حَرُّ السؤال.

وكان قديماً خطيبَ الجامع الأموي (ولم أُدرك أنا ذلك) فضايق الحكومة بكشف عيوبها وضايق العلماء الرسميين بذكر سجايا العلماء العاملين، فتألب عليه علماء السوء فأغرَوا حكّام السوء حتى عزلوه، فاتخذ من كل مكان منبراً يخطب عليه، ولبث على ذلك حتى توفاه الله من نحو سنة.

* * *

هذا هو الشيخ كمال الخطيب؛ نسخة مخطوطة نادرة من مخطوطات الرجال، رجل فرغ من مطالب نفسه وعاش للناس، فكان مثله الأعلى هو عمله وأفكاره هي قوله، وكانت دمشق مدرسة وكان فيها الأستاذ. رحمة الله عليه.

* * *

الشيخ كامل القَصّاب

نشرت سنة ١٩٨٤*

سألني من أيام أحد الإخوان، قال: هل كنت تلميذ الشيخ كامل القصاب؟ قلت: لم أدخل مدرسته، ولكني بمنزلة تلميذ صغير من تلامذته. قال: وماذا تعرف عنه؟ قلت: أعرف الكثير. ولكن خبّرني أولاً: ما الذي دفعك إلى السؤال عنه؟ ومن أين سمعت به وعرفت أني تلميذه؟ قال: لقد كتب ذلك الأستاذ محمد حسين زيدان، أفلم تقرأ ما كتب؟

قلت: لا، وإن كنت أحب أن أقرأ للأستاذ زيدان منذ رأيت مقالته في رثاء شيخنا الرافعي سنة ١٣٥٦. وأقصى النجاح لكاتب في أيامنا أن يقرأ الناس ما يكتب، لأن المطابع ترميهم كل يوم بما يعجزون أن يقرؤوا عُشر معشاره، فلا بد أن ينتقي المرء ما يقرأ. وأنا حين أرى المقالة في الصحيفة أو المجلة أنظر -أولَ ما

---

(١) نشر جدي رحمه الله هذه المقالة في «الشرق الأوسط» ضمن حلقات ذكرياته بتاريخ ١٩٨٤/٣/١٥، ولها أصل أقدم يعود إلى أوائل الستينيات، ولم أعرف تاريخ نشره على التحقيق. وقد سقطت من المقالة قطعةٌ طويلةٌ يبدو أن الطابع غفل عنها فلم تظهر في طبعة الكتاب السابقة، فأعدتها إليه (مجاهد).

أنظر- إلى اسم كاتبها، فإن كان من الأسماء التي أعرفها وأقرأ في العادة آثار صاحبها قرأتها، وإن لم أرضَ عنها وإن خالفته الرأي فيما قال فيها. وإذا أبصرت اسماً جديداً أعرضت عن المقالة، ويتكرر ورود هذا الاسم عليّ ويتكرر إعراضي عنه حتى يتفق أن يجيء يوماً بموضوع يهمني أو يفتتح المقالة بكلمة تسترعي انتباهي، فأقرأ له، فإن أعجبتني وضعته في ذهني في قائمة أسماء من أقرأ لهم.

وأحسب أن أكثر القرّاء في هذا مثلي.

* * *

أما الشيخ كامل القصاب فإن في سيرته فصلاً كاملاً من تاريخ الشام الحديث، تاريخها العلمي وتاريخها السياسي، فهو من أركان التعليم فيها وعلى رأس المناضلين السياسيين من رجالها.

أنا أكتب الآن ذكريات سنة ١٩٣٧ [١]، وهذا أوان الكلام عن الشيخ كامل الذي عاد إلى الشام في تلك السنة بعد أن أمضى في المنفى سبع عشرة سنة، لأن الفرنسيين حكموا عليه بالقتل لما دخلوا الشام لأنه دعا إلى قتالهم لمّا عَدَوا على بلده يسلبونه استقلاله ويسرقون حريته وماله، حكموا عليه لما دخلوا الشام بعد ميسلون، فخرج هارباً كما خرج صديقه خالي محب الدين الخطيب. ثم أقام في حيفا، وكان معه عز الدين القسام (الذي فجّر

---

(١) نُشرت هذه المقالة في جريدة «الشرق الأوسط» عقب نشر الحلقة رقم ١٠٧ من حلقات الذكريات (مجاهد).



أول ثورة في فلسطين) وهو أصغر منه بعشر سنين[1]. ثم عاد إلى الشام فعمل ما عجزنا جميعاً عن عمله، فجمع العلماء في مؤتمر عام انبثقت عنه «جمعية العلماء».

والعلماء في الشام كثير (أو كانوا كثيراً يومئذ) والأمة تسمع منهم وتمشي وراءهم وتقتدي بهم وتأتمر بأمرهم، ولكن علّتهم أنهم مختلفون لا يتفقون، يختلفون بين صوفية وسلفية ومذهبية ولامذهبية، يختلفون في جزئيات الفروع، أمامهم عدو قوي يريد

(١) الضمائر في هذه العبارة ملتبسة، وبيانها أن القسام هو الأصغر، فقد ولد في جبلة سنة ١٨٨٣، وولد الشيخ كامل في دمشق سنة ١٨٧٣، وفيها توفي سنة ١٩٥٤ (مجاهد).

أن يجرد الأمة من دينها ونجد أن من علمائنا من يصرفهم عن هذه المعركة بالنزاع على الهبوط للسجود في الصلاة: هل يكون بوضع اليدين أولاً أم الركبتين؟ كما فرقهم من سنين في التراويح: هل هي ثماني ركعات أم عشرون؟[1] ولولا أني أعرف الذي يصنع هذا ولا أشك فيه لقلت إنه مسخَّر من أعدائنا لتمزيق صفوفنا وليشغلنا عن معركتنا الكبرى بهذه المعارك الفرعية التي لا جدوى منها والتي تذهب بها ريحنا ويغدو بها بأسنا بيننا.

فلما جمعهم الشيخ كامل عادت إليهم قوتهم، وإن لم يتم اجتماعهم لأن «الجمعية الغراء» لم تدخل في هذا الاجتماع. وأنا لا أكتب تاريخاً وإنما أدوّن ذكريات، لا أتتبع المراجع ولا أمسك بأطراف الموضوع، بل أخبر القراء بما أعرف (أو بما بقي في ذهني مما كنت أعرف)[2].

* * *

(١) قال في مقالة «منهج الدعوة وواجب الدعاة»: "انتشرت في دمشق من سنين مشكلة شغلت العلماء شهوراً، ونُشرت فيها رسائل وأُلِّفت فيها كتب وكُتبت فيها مقالات، وانقسم أهل العلم فيها قسمين، فلا تسمع في كل مجلس إلا جدالاً. ولعلكم لا تصدقون إذا قلت لكم إن هذه المشكلة الكبيرة التي شغلت العلماء ليست محاربة الإلحاد الفاشي ولا الفساد المنشر ولا نصرة الفضيلة وقمع الرذيلة، بل هي مشكلة التراويح: هل هي عشرون ركعة أم هي ثمان؟ وصارت هذه هي مشكلة المشكلات في الإسلام في تلك الأيام!" (فصول في الدعوة والإصلاح، ص١١٠) (مجاهد).

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة آخر الحلقة ١٨٥ من الذكريات، وهي في الجزء السابع (مجاهد).

الشيخ كامل هو ابن حَيِّنا، العُقَيبة. وكانت دمشق مقسومة إلى ثمانية أحياء، لعل من أفقرها وأصغرها العقيبة التي كانت يومئذ في طرف البلد، عند مقبرة الدحداح. وكان لكل حي مسجد جامع، والمسجد الجامع للبلد هو الأموي، وكان جامعنا هو جامع التوبة. وكان في كل حي «قبضايات» (أو «فُتوّات» كما يسمونهم في مصر) وكان قبضايات حينا من بيت كرَيِّم، فكان الشيخ كامل القصاب يقال له في شبابه الشيخ كامل كريّم، لأن أمه منهم[1]، كما كان بيت فيصل يُسمَّون بيت كريّم، وهم أهل صديقنا الدكتور شكري فيصل[2].

نشأ الشيخ كامل نشأة الفتوّات وطارت له شهرة وكانت له مواقف، حتى صار ممن يّشار إليه. ثم دخل جامع التوبة، وانقطع فيه سنين عاكفاً على طلب العلم بمثل الهمة التي كان يطلب فيها الفتوة، حتى خرج عالماً متمكناً من علوم الدين وعلوم العربية. وكانت في دمشق مدرسة ثانوية رسمية واحدة ومدارس نصرانية وتبشيرية وأهلية إسلامية كثيرة، كان من أكبرها المدرسة التجارية التي كان أبي مديرها[3] وكان من تلاميذها خالد بك العظم الذي

---

(١) في الذكريات (٦/١٣٧): "كان آل كريم لشهرتهم يُنسَب إليهم أسباطهم، أي أبناء بناتهم، حتى إن الشيخ كامل القصاب الذي كان إماماً في التعليم وعَلَماً في الوطنية والنضال للاستقلال كان يُدعى أول أمره الشيخ كامل كريّم" (مجاهد).

(٢) توفي بعد كتابة هذه المقالة بأقل من سنتين، ورثاه جدي في الحلقة ١٦٥ من الذكريات، رحم الله الاثنين (مجاهد).

(٣) من شاء فليقرأ أخبار هذه المدرسة في الحلقة السادسة من الذكريات، وهي في الجزء الأول (مجاهد).

ولي رياسة الوزراء غير مرة، وذكر أنها كانت -على عنايتها بالدين واهتمامها بمناهج المعارف- أول مدرسة اهتمت بالرياضة والكشفية.

ثم أنشأ الشيخ كامل «المدرسة الكاملية»، وكانت تسمى حيناً المدرسة العثمانية (كما تسمى «المدرسة التجارية» بمدرسة الاتحاد والترقي، على اسم الجمعية التي كانت تحكم البلاد). وبلغت «الكاملية» مرتبة عالية بين المدارس، علّمَ فيها أعلامٌ من أهل الشام، كالدكتور عبد الرحمن شهبندر والأستاذ خير الدين الزركلي والدكتور أسعد الحكيم، وتخرّج فيها جماعة من الأعلام منهم شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، ومنهم أستاذ كل من قال في دمشق "أنا طبيب"، الدكتور أحمد حمدي الخياط، الذي درّس في كلية الطب في الشام من سنة ١٩٢٠، وكان أحد الذين عرَّبوا المصطلحات الطبية وقاموا بذلك العمل العظيم، وأخرج مع زميله الدكتور مرشد خاطر المعجم، الذي ينتقده ويعلق عليه من سنين في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق الأستاذ العالم الدكتور حسني سبح، وهو زميل الدكتور الخياط[١].

ولكن أقول الآن: إني كنت مرة مع بعض الإخوان في إدارة

---

(١) «معجم المصطلحات الطبية»، ألّفَه الدكتور كليرفيل ونقله إلى العربية أحمد حمدي الخياط ومرشد خاطر ومحمد صلاح الدين الكواكبي. وقد نشر الدكتور حسني سبح استدراكاته عليه في سلسلة مقالات بعنوان «نظرة في معجم المصطلحات الطبية»، بدأ بنشرها في المجلد الثالث والأربعين من «مجلة مجمع اللغة العربية» الصادر سنة ١٩٦٨، وفرغ منها في المجلد السابع والخمسين سنة ١٩٨٢ (مجاهد).

«المقتطف» في مصر، وقد صدر العدد الجديد من المقتطف وفيه خبر شيء استُحدث في عالم الطب، نسيت الآن ما هو. وكانوا يفخرون بالسبق إلى نشره، فقلت لهم: إن عندنا أستاذاً في المعهد الطبي (وكان ذلك اسم كلية الطب في دمشق) اطّلع عليه ووصفه في الكتاب الذي يدرّسه لطلابه من آخر السنة الماضية، فعجبوا. وكان هذا الأستاذ هو الدكتور حسني سبح، شيخ أطباء الشام، بل من كبار أطباء العرب، وهو الآن رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق[١].

* * *

أقدم ذكرياتي عن الشيخ كامل أنه كان قبل موقعة ميسلون يخطب في دمشق، في الطرق والساحات ومجتمعات الناس، يثيرهم ويحمّسهم، فلما كانت الهزيمة المتوقَّعة (التي كنا نستحقها لأننا خالفنا عن أمر ربنا الذي قال لنا: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ وقال: ﴿ولا تهنوا﴾، فقبلنا إنذار غورو وسرَّحْنا الجيش[٢])

---

(١) بقي رئيساً للمجمع حتى وفاته، وتوفي سنة ١٩٨٦، بعد نشر هذه المقالة بسنتين (مجاهد).

(٢) بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى عقدوا مؤتمر سان ريمو الشهير سنة ١٩٢٠، وفيه قرّروا وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني. وعلى الأثر وجّهت فرنسا إنذارها الشهير إلى الحكومة السورية التي كان رئيسها هاشم الأتاسي ووزير دفاعها يوسف العظمة، وكان من شروط الإنذار تسريح الجيش وتسليم البلاد للفرنسيين! وقَبِل الأمير فيصل الإنذار لكن الحكومة السورية رفضته، فخرج يوسف العظمة =

لما كان ذلك وقضى الله علينا بأن يحتل الفرنسيون بلادنا أصدروا قائمة بأسماء جماعة حكموا عليهم بالقتل، كان أول اسم في هذه القائمة اسم الشيخ كامل القصاب، فغادر إلى الحجاز فجعله الملك عبد العزيز مديراً للمعارف، ثم استقال وذهب إلى حيفا.

قابلته عند خالي محب الدين سنة ١٩٢٨ على ما أذكر، ولكن حبلي لم يتصل بحبله إلا سنة ١٩٣٧ لمّا عاد إلى الشام وعدت في إجازة الصيف من بغداد [١]، فلزمتُه وصرت من المترددين عليه العاكفين على حضور مجالسه والمشاركين في أحاديث هذه المجالس. ولما أعاد افتتاح مدرسته وجعلها مدرسة شرعية، فكانت نواة الكلية الشرعية، كلّفني تدريس التاريخ والأدب. وكان من الطلاب جماعة صاروا اليوم من كبار الأساتذة وصار منهم من هو أعلم مني، منهم الدكتور عبد الحميد الهاشمي والأستاذ محمد القاسمي والدكتور أديب صالح والأستاذ أحمد الأحمد، وكان منهم حيناً الدكتور وهبة الزحيلي وعبد الرحمن رأفت الباشا.

ومما وقع لي يوم الامتحان أني كنت أراقب الطلاب، وما

= إلى ميسلون بمن استطاع جمعه من المتطوعين، وليس في أيديهم سلاح سوى بنادق قديمة، وهنالك التقوا بجيش فرنسي منظم يضم تسعة آلاف مقاتل ومعه المدافع والدبابات والطيارات. استمرت المعركة ساعتين، استُشهد فيها يوسف العظمة وثمانمئة من رفاقه، وهُزم الجيش ودخل غورو دمشق، وفرّ فيصل إلى فلسطين ثم إلى أوربا، وسقطت سوريا في يد الفرنسيين (مجاهد).

(١) درّس جدي في مدارس العراق تلك السنة والتي قبلها (مجاهد).

كانوا يحتاجون إلى مراقبة دقيقة إذ كان عددهم قليلاً، وكان وقت الامتحان طويلاً، ووجدت أمامي «الكامل» للمبرد فجعلت أقرأ فيه. وطال الوقت، وقرأت منه نحواً من ثلاثين صفحة. فلما خرجت وانتهى الامتحان دعاني الشيخ كامل لحضور امتحان الأدب، وكان في كتاب الكامل، وكان الطلاب قد قرؤوا منه ما لا يزيد عما قرأته آنفاً، وكانت اللجنة مؤلفة من أستاذنا سليم الجندي والأستاذ الشيخ عبد الحميد القَنَواتي، وأظن أن الثالث الأستاذ عز الدين التنوخي، رحمهم الله جميعاً. فكان الطالب يقرأ فيمرّ بالأبيات، فأسأله (أو يسأله غيري) عن تفسير كلمة فيها أو شرح جملة، فإذا وقف قلت له: أذكر أن هذا التفسير مَرَّ قبل صفحة أو صفحتين أو سيمر الشرح بعد صفحة أو صفحتين... فلما طال ذلك مني قالوا: عجباً، أتحفظ الكامل؟

فلو قلت "نعم" أو سكتُّ لشهد لي هؤلاء الأساتذة الثلاثة الكبار بأني أحفظ الكامل. فهل يمكن أن يكون بعض ما يروى عن حفظ الأولين (بعضه لا كلّه) من هذا القبيل؟

* * *

وبعد، فقد فتحت على نفسي وعلى القراء باب خير واسعاً في الكلام على مَن عرفت من الرجال[1]، ولكن هل أستطيع دخوله؟ إن دون الوصول إليه حفراً وعقبات وعوائق شديدات، فهل أبلغه وأدخله؟

---

(١) يقصد في حلقات «الذكريات» التي كان ينشرها في جريدة «الشرق الأوسط» في ذلك الوقت. انظر الحاشية في صدر المقالة (مجاهد).

إنه طريق طويل طويل، كلنا يجتازه، نحط الرجال وننصب السرادق، يمر بنا السائرون يقيمون ما يقيمون ثم يرحلون فلا نلقاهم أبداً. لكل منهم موعد يدعوه فيه داعية فلا يملك إلّا أن يجيب، ثم يأتي موعدنا نحن، فيأتي من يحملنا -شئنا أم أبينا- إلى حيث يريد من أرسله لا إلى حيث أردنا، فلا نعرف -وقد فارقنا خيمتنا- إلى أين مصيرنا. ثم يجيِء بعدَنا من يسكن فيها مكاننا، يستأجرها كما استأجرناها ثم يخلِّفها كما خلّفناها:

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا عندنـا
يشربون الرّاحَ بالمـاء الزلال
عصَفَ الدهر بهم فانقرضوا
وكذاك الدهرُ حالاً بعد حال

* * *

الشيخ محمد بهجة البيطار

نشرت سنة ١٩٨٤*

الناس الذين يدخلون حياتنا منهم مَن يَمُرّ كما يمر النهر على الصخر، لا يترك أثراً ولا يُنبت زهراً ولا ثمراً. ومنهم من يمر مرور الماء على الأرض البكر، تكون قبلَه قنواتٍ قاحلات وتصير بعده جناتٍ مُمْرعات. ومَن يمرّ مرور السيل الدفّاع، يدمر العمران ويقتل الحيوان ويؤذي الإنسان.

وكل من تلقاه أو تحدثه يأخذ منك ويعطيك، يترك في نفسك أثراً منه، حسناً كان أم سيئاً، مؤقتاً أم باقياً. ما قعدت بين يدي معلم في المدرسة ولا جلست أستمع إلى محدِّث في ناد أو واعظ في مسجد، بل ما صحبت صاحباً ولا اتخذت رفيقاً إلا كان له في نفسي أثر، يكون عميقاً تارة فيبقى فيها طويلاً، أو يكون ضحلاً فيُمحَى منها سريعاً.

---

* نشر علي الطنطاوي هذه المقالة أول مرة في الستينيات، ثم أعاد نشرها في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات ذكرياته بتاريخ ١٩٨٤/٣/١٥، وجمعها مع مقالة الشيخ كامل القصاب (التي مضت قبلها في هذا الكتاب) ففصلتها عنها وأعدتهما مقالتين مستقلتين في صورتهما الأولى (مجاهد).



وممّن أثّرَ فِيَّ ناسٌ تحدثت عنهم، منهم الشيخ عيد السفرجلاني والشيخ صالح التونسي والشيخ عبد القادر المبارك والأستاذ سليم الجندي، وناس أرجو أن يوفق الله إلى الحديث عنهم، كالأستاذ محمد كرد علي والأستاذ عز الدين التنوخي والشيخ محمد الكافي التونسي، ورجل أتحدث عنه الآن هو الشيخ بهجة البيطار.

كان التلميذَ الأكبر علماً للجمال القاسمي، كما قرأ على السيد محمد الخضر حسين لمّا كان في دمشق (ثم عاد إلى مصر وصار شيخ الأزهر) والشيخ بدر الدين الحسني الذي كان يلقَّب بالمحدث الأكبر، وأستاذه الذي انتفع به وسار على طريقته واستنار بـ«مناره» هو السيد رشيد رضا.

في سنة ١٩٢١، لما كنت تلميذاً للشيخ حامد التقي (وهو أَسَنُّ تلاميذ الشيخ جمال الدين القاسمي) في مدرسة «أنموذج المهاجرين» في دمشق، كان يحدثنا عن زميل له في القراءة على الشيخ جمال الدين هو الشيخ بهجة البيطار، الذي كان يومئذ معلّماً في مدرسة «أنموذج الميدان» الابتدائية. وذهبت بعد ذلك بسنوات إلى الميدان فصليت الجمعة في جامع الدقّاق فسمعت خطبته، فإذا أنا أجد ما لا أجد مثله في المساجد التي كنت أصلي فيها؛ لم يكن يقرأ الخطبة من ديوان قديم كما كان يصنع يومئذ أكثرُ الخطباء، ولا من ورقة مكتوبة يضع عينه فيها ولا يرفع رأسه عنها، بل كان يخطب ارتجالاً. ولم يكن يلقي كلامه ذلك الإلقاءَ الملحَّن الممطوط الذي يسبب النعاس ويستدعي الملل بدلاً من أن يثير النشاط ويبعث الأمل[1]، بل كان يلقي إلقاءً طبيعياً عادياً كما تُلقَى المحاضرات.

وصرت كلما استطعت ركبت الترام فذهبت إليه فصليت عنده ورجعت. ثم افتقدته فسألت عنه، فقالوا إنه سافر إلى الحجاز فحضر مؤتمر العالم الإسلامي الذي عقده الملك عبد العزيز

---

(١) كانت تلك طريقتهم في ذلك العهد. ولمّا أصدر علي الطنطاوي «رسائل الإصلاح» سنة ١٩٢٩ انتقد خطباء الجمعة الذين كانوا: "يقرؤون ما في دواوين الخطب، يلقونه أسوأ إلقاء وأقبحه، فمن متغنٍّ بخطبته ومن متشدّق بها، وكلهم يستقرّ في نبرات صوته حيث الاستفهام ويستفهم حيث الوقف والاستقرار، وهو حزين حيث الغضب وغضبان حيث الوعظ، وكلهم يلزم السجع البارد المستثقَل والمحسّنات البديعية المستهجَنة!" (الذكريات ١/٤١٢) (مجاهد).

سنة ١٩٢٦ (١٣٤٥هـ) في مكة المكرمة، وإن الملك استبقاه عنده فجعله مديراً للمعهد العلمي السعودي في مكة (أو مشرفاً، فلست أدري الآن على التحقيق) وولّاه القضاء، فاشتغل به مدة ثم استعفاه منه قائلاً مقالة الشيخ محمد عبده: "خُلقت معلماً ولم أخلق قاضياً"، فولاه وظائف تعليمية وجعله مدرّساً في الحرم وعضواً في مجلس المعارف. ثم استأذنه للعودة إلى دمشق، فعاد سنة ١٩٣١ إليها وإلى الخطبة في جامع الدقاق.

عرفته في تلك الأيام فوجدتني معجباً به ولكني مخالف له. لقد وجدت أن الذي أسمعه منه يصدم كل ما نشأت عليه، فقد كنت في العقائد على ما قرره الأشاعرة والماتريدية، وهو شيء يعتمد في تثبيت التوحيد من قريب أو بعيد على الفلسفة اليونانية، وهي فلسفة بدائية. وكنت موقناً بما ألقوه علينا، وهو أن طريقة السلف في توحيد الصفات أسلم وطريقة الخلف أحكم، فجاء الشيخ بهجة يقول لي بأن ما عليه السلف هو الأسلم وهو الأحكم.

وكنت قد نشأت على النفرة من ابن تيمية والهرب منه، بل وبغضه، فجاء يعظّمه لي ويحببه إليّ. وكنت حنفياً متعصباً للمذهب الحنفي، وهو يريد أن أجاوز حدود التعصب المذهبي وأن أعتمد على الدليل، لا على ما قيل!

وتأثرت به وذهبتُ مع الأيام مذهبه مقتنعاً به، ولكن لم يكن هذا التحول هيناً ولا سهلاً، وما كنت قط سهل القياد ولا سريع الانقياد، بل ناضلت دون ما كنت أعتقده، وأمضيت عشرات من الجلسات والسهرات في المجادلات والمناظرات، أنا باندفاعي وحماستي وعنفي، والشيخ بهجة بسعة صدره وطول أناته وغزير

علمه وقوة حجته. ولقد عرضت في بعض كتاباتي إلى ما مر عليّ من أدوار: كيف نشأت مقلداً مؤوّلاً كارهاً لابن تيمية، ثم أثّر فيّ الشيخ بهجة فغدوت سلفي العقيدة متمسكاً بالدليل، ثم صحبت الشيخ زاهداً الكوثري حيناً فرجعت إلى ما كنت عليه، ثم أقمت عند خالي محب الدين في مصر واقتربت من السيد رشيد رضا، فعاد أثر الشيخ بهجة في نفسي قوياً، ثم ثَبَتُّ عليه[1].

* * *

(١) رأيت من استغلّ هذا النص ليثبت أن علي الطنطاوي ذهب مذهب السلفية التقليدية في الأسماء والصفات، وليس الأمر كذلك، وقد أوضح موقفه من هذه المسألة في موضعين من كتبه، فلم يَبقَ بعدَهما شك في أن له مذهبه المستقل في فهم آيات الصفات. الموضع الأول هو فصل «توحيد الألوهية» في كتاب «تعريف عام بدين الإسلام» الذي بقي يعتبره -حتى آخر عمره- كتابَه الأثير الذي يقبل أن يتخلى في سبيله عن نصف كتبه (كما قال)، والموضع الثاني في الذكريات التي كانت آخرَ ما كتب في حياته رحمه الله.
تجدون المسألة مبسوطة في الذكريات في الحلقة ٢٣١ (في الجزء الثامن) وفيها يقول: "كانت نشأتي الأولى على يد مشايخ كلهم صوفي، فكان من ثمرات ذلك أن كرّهوا إليّ ابن تيمية وابن عبد الوهاب. ثم سافرت إلى مصر لأدرس فيها، وأنا ابن عشرين سنة متفتح القلب للتلقّي، فحوّل خالي محب الدين وجهتي وجعلني أحب ابن تيميّة وابن عبد الوهاب بعد أن كنت أكرههما. ثم دنوت حيناً من الشيخ زاهد الكوثري فتأثرت به، ثم صحبتُ الشيخ بهجة البيطار فرجعت إلى ما كنت عليه مع خالي محب الدين الخطيب. ثم انتهيت الآن بحمد الله إلى طريق الصواب، فلا ألتزم التزاماً كاملاً =

بقيت أكثر من ثلث قرن أصلي الجمعة عنده أنا والأستاذ التنوخي، والأفغاني حيناً والشيخ ياسين الرواف أحياناً، وكان عنده كل جمعة جماعة، منهم بعض الأفاضل الذين يعزّ لقاؤهم

= إلّا بما صحّ عن المعصوم الذي هو الرسول عليه الصلاة والسلام وما جاء في كتاب الله الذي لا يدانيه الباطل ولا يقاربه".

أما ما كتبه في «تعريف عام» فهذه خلاصته (بكلماته):

"لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلامية وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلمين، ولكن مسألة آيات الصفات قد طال فيها المقال وكثر الجدال، ولا بد من بعض البسط للكلام فيها.

لقد وصف ربنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدلالة على معانٍ أرضية ومقاصد بشرية، مع أن الله ليس كمثله شيء، فهو الرب الخالق تعالى على أن يشبه المخلوقين، ولا يمكن أن تُفهَم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله بالمعنى نفسه الذي تُفهَم به حين إطلاقها على المخلوق. فنحن نقول: فلان عليم وفلان بصير، ونقول إن الله عليم بصير، ولكن الكيفية التي يَعلَم بها العبد ويبصر ليست هي التي يعلم بها ربنا ويبصر، وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره. كذلك نقول: "استوى المعلم على منبر الفصل" ونقول: "استوى الله على العرش". نحن نعرف معنى الاستواء القاموسي ونطبقه على المعلم، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو ذاته المقصود حين نقرأ ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾.

هذا كله متفَق عليه بين العلماء، فهم جميعاً مُقِرّون بأن آيات الصفات هي كلام الله، فإذا قال الله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ لم يستطع أحد أن ينفي فيقول: ما استوى. وهم جميعاً معترفون بأن المعنى القاموسي البشري لكلمة استوى ليس هو المراد من قوله ﴿استوى على العرش﴾. ولكنهم مع ذلك اختلفوا اختلافاً كبيراً في المراد =

في غير هذا المكان، كالأمير شكيب أرسلان لمّا قدم الشام (في السنة التي أتكلم عنها الآن) وكنت أعرفه من بعيد عظيماً في جهاده وفي كتابته وعلمه، فعرفته من قريب عظيماً في تواضعه وسيرته.

= المقصود (بعد اتفاقهم على ترك التعطيل والتشبيه) فتساءلوا: هل هذه الآيات حقيقة أم مجاز؟ وهل تؤوَّل أم لا تؤوَّل؟
أما الذين أوَّلوا فقالوا بأن الحقيقة هي استعمال اللفظ بالمعنى الذي وُضع له. وهذا هو تعريف الحقيقة عند عامة علماء البلاغة. ولا شك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن وُضعت فيه هذه الألفاظ قبل نزول القرآن ووضعت لمعانٍ أرضية مادية، حتى إنها لتعجز عن التعبير عن العواطف والمشاعر البشرية، فكيف تحيط بصفات الله وتشرح كيفياتها؟
وإذا كانت الحقيقة هي استعمال اللفظ فيما وُضع له وكانت ألفاظ "استوى ويمكر ونَسِيَهم" إنما وضعت للمعاني الأرضية البشرية المادية وكان استعمالها في القرآن في قوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ وقوله: ﴿ويمكر الله﴾ وقوله: ﴿فنسيهم﴾ في غير هذا المعنى المادي الأرضي البشري الذي وُضعت له، إذا كانت كذلك لم تكن -إذن- حقيقة بمقتضى تعريفهم هذا للحقيقة.
ومن ينكر أنها مجاز (ومنهم ابن تيمية) يعرّف الحقيقة تعريفاً آخر خاصاً به غير التعريف الذي جرى عليه البلاغيون، ويقول ما معناه: إن تأويل هذه الألفاظ (أي تفسيرها تفسيراً مجازياً) والجزم بأنه هو المراد مردود، لأن المعاني المجازية هي أيضاً معانٍ بشرية.
وقد نظرت فوجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال:
١- آيات وردت على سبيل الإخبار من الله، كقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. فنحن لا نقول: إنه لم يَسْتَوِ، فنكون قد نفينا ما أثبته الله. ولا نقول: إنه استوى على العرش كما يستوي القاعد على =

أكلنا، فقال الأمير: إن من عادتي أن آخذ سِنة من النوم بعد الأكل. فقام الشيخ مسرعاً، فقال الأمير: إلى أين؟ قال: أعد لك السرير. قال: ما لي وللسرير؟ وأخذ وسادة من الوسائد التي

= الكرسي، فنكون قد شبهنا الخالق بالمخلوق، ولكن نؤمن بأن هذا هو كلام الله وأن لله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله، لأنه لم يبيَّن لنا مفصَّلاً ولأن العقل البشري -كما قدمنا- يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه.

٢- آيات وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة. و«المشاكَلة» هي كقوله تعالى: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيْهُمْ﴾. فكلمة «نسوا» جاءت على المعنى القاموسي للنسيان، وهو غياب المعلومات عن الذاكرة، ولكن كلمة «فنسيهم» جاءت مشاكلة لها ولا يراد منها ذلك المعنى، لأن الله لا ينسى: ﴿وما كان رَبُّك نَسِيّاً﴾.

ونقول بعبارة أخرى: إن كلمة «نسوا» استُعملت بالمعنى الذي وُضعت له، وكلمة «فنسيهم» استعملت بغير هذا المعنى. ومثلها قوله ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ اتفق الجميع على أنها معيّة علم لا معيّة ذات لأن صدر الآية ينص على أن الله استوى على العرش. ومثلها قوله: ﴿ومكروا ومكر الله﴾ وقوله: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾، كل هذه الآيات لا يجوز فهمها بالمعنى القاموسي الماديّ، بل بمعنى يليق به جلّ وعلا.

٣- آيات دلت على المراد منها آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وقالت اليهودُ يدُ اللهِ مَغْلُولةٌ، غُلَّت أيديهم ولُعِنوا بِمَا قالُوا، بل يداه مبسوطتان يُنْفِقُ كيفَ يشاءُ﴾. تدل على المراد منها آية: ﴿ولا تجعل يدكَ مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البَسْطِ﴾، ويُفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود، ولا يستلزم ذلك (بل يستحيل) أن يكون لله تعالى يدان كأيدي الناس والحيوان، تعالى الله عن ذلك. وقد =

كنا نستند إليها، فوضعها على الأرض في وسط الغرفة وألقى برأسه عليها وقال: "السلام عليكم"، وأغمض عينيه. فقال الأستاذ عز الدين التنوخي: "إي نعم (وكانت تلك كلمته التي يرددها) هذا هو الصحيح"، وأخذ وسادة ألقاها إلى جنبها وفعل مثل ما فعل، وقلدهما الحاضرون، فصارت الوسائد دائرة صغيرة عليها الرؤوس، والأجساد ممتدة خطوطاً من حولها!

وكان كلما خطب وانصرف إلى داره انصرف معه جماعة من الناس، فوجدوا المائدة معدّة، ففي كل جمعة وليمة، فيأكلون ويبقون يتحدثون ويستمعون إلى الشيخ فيستفيدون حتى يؤذن العصر، فيصلون ويذهبون.

وكنت آخذ إليه كل مَن عنده شبهة في الدين أو كلام في الإسلام سمعه من غير المسلمين، فيزيل الشيخ الشبهة ويدفع الاعتراض، ويوفَّق في أكثر الأحوال، وقد يقول في بعضها كلاماً طويلاً لا يشفي الغليل. وكان يغلب عليه حيناً التفكير في أمر يشتغل به ذهنه، فإذا دُعي إلى الكلام خاض فيه وإن لم يكن هو مجال المقال وإن لم يناسب الحال.

= جاء في القرآن قوله: ﴿بين يدَيْ رحمَتِهِ﴾ و﴿بَيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديد﴾ والقرآن ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾، وليس للرحمة ولا للعذاب ولا للقرآن، يدان حقيقتان".

هذا هو رأي علي الطنطاوي في هذه المسألة بكلماته رحمه الله، ولا أعلم أن له فيها رأياً آخَر غيره. ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب «تعريف عام» وإلى حلقة الذكريات المذكورة (مجاهد).

وهو مطّلع على جوانب من علوم شتى، ومُلِمٌّ بالفرنسية فهماً وكتابةً، درسها في المدرسة العازرية[1] في دمشق. أفليس عجيباً أن يكون الشيخ بهجة من تلاميذ المدرسة العازرية النصرانية، دخلها حيناً من الدهر؟

وهو الذي عرّفني بالشيخ ياسين الرواف، أول ممثل للمملكة العربية السعودية في دمشق[2]، ثم بأخيه الشيخ عيد الذي حل محله، ثم رشيد باشا الذي صار سفير المملكة بعدهما، وهو من أذكى الناس، ضعف بصره في آخر أيامه أو كُفَّ، فكنت أدخل عليه مع الشيخ فأخفف الوطء ولا أنطق ولا أسلّم وأقعد ساكناً، فيوجه الكلام إليّ حيثما كنت من المجلس كأنه يراني. ثم السفير عبد العزيز بن زيد، وكلاهما كان من جماعة ابن الرشيد، ولكن الملك عبد العزيز -على عادته في تألّف من كانوا أعداءه وامتلاك قلوبهم بالإحسان إليهم- جعلهما من أوفى الناس له وأقربهم إليه. وكان الملك عبد العزيز رحمه الله يقرب الشيخ ويعرف له قدره، وكان له عليه عطف خاص لم يكن لغيره.

* * *

(١) ولعلها منسوبة في الأصل إلى العذراء أم سيدنا عيسى، فحرّف الناس اللفظ، والله أعلم، فما عندي عن ذلك علم.

(٢) وهو الذي كان سبباً في سفر علي الطنطاوي مع بعثة استكشاف طريق الحج البري، على ما تقرؤون في أول كتاب «من نفحات الحرم» الذي أرجو أن تصدر طبعته الجديدة قريباً من وقت صدور هذا الكتاب (مجاهد).

كان أول اتصالي بالشيخ بهجة سبب أزمة لي في حياتي، فلقد كان أكثر مشايخي، بل أكثر مشايخ الشام، ممّن يميلون إلى الصوفية وينفرون من الوهابية[1]، ينفرون منها كما ينفر الإنسان من عدو خطر مجهول. وكان عندنا جماعة من المشايخ يوصَفون أو يوصَمون بأنهم من الوهابيين، على رأسهم الشيخ محمد بهجة البيطار وزميله في القراءة على الشيخ جمال القاسمي الشيخ حامد التقي. ومن أعجب العجب أن والد الشيخ بهجة صوفي من غلاة الصوفية القائلين بوحدة الوجود، على مذهب ابن عربي وابن سبعين والحلاج، كما أن الشيخ خالد النقشبندي، المفسر السلفي، كان جده المدفون في سفح قاسيون هو الذي حمل الطريقة النقشبندية إلى دمشق! ومن تبع أمثال هذه الظاهرة في تاريخ علمائنا وأدبائنا وجد منها الكثير، ولعل من أغربها أن صاحب «الأغاني» أبا الفرج الأصفهاني أموي النسب شيعي المذهب، ومن أبنائي الأستاذ محمد سعيد المولوي، وهو سلفي العقيدة وعمُّه شيخُ المولوية وأبوه من مقدَّميها.

من هنا كان اتصالي بالشيخ بهجة سبب سخط هؤلاء المشايخ عليّ، حتى إن أحدهم لقيني مرة فسألني عن حالي، فقلت في نفسي: لماذا لا ألقي بالحقيقة الثقيلة عارية في وجهه، وما شاء فليفعل؟ فقلت له: اقرأ كتاباً لابن تيمية على الشيخ بهجة في دار الشيخ ياسين الرواف.

---

(١) وهم لا يعرفونها ولا يدرون أنه ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي، ولكن ذلك أمر افتراه عليهم خصومها، وهذا الذي أقوله الآن قلته في مقالة في «الرسالة» من نحو خمسين سنة.

أي أنني جمعت له الوهابية من أطرافها. فأخذني إلى مدرسته (وكان مديرَ مدرسة أهلية) فلقينا الشيخ أمين سويد (وهو من كبار علماء الشام، وقد جاء به الشيخ محمد علي زينل يدرّس في مدارس الفلاح هنا، ثم أخذه يدرّس في مدرسة الفلاح في بومباي). وكان الشيخ أمين شيخ أبي، فقال له: يا سيدي، هذا ابن الشيخ مصطفى صار وهابياً ينكر التوسل. فقال الشيخ رحمة الله عليه: يا بني، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. دعه فلا شيء لك عليه.

* * *

وكان الشيخ بهجة في بداية أمره معلماً في المدرسة الابتدائية في الميدان، كما كان بين المعلمين مجموعة من المشايخ الفضلاء، استولت عصبة في تلك الأيام من الماسونيين أعداء الدين على وزارة المعارف فنكلوا بهم ونقلوهم إلى مدارس صغيرة، منها ما هو بعيد عن الشام. فنُقل شيخنا الشيخ حامد التقي إلى قرية دُمَّر، فبادلته على الوظيفة، وكنت معلماً في الشام، وكان التبادل مقبولاً عند الوزارة، فأعدته إلى الشام. وكان من هؤلاء المشايخ الشيخ سعيد البرهاني، وكانوا يؤذونه لمشيخته. والشيخ صالح الخطيب، وكنت يومئذ رئيس لجنة الطلاب، حولي آلاف منهم يطيعون أمري ويمشون ورائي ويتحركون بإشارة من يدي، فأخذت نفراً من أقويائهم وذهبت إلى مدير المدرسة التي كان فيها الشيخ سعيد البرهاني والمدرسة التي كان فيها الشيخ صالح الخطيب، فدخلت عليه وقبّلت يد الشيخ أمامه، وأفهمته أن الشيخ لا يستحق إلا التجِلّة والإكرام وأن من يَمَسّه ويعتدي عليه

أهلٌ للعقوبة، فما عادوا بعد ذلك إلى إيذاء واحد منهم.

ثم دُعي الشيخ بهجة إلى إنشاء «دار التوحيد» في الطائف، وأخذ معه ولديه، وهما نابغان، أحدهما الدكتور يسار، من خبراء المال، والثاني الأستاذ عاصم، من أعلم مدرّسي النحو اليوم وأحسنهم طريقةً في التدريس، وقد اشتغل سنين في المملكة.

* * *

ومما وقع للشيخ بهجة أنهم أخذوه إلى روسيا وإلى أميركا. أما أهل أميركا فيَدَعون الضيف يرى ما يشاء ويقول ما يشاء، ثم يتخذون من الأسباب ما يُبطل كل دعوة إلى الخير وكل إرشاد إلى إصلاح، بالوسائل التي تشتمل عليها حضارتهم وما تحمل من اللذات المحرمة واللهو الصارف عن الخير. وأما الروس فلا يدَعون الضيف يرى إلّا ما يريدون هم أن يراه، ولا يمشي إلّا إلى حيث يحبون هم أن يمشي، ولا يلقي من الناس إلّا من يسمحون له هم بلقياه، ثم لا يخلّون بينه وبينهم، بل يبثّون حوله العيون وينشرون الجواسيس، يسجّلون عليه كل حركة وسكنة وكل همسة وكلمة.

ولقد خُدع أكثر من ذهب إلى روسيا من العلماء والمشايخ، حتى شيخنا الشيخ بهجة. وكانت لي دروس ليلية في مسجد الجامعة في دمشق، وكنت أتكلم ليلة عن الشيوعية، فدخل شيخنا الشيخ بهجة، ففرحت وقلت له: تفضل يا سيدي أهلاً وسهلاً، حدّثهم عما رأيت في روسيا. فكان مما قال إنه لم يَرَ عورة بادية ولا ذراعاً عارية، ما رأى إلّا الحجاب السابغ، فتألمت ووجدت

أنه -غفر الله له- سيهدم عليّ ما بنيت وينقض ما أبرمت. فسألته لأنبّه الشباب السامعين: وكم هي درجة الحرارة هناك يا سيدي؟ فقال: عشرون تحت الصفر. فأفهمتهم أن هذا الحجاب للخوف من البرد لا للحرص على الفضيلة.

وفي كثير من مشايخنا الكبار مثل هذا البعد عن المكر، حتى إن الواحد منهم يُمكَر به فلا يشعر، مع أن عمر كان يقول: "لست بالخب[1]، ولكن الخب لا يخدعني". من ذلك أنه لما كان الحاج أمين الحسيني يناضل الإنكليز في فلسطين سألوا مفتي مصر يومئذ عن وظيفة المفتي، فأجابهم. قالوا له: وهل من عمله الاشتغال بالسياسة؟ فأجاب قائلاً: لا. فأخذوا من جواب مفتي مصر حجة على مفتي فلسطين!

* * *

المرء يتجمل للناس ويَعْرض نفسَه عليهم في أحسن أحواله، وإن تكلم أمامهم احترس في كلامه وانتبه إلى أقواله، ولكنْ يبرز لذويه ولمَن لا يحتشم منه على حقيقته: صورة بلا رتوش ووجهاً بلا «مكياج»، لأن الحُجُب قد رُفعت بينه وبينهم فصار يحسّ معهم كأنه وحده.

وكذلك يكون الولد مع أبيه، وكذلك كنت مع شيخنا الشيخ بهجة ونفر من أساتذتي، فضلاً عن أصدقائي. عرفوني كما أنا، فما كان يفيدني أن ألقاهم بقناع يستر نقائصي ويخفي

---

(١) الخدّاع الغشاش، بفتح الخاء وكسرها، والفتح أعلى (مجاهد).

عيوبي. منهم الشيخ عبد القادر العاني، والأستاذ الرئيس محمد كرد علي، والأستاذ الزيات صاحب الرسالة، والأستاذ عز الدين التنوخي، والدكتور عبد الوهاب عزّام، وجماعة لست الآن في مجال إحصائهم.

كنا عند الشيخ بهجة كأننا في بيوتنا، إن جعنا طلبنا الطعام وإن نعسنا ذهبنا إلى الغرفة الأخرى لننام، وإن أنسنا قعدنا وإن استعجلنا استأذنا فانصرفنا. وهو في الحالات كلها مشرق الوجه باسم الثغر ليّن القول، يتحرك لسانه ما بين ترحيب بنا أو كلام نافع لنا، فقوله درس وسلوكه قدوة، ومجالسته متعة ما بعدها متعة.

ولقد رأيت آلافاً من الرجال وعاشرت مئات منهم، فما رأيت مثلَه إلا قليلاً في فهمه للإسلام وتمكّنه من العربية واستحضاره للشواهد وقدرته على نظم الشعر. وكان حلاّلاً للمشكلات، يستمتع بالنكتة ويقولها. لازمته أكثر من أربعين سنة وسافرت معه وشاركته في لجان التحكيم وفي لجان رسمية، فكان في الحالات كلها الرجل الكامل الفاضل. عليه رحمة الله.

❊ ❊ ❊

الشيخ الكافي

نشرت سنة ١٩٨٤*

هذا رجل لا تعرفونه، ولكن تعرفون طرفاً من آرائه في إنكار حركة الأرض وردّه على من قال بها، واستدلاله على ما ذهب إليه بما لا دليل فيه على ما يدّعيه. شيخ من تونس، هبط دمشق مع هبوط السلام بعد الحرب العامة الأولى، وكان الذين صاحبوه وعاشروه أبي وأعمامي، وقد خلطوه بأنفسهم حتى غدا كأنه واحد منهم. ولم يكن عجيباً أن يتصادق تونسي وسوري، فإن هذه الحدود لم تكن قد ظهرت، ولقد كان عندنا مدرسون من تونس ومن الجزائر ومن طرابلس الغرب (التي صارت تسمى الآن ليبيا، واسمها قديماً لوبية) وكان عندنا مدرسون من الترك ومدرس من اليمن اسمه الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي.

ولقد كتبت من قديم أن الرجل المهذب الذي يألف ويؤلَف، والذي يتكلم فيضع الكلمة موضعها فلا تَجرح السمع ولا تُحرج السامع، والذي لا يفعل إلّا ما يليق بمثله أن يفعله، والذي لا ينكر الناس من سلوكه شيئاً ولا يحسون له على قلوبهم ثقلاً، هذا

* نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٤/٣/٢٢ (مجاهد).

الرجل كالنسخة المطبوعة الطبعةَ الأنيقةَ من الكتاب، ورقُها صقيلٌ وجلدها جميل، ولكنْ مثلها في السوق مئات أو آلاف. وأن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة، ربما كانت ناقصة أو مخرومة أو مَسَّ الزيت أطرافها فأفسدها، ولكنها أثمن وأغلى لأنها واحدة لا ثانيةَ لها. وأنا لا علم لي بالمخطوطات، ولكني عرفت من دهاقينها ومن أهل الخبرة فيها قوماً بقي منهم صديقنا الأستاذ أحمد عبيد، مَدَّ الله في عمره[1]. وأعرف من الطبقة التي نشأت بعدهم فسارت على نهجهم الصديقين الدكتور صلاح الدين المنجد والأستاذ زهير الشاويش.

* * *

الشيخ الكافي الذي أتكلم عنه مفرد في بابَته[2]، فهو فقيه مالكي متمكن من المذهب، وهو مقلد شديد التقليد. وما هذا الذي يميزه، فما أكثرَ الفقهاء المقلّدين في ذلك الزمان، ولكن ميزته أنه يعيش كما يريد. لم تكن له وظيفة، أي راتب، فهو يداري رؤساءه لئلا يُضارَّ في وظيفته. ولم يكن من أهل السياسة ليُرضي العامة ويتألف الجماهير استبقاء لزعامته. ولا كان من أهل السوق، فهو يساير الناس لئلا ينفضّ عنه زبائنه ويبتعد عنه عملاؤه. وما عرفته احتاجَ إلى أحد فهو يرعى خاطره لئلا يتغير عليه. كان يعيش من مورد له في تونس، يأتيه منه مال يكفيه ويعيش منه، وأحسبه مورداً زراعياً، لأنه كان في بعض السنين يبيع زيت الزيتون التونسي لمن يحب أن يتناوله.

---

(١) توفي بدمشق سنة ١٩٨٩، بعد نشر هذه المقالة بخمس سنين (مجاهد).
(٢) يقال: "فلان من بابَة فلان" أي من أشباهه وأمثاله.



خبّرني قبل موته بعشرة أيام أنه دخل المئة الثانية من عمره، وقلت ذلك حين أَبَّنْتُه في مقبرة الدحداح عند الدفن، رحمه الله. أصله من بلدة أو قرية في تونس اسمها كاف، لا أعرف أين هي لأني لم أذهب إلى تونس. عاش هذا العمر كله ولم يتزوج، تخلّص من قيود الزواج كما تنصّل من روابط الوظيفة والمجاملات الاجتماعية.

سكن الدار التي كانت دارنا وبقي فيها ثلاثين سنة. وهي دار صغيرة في حارة الدّيمَجية، وُلدت أنا فيها ونشأت فيها، ولما مات أبي سنة ١٣٤٣هـ عُيِّنت مكانه إماماً في مسجدها الصغير، ويدعى جامع رستم. قالوا: لا بد للإمام من عمامة. كأن العمامة من شروط الإمامة! فأدرتها على رأسي، فقالوا: لا بد من لحية.

قلت: العمامة اشتريت قماشها وأحكمت لفها، فمن أين آتي باللحية وأنا لم أكمل السابعة عشرة؟

سكن الشيخ الكافي في هذه الدار لمّا خرجنا منها وأسكن معه أسرة من المدينة، أظنها أسرة الخياري. وهذا الخياري رجل طيب صالح، كان يتولى رعاية الشيخ، كما يعد أهلُه طعامَه الذي يحمله هو إليه في غرفته.

* * *

وكان الشيخ يحب الولائم، لا أن يكون دوماً المَدعوَّ فيها كما يحب كثير من المشايخ، بل يدعو ويُدعى، وكان حضور دعواته مما أرغب فيه لأنني أستفيد منها في بطني وفي ذهني؛ أستمع إلى من كان فيها من العلماء ومن الأفاضل فأتعلم، ونأكل الكسكسي الأصلي[١] ونشرب بعده الشاي الأخضر. وكان الشيخ الكافي أقربَ إلى نفسي من شيخنا الشيخ صالح التونسي[٢] الذي استفدت منه كثيراً ولا أنكر فضله عليّ، وهو رفيق الكافي وصديقه.

وكان الكافي يلين أحياناً حتى نألفه نحن الصغار، وكان يأخذنا إلى السّيران[٣] ويدعو من أجلنا الكبار، ويبتكر اللعبة

---

(١) ولا أكاد أعرف في أصناف الطعام أطيب منه، وهو الأكلة المفضلة لإخواننا المغاربة جميعاً على اختلاف مناطقهم.

(٢) تحدث عنه في «الذكريات»، في أول الحلقة العاشرة (في الجزء الأول) وفي الجزء الثامن (١٤٨-١٤٩) (مجاهد).

(٣) السيران في الشام نزهة في البساتين أو في الوادي.

المسلية ويجعل الجميع يشتركون فيها، يقيم حجراً يجعله هدفاً، فمن أصابه نال كذا، أو يجعلنا نتسابق، وكل مرة يخترع لعبة جديدة لا يعرفها الناس. يدع في السيران جِدَّه وحِدَّته ويكون منبسطاً كأحسن ما يكون الانبساط ليّناً أكثر ما يكون اللين، يسوق النوادر ويروي الطرائف ويَضحك ويُضحك من معه، ويتسلق الشجر، حتى إنه ليصعد شجرة الحور حتى يبلغ رأسها وهي تميل به فيميل معها.

وكانت له أجوبة عجيبة. نام في بيت عمي، فسأله في الصباح عن مبيته فقال: "إن الفراش صالح لنوم الشتاء". فلم نفهم حتى بَيَّنَ لنا، فإذا هو فراش صغير، فإذا نام المرء في الشتاء ضَمَّ جسده من البرد فاتسع له، فإذا نام في الصيف ضاق عنه. وكنا مرة نمشي معه في جنازة، فسأله رجل عن المتوفي (بكسر الفاء) فقال: المتوفي الله. فحسبه كفر وهَمَّ بجمع الناس عليه، فشرحنا له أن الله هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها، وهذا الميت يقال له المتوفَّى بفتح الفاء.

وكان الشيخ صالح (رحمه الله ورحم الكافي) يحلو له في الولائم أن يسألني على ملأ من المشايخ الحاضرين، وكنت تلميذه في المدرسة الجقمقية، فقال لي مرة: أعرب:

أقـاطنٌ قومُ سلمى أم نَوَوا ظَعْنـا
إنْ يظعَنوا فعجيبٌ عيشُ مَنْ قطَنا

وكنت في الصف الخامس الابتدائي، فنسيت أن «قوم» تعرب على أنها فاعل لقاطن سَدَّ مَسَدَّ الخبر، ونسيت أن هذه الفاء

في الجواب واجبة الذكر لأن الجواب جملة اسمية. وسكتُّ، فهَمَّ بأن يتناولني، فانبرى له الشيخ الكافي وقال: تنغّص على الولد طعامَه؟ أهذا وقت السؤال؟ وتناقشا، فاغتنمت انصرافهما إلى المناقشة وانصرفت هارباً، خرجت وعقلي في الكسكسي الذي حرمني منه قوم سلمى الذين ما حلا لهم الظعن إلا وأنا آكل! وأنا ما لي وما لسلمى وقوم سلمى، قطنوا أم ظعنوا؟

* * *

كان شديد التمسك بما يراه، ما عنده في كل مسألة إلّا قولٌ واحد، من قال به فهو مقبول ومن خالفه فهو مردود. وكان يمنع القيام لاستقبال القادم، ولقد كان يوماً مع والدي وجماعة من العلماء والفضلاء، فدخل مراقب الأوقاف العام، وكان إليه -أيامَ الانتداب الفرنسي- الإشرافُ على أوقاف سوريا ولبنان فكان أكبرَ من وزير، فقاموا إليه يستقبلونه وبقي هو قاعداً.

وقدم دمشق مرة قاضي بغداد، الشيخ الشواف، وهو صديقي، فأخذته إلى علماء الشام. وكان معي الشيخ عبد الغني الدقر، فجعلنا ننتقل من حي إلى حي، نزور في كل حي علماءه فيحسنون استقباله وإيناسه، حتى وصلنا إلى العُقَيبة، فزرنا شيخنا الشيخ أبا الخير الميداني والشيخ محمود ياسين، ثم أخذته إلى الشيخ الكافي. فقلت له أعرّفه به: فضيلة قاضي بغداد. قال: لا؛ السلام أولاً ثم التعريف. فلما انقضى السلام وبدأ الكلام، وكان حديث من أحاديث العلم، أشار الشيخ الكافي خلال كلامه إلى حديث رواه ابن عمر، فقال القاضي الشواف: نعم. فسأله الكافي:

تعرفه؟ فسكت، فأعاد عليه السؤال، قال: لا. قال: فلماذا قلت نعم، توهم أنك تعرفه؟

وكنا نُمضي في كل زيارة ربع ساعة، فبقينا عنده ساعة وربع ساعة في حديث علمي نافع، فلما خرجنا خفت أن يكون القاضي قد استاء فأحببت أن أخفف عنه، فقال: ما سرني لقاء أحد ممّن زرتُه ما سرّني لقاء هذا الشيخ.

وكان يؤلف الكتب ويطبعها على نفقته ويوزعها. ألّف أولاً «الأجوبة الكافيّة على الأسئلة الشامية»، على طريقة العلماء المتأخرين، كلما نزل أحدهم بلداً ألّف مثل هذا الكتاب، ثم ألّف «المسائل الكافية». وكان ينكر دوران الأرض ويكفّر من يقول به، حتى كفّر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا! وما صدر هنا (في المملكة) من بضع سنين من كتابات حول هذا الموضوع كثير منه مأخوذ مما كتب الشيخ الكافي، منقول عنه نقلاً حرفياً تقريباً.

وكان ينكر على أرباب الطرق الصوفية، حتى إنه كان في تونس في يوم يجتمع فيه الصوفية بمناسبة لهم، ينشدون الأناشيد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بألحان أهل الغناء الممطوطة التي تحرّف الكلم عن مواضعه وتقطعه وتصله، وقد يخرج الكلام بهذا اللحن عن معناه. فلما مروا به خرج عليهم بتلاميذه ومعهم عصي الخيزران، ففرّق جمعهم وأفسد نظام سيرهم. فأخذته الشرطة إلى والي البلد، فلما دخل عليه قال له بمثل النغمة التي كانوا ينشدون بها: السلام على، على، عليكم، عليكم، كم، كم، ما أح، ما أح، ما أحلى عيونك وما أبهى جبينك يا سيد الملاح، لاح...

فغضب الوالي وقال: ما هذا؟ هل أنت مجنون؟ أهكذا يخاطَب الولاة؟ قال: هل الوالي أعظم من رسول الله؟ قال الوالي: معاذ الله، وأين أنا من رسول الله ﷺ؟ قال: إذا غضبت لأني سلمت عليك بهذا النغم وتغزّلت فيك هذا الغزل، فكيف تَدَعهم يوجهون هذا إلى مقام سيد البشر وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام؟ فوافقه الوالي على ما قال.

وهذه الأناشيد التي يسمونها «النبوية» (وكنا نتعلمها ونحن صغار وننشدها في المدرسة وفي الموالد وفي الحفلات) فيها هذا كله وفيها ما هو أكبر من هذا كله، وهو أنها تشتمل على بعض الشرك الذي لا شك فيه وعلى دعاء الرسول بما لا يُدعَى بمثله إلّا الله. ولما صار الأستاذ أحمد عسّة أيام الشيشكلي -على ما أذكر- المدير العام للإذاعة في سوريا، وكان يوماً تلميذي، كلمته في هذه الأناشيد وسألته منعها، فمُنِعت. وقام عليّ المشايخ، حتى إخواني وأساتذتي، محتجين بأن الرسول ﷺ سمع وصف النساء من كعب بن زهير. وهذا خبر مستفيض رواه الأدباء، فإن صَحَّ عند المحدّثين فلا حجة فيه لأني لا أتكلم في حكم سماع الغزل، بل في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام بما يشبه الغزل، جلّ قدره عن ذلك وارتفع.

* * *

وكنت أَعجب من الشيخ الكافي، كيف يكون تارة سلفياً يحارب البدع والمحدثات ويجابه العلماء والعوام (ومجابهة العوام أصعب من مجابهة الحكام) ثم يعظّم كتاب «الإبريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» وينقل منه كأنه يعتمد عليه، وفي

هذا الكتاب ما هو كفر صريح ما له تأويل ولا تعليل ولا يعتمد على دليل! ثم تبيّن لي أنه مقلِّد حتى في هذا الإنكار، فهو يتبع فيه ابن الحاج في «المدخل»، يمشي وراءه ويتبع خطاه، فما أنكره ابن الحاج أنكره[1].

وكان الشيخ يستمع الغناء من غير آلات. وكان من المشايخ في الشام قوم كلما سمعوا دَوراً قديماً للحامولي أو عثمان وأمثالهما، أو أغنية لصالح عبد الحي وأضرابه أو نغمة لسيد درويش، أخذوا لحنها فوضعوه على كلامٍ غالبُه سخيف، ينظمه جماعة اختُصّوا به، منهم الشيخ عبد الرحمن القصار (وهو شاعر) والشيخ أبو سعود مراد (وهو نَظّام لا شاعر) يمدحون به الرسول عليه الصلاة والسلام مدحاً لا يليق بمقامه.

وكان في الشام رجل موسيقي ما له نظير في حفظ الألحان القديمة اسمه علي الكردي أبو عزت، كان منقطعاً إلى الغناء في المجامع والحفلات، وكان له تخت، فلما قامت نهضة المشايخ على يد الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب اتخذ العمامة وترك الموسيقى. وقد عاش حتى جاوز الثمانين وحَنجَرته لا تزال

---

(١) المؤلف هو محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي، المشهور بابن الحاج، والاسم الكامل لكتابه هو «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتُحلت وبيان شناعتها وقبحها». وكما يدل هذا الاسم الطويل فإن الكتاب مخصص لتتبع البدع والرد عليها، إلا أن صاحبه نفسَه لم يَنجُ من الوقوع في بعضها، ولعل ذلك من آثار تصوّفه (مجاهد).

طرية وصوته لا يزال عذباً (ومثله في ذلك توفيق المنجّد الذي تسمعونه من إذاعة الشام في رمضان).

وكان ابن خالتي الشيخ شريف الخطيب، وهو مدير المدرسة الأمينية، يجمع بعض الأصدقاء والمشايخ في داره، ويأتي أبو عزت والشيخ صبحي الإمام الذي كان رئيس ديوان النيابة العامة في وزارة العدل، فاستقال لمّا قامت نهضة المشايخ وانقطع لطلب العلم واتخذ العمامة، وكانت له لحية مثل لحية أبي عجاج الخطيب الذي مرّ ذكره[1]، وكانتا أكبر لحيتين في الشام. أما صوته فمثل صوت وديع الصافي، بل إن صوته كان أقوى قوة وأوسع مدى وأحلى رنة في الآذان. وكانوا يغنون مرة دَوراً قديماً لا أعرف مطلعه فيه:

من بعادك داب فؤادي إمتى أنا أفرح بالوصال؟

وجعلوا -على عادتهم- يردّدون الكلام: قل لي إمتى، إمتى، إمتى، إمتى نفرح إمتى، يا سيدي إمتى، يا روحي إمتى، إمتى نفرح إمتى... ثم يقول: آه، ويمدها ويرجّعها ويعاونه الحاضرون، حتى تستمر هذه الآه ثلاث دقائق وتميل على الأنغام والمقامات ثم تعود إلى المقام الذي بدأت منه. فلما أطالوا مَلَّ الشيخ وقال: روح اسأله إمتى، ما تقعد هنا تقول إمتى إمتى!

وضحك أهل المجلس وعدّوها نكتة طريفة.

* * *

(١) انظر قصة أبي عجاج في الذكريات (٢/ ١٥٢) (مجاهد).

كان الشيخ يتعصب لما يرى أنه الحق، ولو كانت المسألة خلافية لا يجوز لمن أخذ برأي فيها أن ينكر على أهل الرأي الآخر (إن كان المختلفون جميعاً من أهل السنة والجماعة ولم يكن الخلاف على أمر يتصل بالعقيدة أو أمر ورد فيه النص القطعي). كان صورة للشيخ المتعبد الذاكر الشاكر قائم الليل وكان صدّاعاً بالحق، لكنه يعيش بعقل القرون الماضية وهو بين أهل القرن الحاضر، الحق عنده ما تعلّمه وحفظه، لا يقبل غيره ولا يرتضى سواه. فقيه مالكي متعصب لمذهبه يرفض ما لا يعرف، لذلك أنكر حركة الأرض وكفّرَ من قال بأنها تدور!

هزّ دمشق هزتين: الأولى حين أنكر القيام في الموالد وأنكر أشياء ينسبونها إلى الدين وما لها أصل في الدين، فقام عليه المشايخ في الشام، لا سيما المتصوفة منهم، فلم يُبالِ بهم وثبت على رأيه.

والثانية كانت هزة أقوى وأشد، حين حكم بالكفر على كل من يقرأ بتلك المصاحف التي كُتبت على طريقة الإملاء العصري، ويرى أنه لا يجوز في المصحف إلّا الكتابة الأولى كما قال الإمام مالك. ولكنه جاوز رأي القائلين بالتمسك بالرسم العثماني إلى ما لم يخطر لهم على بال وما لم يقل به أحد، وهو أن مصحف عثمان ليس فيه نَقْط ولا شكل، فعلينا أن نلتزم به في مصاحفنا بلا نقط ولا شكل. وألّفَ رسالة في ذلك كان فيها -على عادته- صريحاً عنيفاً، أنكر هذه الزيادات التي زيدت على مصحف عثمان (وهي النقط على الباء والتاء والثاء والجيم والخاء، إلخ، والشكل، أي الفتحة والكسرة والضمة، إلخ) وشدّد النكير على

من يقرأ في هذه المصاحف، أي على المسلمين جميعاً.

فانفضَّ عنه إخوانه وأصدقاؤه، وجاء الشيخ محمد الأهدلي، من زملائي في القضاء الذين كانوا أقدم مني فيه وأفضل، وهو عالم جريء فاضل يماني الأصل، فصوّر صورة دعوى من امرأة تطلب الطلاق من زوجها لأنه ارتد عن الإسلام بقراءته في هذه المصاحف ولا تَحِلّ له بعد ذلك! وأصدر أعجب قرار صدر عن المحاكم وأطولَه وأحفله بالأدلة العلمية والبحوث النافعة والنقول النادرة، وكشف فيه خفايا مقاصد عامة المستعمرين، نقلاً عن دهاقينهم، وردّ فيه على طه حسين في كتاب «الشعر الجاهلي» وعلى الرصافي فيما نقله عنه أمين الريحاني. واشتمل القرار على نص فتاوى المفتين، لا سيما فتوى مفتي الحنابلة في دمشق الشيخ جمال الشطي المؤرخة في شوال سنة ١٣٦٠هـ، التي يقول فيها إن ادّعاء الإجماع على وجوب موافقة رسم القرآن لرسم مصحف عثمان ادّعاء لا يقوم عليه برهان، كما سيأتي البيان، ومن ادّعَى ذلك فعليه هو أن يأتي بالدليل.

واشتمل قرار القاضي على ما يؤيد ذلك نقلاً عن ملاّ علي القاري في شرحه للشاطبية، وعن زكريا الأنصاري في فتاواه، وعن العز بن عبد السلام الذي قال (كما نقل عنه الزركشي في البرهان): "لا يجوز كتابة المصاحف الآن على الرسم الأول لئلا يوقع الجهّال في الخطأ". واشتمل القرار على رد شيخ قرّاء الشام الشيخ محمد سليم الحلواني، الذي كان أقرب الناس إلى الشيخ الكافي بعد أبي وأعمامي وكان يرافقه ولا يفارقه، فلما أصدر هذه الرسالة قاطعه وابتعد عنه.

وعندي صورة من هذا القرار، لكنها ناقصة مبتورة، فلعل عند أهله صورة كاملة منها، ولعل بعض الناشرين ينشرها في كتاب بإذن منهم. وللشيخ الأهدلي بنت طيبة فاضلة في دمشق وبنت هنا في المملكة، زوجة لطبيب فاضل، فيمكن أن يُطلب نص القرار منهما.

* * *

وقع الشيخ وقعة انكسر فيها ظهره، وقرر الأطباء أنه لا شفاء له وأن عليه أن يبقى مثبتاً بالكرسي ما بقي له من أيام. وقامت الحرب العامة الثانية وهو على هذه الحال، وانقطع ما بيننا وبين تونس فلم يعد يرد عليه من المال ما كان يرد، ففكرت أنا وابن عمي الدكتور سامي رحمه الله في شيء نقدمه إليه، فلم نقدر على أكثر من أربع ليرات ذهبية إنكليزية. وذهبنا إليه، ولكن حرنا كيف نقدمها له، فجعلت أمهّد بكلام طويل للوصول إلى ما جئت من أجله، فأحس وقال وهو يضحك: قُل رأساً، ماذا تريد؟ قلت: شيء قليل من أولادك، أنا وسامي. قال: هات. وأخذها من غير تردد، فعجبنا.

وكنت يومئذ قاضياً في دوما وكان فيها بعض المغاربة. وكنا ندعو مسلمي الشمال الأفريقي جميعاً مغاربة، لا نفرق بين طرابلسي (ليبي) وتونسي وجزائري ومرّاكشي (مغربي). فجاءني بعد أيام أحد هؤلاء المغاربة، وكان رجلاً صالحاً كبير السن، فجعل يثني على الشيخ الكافي ويدعو له ويقول: لقد عرف حاجتي فأعطاني أربع ليرات إنكليزية!

* * *

وأختم بحادثة طريفة حدثني بها السيد مكي الكتاني، وهو ابن الكتاني الكبير السيد محمد بن جعفر، صاحب «الرسالة المستطرفة» التي لا أعرف في بابها مثلها.

قال: قدم الشام الشيخ صالح التونسي، فدعاه الشيخ الكافي هو والشيخ زين العابدين (كلاهما شيخي أنا وأستاذي) إلى الغداء وحدد لهما ساعة الطعام. فجاءا قبل الموعد بأكثر من ساعتين. قال: أنا ما دعوتكما الآن، دعوتكما الساعة كذا. وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم. فاذهبوا وارجعوا في الموعد. فغضبا ولم يرجعا!

قال السيد مكي رحمه الله ورحمهما: وجئته فخبَّرني، فقلت له: إنك تحب سماع الحق ولو كان ممّن هو تلميذك ومن هو مثل ولدك؟ قال: نعم. قلت: الحق أنك أخطأت. قال: كيف؟ قلت: ضيفان جاءاك، والشيخ صالح قادم من سفر، أفما كانا يستحقان منك خيراً مما رأَيا؟ قال: وما العمل؟ قلت: تُعدّ لهما دعوة جديدة وتدعوهما. قال: فإن لم يحضرا؟ قلت (أي قال السيد مكي): أنا أحضرهما.

قال: وذهبت إليهما في بيت الشيخ زين فقالا: أرأيت ما صنع الشيخ؟ قلت: وما صنع؟ فخبّراني. قلت: أفلا عذرتماه؟ رجل مقعد مربوط بكرسيه، يحتاج أن يبول أو أن يتوضأ وأنتما قاعدان أمامه تقيدان حريته وتمنعان حركته! إن الأولى بكما -وأنا تلميذكما ومثل ولدكما- أن تحمدا الله على الدعوة لكما، فهل تستجيبان إن دعاكما؟ قالا: نعم.

وكذلك يصنع أهل العلم وأصحاب الدين، يختلفون ولكن سرعان ما يرجعون فيتفقون، لا يحمل أحدهم غِلّاً للآخر ولا يدخل قلبه الحقد عليه أو البغض له.

* * *

كان الشيخ الكافي صورة للعالم الذي يعطي من ذاكرته أكثر مما يقدم من فكره، فهو مستقيم في ذاته لكن لا يخالط المجتمع حتى يقوّم غيره. عنده الكثير، ولكن ليس عنده الأداة التي ينقل بها ما عنده إلى الناس، فليس بذي قلم ولا أُعطي لسان محاضر أو خطيب.

إنه لا يصلح داعياً إلى الله ولا موئلاً للشباب يدلهم على الله. ليس الفارسَ الذي يحمل العلَم ولا الجندي الذي يخوض غمرة القتال ولا الخطيب الذي يبعث الهمم ويثير العزائم، ولكنه مثل «أمين المستودع» الذي تودَع فيه الأموال ويحفظ فيه العتاد، فهو أمين عليه يؤديه كاملاً عندما يُحتاج إليه. وأمين المستودع يؤجَر ويُشكر، ولكن لا يكون كالقائد الذي يرسم الخطط ويقود الجيش ويحمي البلاد. إنه طراز من العلماء نحتاج إليه لكن لا نعوّل عليه. رحمه الله.

* * *

الشيخ عبد المحسن الأُسطواني

نشرت سنة ١٩٨٤*

لما كتبت عن الشيخ الكافي وقلت إنه دخل المئة الثانية من عمره ظن ناس أني أبالغ، واستكثروا أن يبلغ عمر امرئ في هذه الأيام مئة عام، مع أني أعرف من المعمَّرين كثيرين عاشرتُهم وخالطتهم، أو أدركتهم وسمعت عنهم، أو دنوت منهم وإن لم أداخلهم. منهم شيخ علماء الشام وكبير قضاتها، الشيخ عبد المحسن الأسطواني الذي عاش مئة وثمانية عشر عاماً.

لا أقولها مجازفة كما يجازف العامة من المسنين، حين يُسألون عن أعمارهم فيزعم أحدهم أنه عاش مئة وعشرين أو مئة وثلاثين وما له على دعواه دليل، وإن لم يكن إلى تكذيبه من سبيل، بل أقولها عن تحقيق. فممّا يثبت ذلك أن الجامع الأموي في دمشق قد احترق في مطلع القرن الرابع عشر، سنة ١٣١١، وأعاد الشاميون عمارته، هذه العمارة التي تبهر الزائر وتدهش السائح، فكان الشيخ عبد المحسن الأسطواني مساعدَ

(١) نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات «الذكريات» بتاريخ ١٩٨٤/٣/٢٩.

رئيس اللجنة العليا التي أشرفت على البناء، وكان نائبَ دمشق في مجلس النواب العثماني قبل الحرب الأولى بزمان طويل.

لو رجعتم -بمناسبة الحديث عن احتراق الجامع- إلى كتابي «الجامع الأموي» (الذي طبعته وزارة الأوقاف في دمشق أيام الوحدة وهي تبيعه للسياح) لوجدتم فيه هذا الكلام:

أجدادنا الأولون كانوا أهل حزم وعزم وكانوا أصحاب فكر وبيان، فكتبوا تاريخهم كله وسجلوا مفاخرهم ومعايبهم وأخبار جِدّهم وهزلهم، فنحن نعرف عن القرون الأولى التي مرّ عليها أكثر من ألف سنة كل شيء، كأننا نعيش فيها، ونجهل من أخبار القرون الأخيرة، لا سيما القرن الماضي، كل شيء. وهذا عجيب، ولكنه الواقع. ولقد أردت أن أكتب قصة حريق الأموي فلم أجدها في تاريخ من التواريخ، فاعتمدت في حديثها على أستاذنا الأكبر الشيخ المعمَّر الجليل عبد المحسن أفندي الأسطواني، وهو -حفظه الله- أعجوبة العجائب، جاوز المئة[1] ولا يزال في حِدَّة ذهنه وقوة ذاكرته وكثرة علمه وسرعة بادرته وحضور نكتته كما كان في شبابه.

ولست أريد الآن أن أذكر حريق الأموي، ولكن أريد أن أقول إن هذا الشيخ، الشيخ عبد المحسن الأسطواني، كان التاريخ الحي الذي يمشي لدمشق، وكان يعرف كل بقعة منها ويروي تاريخها. سألته مرة فقلت له: إن سور دمشق لا يزال باقياً والأبواب السبعة معروفة قائمة: باب الفرج وباب المناخلية وباب

(١) كتبت هذه المقالة سنة ١٩٥٩.

الفراديس وباب العمارة وباب السلامة وباب السلام وباب توما والباب الشرقي والباب الصغير وباب الشاغور وباب الجابية، فأين الباب الثامن الذي كان يسمى باب النصر؟ قال: وأين تقدّر مكانه؟ قلت: في رأس سوق الحميدية. فضحك وقال: أصبت، كان هناك وأنا أعرفه.

وقلت له مرة: لماذا نجد للقلعة خندقاً من الجهة الشرقية، في العصرونية[1]، وليس لها من الغرب خندق؟ قال: وماذا يوجد في موضع الخندق؟ قلت: سوق الخجا. قال: هو ذاك. لقد استأذن والد محمد أفندي الخجا الحكومة، فاشترى منها الخندق وردمه وبنى هذا السوق[2].

ومن المصادفات الغريبة أن أول شارع فُتح في دمشق، وهو شارع جمال باشا، لمّا انقضت الحرب وأرادوا أن يمحوا اسم جمال باشا فلا يُذكَر سمَّوه «شارع النصر»، يريدون النصر على الأتراك، فجاءت مصادفة كأنها عن تعمد، فأصابوا الحقيقة من حيث لا يقصدون.

* * *

---

(١) نسبة للقاضي ابن أبي عصرون، من قضاة الدولة الأيوبية.

(٢) وقد سمعت الآن أن سوق الخجا قد أزيل، كما أزيل ما كان يحجب الأموي من غربيّه وجنوبيّه. وأنا أعرف أخوين من آل الخجا، بنى أحدهما مسبحاً والآخر مسجداً. ومنهم رجل هاجر إلى المدينة اسمه كامل أفندي الخجا، رأيته في زيارتي الأولى للمدينة المنورة ١٣٥٣هـ.

أمضى الشيخ هذا العمر الطويل في مناصب الإفتاء والقضاء، وكان معدوداً من صدور العلماء، يرجعون إليه ويعتمدون في الفتوى عليه لمّا كان العلماء في دمشق متوافرين وكانوا كثيرين. ولقد خطر على بالي (وأنا أكتب هذا) سؤالٌ هو: كيف نحكم على الرجل بأنه عالم؟ ما هو مقياس العلم؟

لمّا وضعنا نظام قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة في مكة أصرَّ نفرٌ منّا على اعتبار الشهادة هي المقياس الذي لا يُعتبَر غيره، فلا يكون مدرّساً فيها إلا مَن هو «دكتور». وعارضت أنا فقلت لمعالي الوزير العالم ابن العلماء، الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ: لو بعث الله جدك الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هل كنت تستطيع أن تجعله مدرّساً؟ بل لو جاء أحمد بن حنبل وهو لا يحمل شهادة، هل كنت تملك أن تجعله معلماً في مدرسة متوسطة؟ إن الله الذي أبلغ ابن عبد الوهاب وابن حنبل ما بلغاه بلا شهادة قادر على أن يبلّغ ذلك غيرَهما. وأول من حمل شهادة الدكتوراة في الدنيا، مَن منحه إياها؟ إن قلنا إنه دكتور دخلنا في باب المُحال، أي في «الدَّور والتسلسل»، فلم يبقَ إلا أن نُقِرّ بالواقع، وهو أن أول من منح الشهادة كان رجلاً لا يملك شهادة. فالشهادة شرط لا ألغيه، ولكن لا أجعل المعوَّل كله عليه.

وإن جاوزنا حدَّ الوظائف الرسمية، فمَن هو العالم؟ كيف نميّزه؟ إن كانت الشهادة ليست الشرط اللازم الكافي، وكانت الشهادة يمكن أن تكون شهادة زور تؤخَذ بالحيلة أو تشترَى بالمال، فهل نميزه بالتأليف؟ هذا الشيخ عبد المحسن الذي أتكلم عنه، شيخ علماء الشام، بل هذا المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين



الحسني الذي كان يقرّ له علماء الشام جميعاً بالرياسة، ما تركا تأليفاً، وأمثالهما كثير. كثير من العلماء ما خلّفوا أثراً ولا ألّفوا كتاباً، بل ما كتبوا مقالة، فهل ننفي أنهم كانوا علماء؟

ما هو المقياس الصحيح للعالم؟ المقياس الذي لا يتخلف ولا يخطئ؟ أنا أعلم من جواب هذا السؤال نصف العلم فأقول: لا أدري!

ولكن الذي أدريه أن علماء القرن الماضي والذي قبله كان علمُهم -غالباً- علم رواية، حتى إنك عندما تنظر في ترجمة أحدهم تجد أنه قرأ كتاب كذا وكتاب كذا في النحو وفهمها وحفظها، ولكن ما حصلت له المَلَكة التي تجعله يقول فلا

يلحن ويقرأ فلا يخطئ. وأنه قرأ الكتاب الفلاني والكتاب العلاني في الفقه وفي الأصول، ولكن ما استنبط ولا حاول أن يستنبط من الأدلة من الأحكام التي حفظها وأن يبين حكم الله فيما جَدَّ للناس من معاملات كما بيّن الأولون ما كان منها أيامهم. أي أنهم يحيطون بما وجدوا علماً ويقتلونه فهماً، ولكن لا يزيدون عليه شيئاً. وعلماء هذه الأيام يُلمّون بالعلم أكثر مما يغوصون في الكتب، يفكرون ويكتبون ويؤلفون، لكنّ اطلاعهم على ما كتب الأولون أقل مما ينبغي لهم.

عالِم القرن الماضي علمه أكبر من عقله، وعالِم اليوم عقله أكبر من علمه. ولست أعمم الأحكام ولكن أصف ما عرفت، والذي عرفته قليل من كثير.

والشيخ عبد المحسن الأسطواني سَنين الشيخ بدر الدين الحسني، أي أنه في مثل سنه، بل لقد رأيتهما مرة والشيخ عبد المحسن يقول للشيخ بدر الدين: أنا من سنّك. والشيخ بدر الدين (على عادته في قلة الكلام وفي قطع الجملة وإتمامها بإشارة من يده) قال: لا يابا (وكانت تلك كلمته) أنت... وأشار بيده إشارة تدل على أنه أكبر.

وكان الشيخ بدر الدين رجل جِدّ، قليل الكلام، لا يكاد ينطق إلّا جواباً لمسألة أو شرحاً لمعضلة، وإن كان في درسه يتدفق تدفق النبع الفياض. أما الشيخ عبد المحسن فكان -مع علوّ منزلته وكبر قدره- مزّاحاً يحب النكتة ولا يمسكها، ولو كان مجيئها من تحت خط الاستواء البشري، أي من تحت معقِد الزنار، وأحفظ عنه في ذلك الكثير، ولكن لا سبيل إلى ذكره في

جريدة سَيّارة تتلقفها أيدي الرجال والنساء والكبار والصغار.

وما ذلك بقادح فيه، فإن من سلف هذه الأمة من علمائها الكبار من كان يمزح مثل هذا المزاح.

* * *

لما تركت التعليم وانتظمت في سلك القضاء سنة ١٩٤١ وانتقلت -بعد سنوات- قاضياً في محكمة دمشق الكبرى كان الشيخ عبد المحسن كبير القضاة، وكان رئيس محكمة التمييز الشرعية، وكنا نرجع إليه إذا اعترضتنا معضلة.

كنا مرة جماعة من القضاة نتناقش في مسألة تتعلق بالنفقة، وكنت أعرف أنها في حاشية ابن عابدين، فرجعت إلى الحاشية فلم أجدها، وأصررت على أنها فيها وأنكر زملائي أن تكون المسألة فيها. فذهبنا إلى الشيخ عبد المحسن، وكانت المحكمة الشرعية ومحكمة التمييز في دار كبيرة من الدور الدمشقية الفخمة القديمة، وذلك قبل بناء القصر العدلي الذي جمع المحاكم كلها، فسمع مني ومنهم ثم قال: الحق معك، ولكن لماذا لم تجدها وهذه الحاشية أمامك؟ فسكتُّ. قال: لأنها لم تُذكَر في باب النفقة، ولكنها جاءت عَرَضاً في باب أدب القاضي.

كان اطلاع الشيخ عبد المحسن على كتب المذهب الحنفي، أصوله وفروعه، اطلاعاً عجيباً. وكان في الجملة جوّال الفكر متحرر الذهن، ولكن لمّا صدر قانون البيّنات وأنقذَنا من القيود الشكلية التي لا داعي إليها ولا ضرورة لها في سماع الشهادات، وجعل قبول الشهادة أو ردّها للقاضي (على أن يعلل للقبول أو

للرد) عارض الشيخ هذا القانون ومنع تطبيقه في المحاكم الشرعية وأعادنا إلى ما في «المجلة»[1]، وهو أن القاضي آلة مسجلة، عمله أن يسمع شهادة الشاهد ولا يناقشه، فإن كانت الشهادة مصرحاً فيها بكلمة «أشهد» وكانت جامعة لشروطها الشكلية قَبِلَها، وإن نقص شرطٌ منها رَدَّها ولو كان الصدق يظهر من كل كلمة فيها، وإن نطق الشاهد بكلمة «أشهد» وأدى الشهادة على هيئتها قُبلت، ولو كانت كاذبة رائحة كذبها تملأ جو المحكمة والكذب يقطر من كل حرف فيها.

ثم تكون التزكية. والأصل في التزكية أن تكون من إنسان معروف بالصدق والأمانة، له منزلة في النفوس ولا يختلف اثنان في عدالته. ولقد كان من سنن القضاة الأوّلين أن القاضي الذي ولي قضاء بلد يبحث ويحقق، ثم يسمي من يرتضي أمانتهم ودينهم، وهؤلاء هم العدول، فمَن كان يريد تثبيت عقد أشهدهم عليه، فكان عملهم قريباً من عمل كُتّاب العدل في أيامنا.

وأقول -بالمناسبة- إن الذي وضع كلمة «كاتب العدل» (ترجمةً لكلمة «نوتير» الفرنسية) هو الأستاذ مصباح محرم، من قدماء القضاة أيام العثمانيين، الذي كان رئيس محكمة التمييز في دمشق على عهد الشريف فيصل بن الحسين، وكان أبي رئيسَ

(١) هي «مجلة الأحكام العدلية» التي وضعتها مجموعة من علماء الدولة العثمانية من نحو مئة وخمسين سنة، وأكثر موادها مستمَدَّة من المذهب الحنفي. وهي أول تقنين مدوَّن (صياغة قانونية) لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد احتوت على نحو ١٨٥٠ مادة (مجاهد).

ديوان المحكمة وقتها، وذلك بعد خروج الترك من دمشق، وقد أخذها من قوله تعالى: ﴿ولْيَكتُبْ بينكم كاتبٌ بالعَدْل﴾.

هذا أصل التزكية، ولكنها انتهت إلى أن صارت لعبة أو فصلاً من مسرحية: يسمع القاضي الشهادة فيكلف المدّعي أن يأتي بمزكّيه، فيخرج فيجلب اثنين ممن يجدهما أمامه فيزكّيان الشاهدين، وتنتهي الرواية ويصدر الحكم ويُسدَل الستار! ولو اقتصر الأمر على هذا لَهان، ولكن كان عندنا شهود يدعوهم الناس «شهود المصطبة»، يقعدون في المحكمة، وهم على درجات: شاهد من الدرجة الثالثة، يحفظ ما تلقيه عليه ثم يدلي به إلى القاضي، وهذا أرخص الشهود أجراً. وشاهد من الدرجة الثانية، يكون على شيء من العلم والفهم. وشاهد من الدرجة الأولى أو من درجة ممتاز، وأجره أيضاً ممتاز، يكون عارفاً بشروط الشهادة فقيهاً عالماً، ولكنه كعلم إبليس يتخذه وسيلة للدنيا، فكلما فتح عليه الخصم باب اعتراض سدَّه بما أصاب من العلم.

ولقد كنت وأنا صغير أذهب مع أبي لزيارة الشيخ عبد المحسن فأقبِّل يده كما كان يصنع أمثالنا من الصغار مع أمثاله من الشيوخ الكبار، واستمر ذلك حتى صرت قاضياً عنده، فكنت أقبّل يده كلما دخلت عليه، فيظن مَن يراني أني أفعل ذلك لأنه رئيسي، فأفهمتهم أنها عادة تعودناها من الصغر. ولكني -مع هذا التقدير له وهذا الإجلال لعلمه- عارضته لمّا منع تطبيق «قانون البيّنات» وخطبت وكتبت أردّ عليه وأذكر أن البيّنة لا تنحصر في الشاهدَين، بل إن الشاهد الواحد مع يمين المدَّعي مما ثبت به الأثر، وأن الأخذ بالقرائن القضائية أمر معتبَر، وقد وردت

في ذلك السنّة، وأن الإسلام لا يحجر على العقول ولا يجمّد الأفكار. وكان اعتمادي فيما قلت على كتاب «الطرق الحكمية» لابن القيم أولاً وعلى كتب أخرى كثيرة.

فتغيَّرَ الشيخ عليّ قليلاً، ولكني ما باليت، لأن عليّ أن أكون مهذباً مؤدباً وأن أوقر الكبير، ولكن إذا جاء الدين فلا مجاملة لأحد. ومضيت في معارضته، أخطب في النوادي وأكتب في الصحف وأثير من يقدر على الإصلاح، وكنت في شبابي إلى العنف أقربَ مني إلى الرفق وإلى الشدّة أدنى مني إلى اللين، فتبدلتُ الآن مع الشيب والصلع وصرت أرفق وألين، وإن كان الطبع لا يتبدل بالتطبّع:

والشيخ لا يترك أخـلاقَه   حتى يوارَى في ثرى رَمْسِه

وانتهى الأمر بأن انتصرنا، أعني انتصر الحق الذي نؤيده، وطُبِّق قانون البينات في المحاكم الشرعية، وبقي في نفس شيخي عليّ شيء.

* * *

بقي على رأس عمله إلى أن بلغ السنة الثالثة بعد المئة. ولا تعجبوا من ذلك، فإن قانون التقاعد في سوريا (قانون المعاشات) لا يطبَّق على علماء الدين من الأئمة والمُفتين، بل يبقى الواحد منهم في عمله حتى يُخرجه منه ملَك الموت.

لمّا ترك الوظيفة صار يمضي أكثر وقته في بيته، بل في فراشه. والعجيب أن جسمه قد صغر وتضاءل وانضم بعضه إلى بعض حتى صار كجسم ابن عشر سنين. والإنسان ينمو ثم ينمو حتى يبلغ

أشده، ثم يأخذ بالنقص، فتقصر قامته وتضمر عضلاته، ولقد نقص طولي أنا الآن عمّا عليه كان.

حتى صار في آخر عمره يرقد على سرير وأمامه سرير عليه زوجته التي عاش معها أكثر من سبعين سنة، فإذا دخل عليه بعض الضيوف تغطت بلحافها. وجئنا مرة نزوره مع الشيخ العاني والأستاذ يوسف الحسني وجماعة، وأظن أنه كان معنا الأستاذ سعيد الأفغاني، فوجدنا السرير الثاني فارغاً، فجئنا نقعد عليه، فصرخ بنا بلهجة تمثيلية مضحكة: المَرَة، المرة[1]... فنظرنا، فإذا هي لمّا رأتنا دخلت تحت اللحاف فصارت -من ضآلة حجمها- كأنها كومة ثياب.

واختلفنا مرة في عدة المرأة التي يفرق القاضي بينها وبين زوجها بطلبها: هل تبدأ عدّتها من تاريخ حكمه بالتفريق أم من تاريخ تصديق محكمة التمييز؟ فقلت أنا: من تاريخ الحكم، لأن محكمة التمييز لا تنشئ طلاقاً جديداً ولكن تثبّت الطلاق الأول. وقلت: نحتكم إلى الشيخ عبد المحسن. فقال قائل منّا[2]: إنه كبر (يشير إلى أنه ربما أثّر الكبر في ذهنه فأضعف ذاكرته وأفسد محاكمته، وكان عمره يومئذ مئة وإحدى عشرة سنة).

فقلت: سترون. وغدونا إليه، فعرفنا ودعانا بأسمائنا ورحّب بنا. فعرضنا عليه المسألة، فمال إلى قولي، وجعل يأتي بالدليل

---

(١) المَرَة بمعنى المرأة وردت في الشعر القديم.
(٢) هو أخي رفيق الكلية وصديق العمر العالم المحقق البليغ الشيخ مصطفى الزرقا.

بعد الدليل من حفظه، ويدعو بالكتاب بعد الكتاب من مكتبته فيقلب صفحات قليلات، فلا يبطئ حتى يقع على المسألة فيعرضها علينا. ولما أردنا الانصراف قال: سأبعث إليكم غداً بنصوص أخرى مع الصغير.

تدرون من هذا الصغير الذي سيبعث بها معه؟ هو ولده الأستاذ عبد اللطيف، المستشار معنا في محكمة النقض، وكان قد قارب الستين من العمر!

* * *

والشيخ عبد المحسن لو أوتي مع ذكائه النادر وعقله الوافر وعلمه الزاخر، لو أوتي معها لساناً بليغاً وقدرة على البيان تعدل قدرته في العلم لما قام له إنسان. ومثله في ذلك أستاذنا في كلية الحقوق سعيد المحاسني، أقدر وأعلم وأذكى محام مدني شرعي عرفته على طول ما أمضيت من عمري في المحاكم وما رأيت من البلدان. ومثله أستاذنا، وإن لم يدرّسنا، الذي كان سَلَفي في القضاء في محكمة النبك ومحكمة دوما ومحكمة دمشق، الفقيه الحنبلي من أسرة كل رجالها فقهاء حنابلة، هو الشيخ حسن الشطي. ومثلهما أستاذنا سليم الجندي الذي كان في العربية إماماً.

وكذلك ترى أحياناً بلغاء أَبْيِناء، إذا كتبوا أورقَ القلمُ في أيديهم -وهو قطعة من خشب أو حديد- وأثمر ما لا تثمر مثلَه الحدائقُ الغنّاء والبساتين الفيحاء، وإذا خطبوا جعلوا أعواد المنابر شموعاً تضيء بلا بنار وكهرباء تمشي في الأعصاب بلا أسلاك، فتوقظ النائم وتقيم القاعد وتجعل الأعصاب الباردة بردَ الثلج

تغلي غَلَيان ماء الشاي، ولكنه -مع هذه الفصاحة كلها وهذا البيان- فارغ الرأس من العلم! وتجد العالم المفكر الذي وسع رأسه ما أنتجت رؤوس العلماء وما اشتملت عليه كتبهم، تجده عَيِيّاً إذا قال أو خطب، ركيكاً أسلوبه إذا ألّف أو كتب، كأن الله الذي لم يجعل هذه الدنيا دار كمال لم يُؤتِ الكمال فيها أحداً غير الأنبياء.

ولم يكن الشيخ عبد المحسن شجاعاً صَدّاعاً بالحق، ولكنه لم يكن ناطقاً بالباطل، كل ما يصنع أنه يبتعد ما استطاع عن مواقف الإحراج، إلّا إن ألزمه الشرع أن يبين حكم الله فما عُهد عنه أنه كتمه أو قال بغيره.

وهو من كبار العقلاء، لذلك قارب أن يُعَدَّ من كبار الجبناء، ذلك أن الشجاع لو فكّر وقدّر ما يتعرض له من المخاطر لما أقدم، لأن «الإقدام قَتّال» كما قال المتنبي. بل لو فكر المرء بعقله وحده وحسب احتمالات الضرر أو السلامة إن أراد أن يجتاز شارعاً تمر به السيارات ويزدحم فيه الناس لما اجتازه إلّا إذا كان ينوي الشهادة في سبيل الله، فلا يكون الموت حينئذ موتاً بل هو الحياة الباقية التي لا موت بعدها!

لقد مضى ومضى علمه معه، لأنه ما استودعه القرطاس ولا حفظه في الصحف ولا رَوّاهُ تلاميذَ له اصطفاهم وخرّجهم وعلّمهم. مضى معه علمه كما مضى علم الشيخ بدر الدين الحسني الذي كان فهرساً ناطقاً ومحساباً (كمبيوتر) حياً لأكثر ما تحت أيدي الناس من كتب في علوم الدين وفي علوم الدنيا التي كانت معروفة في عصره. دأب كل واحد منهما على المطالعة،

يمضيان فيها أكثر ساعات الليل والنهار، لا سيّما الشيخ بدر الدين الذي لم يكن له عمل إلّا القراءة والإقراء، ثم لم يؤلفا كتاباً ولم يتركا رسالة، عليهما رحمة الله.

* * *

حسن الحكيم
القوي الأمين

نشرت سنة ١٩٨٤*

أتكلم عن معمَّر آخر[١]، عن رجل كان يوماً على رأس الحكم في الشام وكان اسمه على كل لسان، ثم نسيه الناس حتى إن كثيراً من قراء الجريدة من الشباب من أهل الشام سيقولون: مَن حسن الحكيم؟

حسن الحكيم -يا شباب- واحد من بضعة رجال كانوا أنظف وأشرف وأعفَّ مَن عرَفته سوريا، لا أستثني ولا أتحرج ولا أغلو ولا أبالغ. رجل كانت أموال التبرعات للثورة تمر تحت يده، لو شاء أن يأخذ منها كما أخذ غيره لما رآه أحد، ولو رآه لما لامَه من رآه، لأنه ممَّن جُمعت هذه التبرعات لمثله. وجاء العيد فكتب إلى أهله في الشام (وكان في وادي السرحان، مع سلطان الأطرش

---

* نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٤/٤/٥.

(١) كلمة «المعمَّر» بفتح الميم، أما الذي عمَّره فهو الله. ومن شائع الأخطاء أن يُقال "فلان من المعمِّرين" بكسر الميم.

ومن لجأ إليه من بقايا الثوار لما ضاقت بهم الديار[1]) جاء العيد فكتب إلى أهله ألّا يحرموا الأولاد من فرحة العيد، وأن يشتروا لهم الثياب والأحذية من أرخص الجيد، لا أجود الرخيص[2]. ولكن من أين الثمن؟

يسحبون من رصيده في المصرف؟ إنه لم يكن له طول عمره مالٌ محفوظ في مصرف ولا مدَّخَر في الدار. ولا من الحليّ، فما كان أهله من ذوات الحليّ ولا كُنّ من المترفات المنعَّمات. ولا يبيعون من فاضل الأثاث، فما كان في بيته من الأثاث أكثر من الضروري. بل يبيعون ما يُستغنَى عنه من الفرش التي ينامون عليها (فما كانوا ينامون على أسرّة) ومما يستغنون عنه من القدور والطناجر من المطبخ، يبيعونه وينفقون منه على أنفسهم ويرسلون

---

(١) انظر قصة «أطفال الصحراء» في الذكريات، في الحلقة الرابعة والأربعين (في الجزء الثاني). ويمتدّ وادي السرحان شمال غرب المملكة العربية السعودية بحذاء الحدود الأردنية، من الجوف إلى الأزرق ، وكان جزء كبير منه ضمن «المنطقة المحايدة» التي نشأت بموجب «اتفاقية حدّا» بين حكومتَي السعودية وإمارة شرق الأردن (ثم انتهت باتفاقية عمّان التي رَسَّمت الحدود بين البلدين بشكل نهائي سنة ١٩٦٥). وقد لجأ إليه مئات من الثوار مع نسائهم وأطفالهم بعد فشل الثورة سنة ١٩٢٧، ولم يرجعوا إلى سوريا إلا بعد صدور العفو العام سنة ١٩٣٧ (مجاهد).

(٢) وكان هذا مذهب علي الطنطاوي نفسه، ما أكثر ما سمعته منه؛ يحرص على شراء ما يسمّيه «أرخص الجيّد»، فلا يسرف وينفق ماله في الأصناف الغالية، ولا يبددها بغير طائل في صنف رخيص لا يكاد يؤدي الغرض الذي صُنع من أجله (مجاهد).



إليه ما يفضل عنهم ليعيش به.

رجل تقلد أكبر المناصب، صار وزيراً غيرَ مرة وصار رئيس الوزراء، وما ملك إلا شقة صغيرة، صغيرة جداً، عادية جداً، فرشها عادي جداً. وعاش أكثرَ عمره بعد أن ترك العمل على راتب تقاعدي (مَعاش) لا يبلغ راتب معلّم ابتدائي مبتدئ. ذلك لأن الأسعار لمّا غلت والرواتب لمّا ارتفعت لم ينل ارتفاعها معاشات المتقاعدين إلا قليلاً، فبقيَت كما كانت أو قريباً مما كانت، ما زادت إلا زيادة ضئيلة في الأيام الأخيرة. ولقد كنت أنا -لمّا أُحلت على التقاعد- في المرتبة الممتازة، في أعلى درجات السلم الوظيفي، وما يبلغ معاشي الآن في الشام بعد الخدمة الطويلة جداً ما يعادل خمسمئة ريال!

إن كان في السياسيين وفي الزعماء وفي الرؤساء مَن يظن أنه صار من طينة غير الطين الذي خلق الله منه الناس، فترفّع عليهم ونأى بجانبه عنهم وشمخ بأنفه عليهم، فإن حسن الحكيم بقي وهو وزير كما كان وهو موظف صغير، بقي ابناً للبلد وأخاً لأبناء البلد. بقي يحمل «زنبيله» (سلّته) ويذهب إلى السوق فيشتري الخُضَر والفاكهة لأهله، ويقف على الجزّار كما كان يقف من قبل، يتخيّر القطعة التي يريدها فيقطعها له.

وهذا الذي يحبب الزعيم إلى الشعوب، لا سيما نحن العرب، يحبون أن يشعر الزعيم أنه مثلهم، وهذه سنّة سيد الزعماء عليه الصلاة والسلام، لمّا رأى الرجل يرتعد من هيبته قال له يطمئنه: «إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

يقولها صادقاً ﷺ، كما علَّمه الله أن يقول: ﴿قُل إنّما أنا بشرٌ مثلكم﴾. مثلكم في ولادتي وموتي، في مرضي وصحتي، في تركيب جسمي: جهاز تنفسي وجهاز هضمي، لكني اختُصِصت بأنه ﴿يوحَى إليّ﴾.

* * *

كانت أول مرة سمعت فيها باسم حسن بك الحكيم لما جاءت لجنة الاستفتاء الأميركية برئاسة المستر كراين التي أرسلها الرئيس الأميركي سنة ١٩٢٢، فكان هو والدكتور عبد الرحمن شهبندر يصحبان اللجنة ليُسمعاها رأي شعب الشام، رأي الشعب السوري في الحرية وفي الانتداب، حين كانت الأسواق تضجّ بهذا النشيد، تصدح به الحناجر في كل مكان:

نحن لا نرضى الحماية لا ولا نرضى الوصاية
نحن أَولـى بـالرعايـة لِبَـني العُـرب الكـرام

ثم لم أسمع به إلا عندما أرسل الجنرال غورو إنذاره المشهور للملك فيصل بن الحسين بأن يسرح الجيش ويقبل الانتداب الفرنسي ويسلم سكة حديد سوريا للجيش الفرنسي. سمعت يومئذ اسم حسن بك الحكيم الذي كان مديراً عاماً للبرق والبريد، وشاع في الناس أن الملك فيصل بن الحسين قبل الإنذار ولكن حسن بك لم يرسل البرقية بالقبول، ثم كذّب حسن بك هذا الذي شاع وبقي سر البرقية مجهولاً إلى الآن، أو بقي مجهولاً مني على الأقل.

ولما كان الإضراب الخمسيني العظيم النادر المثال سنة ١٩٣٦ (وكنت قد ابتعدت رسمياً عن العمل الطلابي وصرت موظفاً وتولى أمرَ الطلاب جماعةٌ من إخواننا أظهرهم الدكتور منير العجلاني) قررت الكتلة فك الإضراب وفتح البلد، وعارض هذا القرارَ جماعةٌ شهبندر وزكي الخطيب، وكان حسن بك من أقرب الزعماء إليه، وعارضه تبعاً له جماعة من الشباب كالأستاذ محمد كمال الخطيب.

كان من المقرر أن يخطب الدكتور العجلاني في الناس، ولكن صوته لم يُسمع الناس، فقدمني للخطابة. وكنت إلى جنبه في شرفة قهوة الكمال تحت جامع تنكز. وإنني لأتخيل الآن المشهد كأنه أمامي مع أنه مرّ عليه الآن ثمانية وأربعون عاماً[1]؛

(١) من تاريخ كتابة هذا الفصل.

كانت ساحة المرجة (ساحة الشهداء) على سعتها ممتلئة بالناس، حتى إنها لو هطلت الأمطار غزيرة لما بلغت الأرضَ منها قطرة. وما كان عندنا في تلك الأيام مكبرات للصوت ولا عرفناها، فخطبت خطبة ليس هذا موضع الكلام عنها، لأنني إنما أتحدث عن حسن بك الحكيم.

* * *

لم أقابله مواجهة إلّا في العراق، وكان لاجئاً إليه بعد أن لجأ حيناً إلى عمّان. ثم توالت اجتماعنا وسهراتنا، فوجدت فيه دمشقياً أصيلاً ومسلماً متمسكاً ورجلاً مستقيماً صادقاً صريحاً، يعلن رأيه لا يبالي أوافَقَ رأيَ من كان حوله أو خالفهم، بعيداً عن الرسميات والمظاهر والتكلف. أما نزاهته ونظافة يده وأمانته فإن ألدّ أعدائه لم يستطع أن ينال منها أو أن يطعن فيها أو أن ينكر عليه شيئاً منها.

كان أحد النفر الذين عُرفوا بالنزاهة حتى صار المثل يُضرَب بهم فيها، منهم عارف النكدي، وقد مَرَّ بعض حديثه[1]، ومنهم زكي الخطيب، الزعيم الوزير المحامي. وهو ابن عم أمي، أبوها الشيخ أبو الفتح الخطيب، وهو ابن الشيخ أبي الخير الخطيب، فهو ابن عمها وابن عم خالي محب الدين الخطيب. عرفته من فوق المنبر، فقد كانت العادة في الشام كلما كان اجتماع، ولو كان عقد نكاح فضلاً عن حفلات المناسبات الدينية والوطنية كذكرى الهجرة وبدر، كانت العادة في الشام في هذه الاجتماعات أن يخطب الخطباء، والحفلة التي لا يخطب فيها خطيب كالعرس

---

(١) راجع الحلقتين ٤٢-٤٣ من الذكريات، في الجزء الثاني (مجاهد).

الذي لا تغني فيها مغنية! وكان الخطباء يومئذ معدودين، منهم زكي الخطيب والشيخ بهجة البيطار والشيخ جودة المارديني مدير المدرسة الكاملية، وهو أول شيخ في دمشق حلق لحيته ولبس الحلة (البذلة الأفرنجية) واعتمر فوقها بالعمامة، فكان منظره مفرداً عجباً. ثم لما كبر علي الطنطاوي وجاء على أثره مظهر العظمة ومحمد كمال الخطيب انضموا (أو ضمهم الناس) إليهم فصاروا من خطباء الحفلات، وكنت أنا من بينهم أكثرهم خطباً وكان الناس لي أشد طلباً.

ولقد خطبت في عقود لا أحصيها، منها عقد الشيخ مصطفى السباعي وعقد الشيخ الدكتور محمد الصباغ وعقد الشيخ فخري الحسني. كما خطبت في جنازات لا أستطيع عدها، كجنازة الشيخ بدر الدين والشيخ محمود ياسين والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ أبي الفرج خطيب الجامع الأموي، وهو والد الصديق الدكتور عدنان نائب رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، وهو أيضاً ابن عم أمي، أبوه هو الشيخ أبو الفرج الخطيب وشقيقه الأستاذ صلاح الدين الخطيب، شيخ القضاة في الشام ووالد زوجتي.

* * *

أعود إلى حسن بك الحكيم فأتساءل: هل هو سياسي يُعَدُّ في السياسيين؟ الجواب: لا أظن. إن للسياسة أخلاقاً ما كان لحسن بك نصيب منها، فما ميزته إذن؟ ميزته الصدق والأمانة، وأنه إنْ ولي عملاً أدّاه على ما يرضي الله ويريح الضمير ويكفل المصلحة.

ولما ولي رياسة الوزارة سنة ١٩٤١ مع الشيخ تاج (والشيخ تاج خال زوجتي، شقيق أمها) كنت قاضياً في النبك، فخاف قومٌ من بطشه وشدته، وأمل قوم كانوا يتزلّفون إليه بالترقي والنفع على يديه. فقلت للفريقين: إنكما على خطأ، إن حسن بك لا يعرف الحقد ولا الانتقام ولا يؤثّر فيه التزلف ولين الكلام، بل إنه لا يراعي في المصلحة العامة أي صلة شخصية، فهو يعزل أو ينزل صديقه الأدنى من الموظفين إن كان سيئاً لا يصلح، ويرفع وينفع عدوه إن كان صالحاً، فانتظِروا تَرَوا.

وانتظروا فكان كما قلت.

ولم يكن حسن بك عالماً، ولكن كان على إلمام جيد بالعلوم الإسلامية والعربية، يكتب كتابة لا يُعَدّ بها في البلغاء، ولكن يعبّر بها بأسلوب صحيح عما يريد من المقاصد. وينظم بعض الشعر، وما كان شاعراً، وعندي مقطوعة بخطه في وصف الشاي الأخضر الذي كنت أصنعه، يثني عليّ فيها ثناء الكبير على الصغير، ليست الآن تحت يدي ولكنها عندي، كتبها لما كنا في بغداد في عشر الثلاثين (أي في الثلاثينيات).

ثم ولي وزارة المالية غير مرة، وصار رئيس الوزراء، وبقي يعيش كما كان يعيش أولاً: يركب الترام ويقف على اللحام!

عندي مقالة طويلة وجهتها إليه لما ولي المديرية العامة للأوقاف، ولم تكن لها يومئذ عندنا وزارة، عنوانها «إلى القوي الأمين حسن الحكيم»، فيها اقتراحات نافعة للأوقاف حقق ما استطاع تحقيقه منها، وقد نشرتُها في جريدة «ألف باء» يوم ١٨

أيلول ١٩٣٧ [١]. وقدّم مرة للحكومة برنامجاً إصلاحياً شاملاً، فكتبتُ في «النصر» أو في «الأيام» كلمة ليست تحت يدي الآن، قلت في آخرها: "إما أن تأخذوا ببرنامج حسن الحكيم أو أن تنزلوا بضيافة أسعد الحكيم". وكان الأستاذ الكبير العالم الأديب عضو المجمع العلمي، الدكتور أسعد الحكيم، أولَ طبيب اختصاصي في الأمراض العقلية في الشام وكان مديرَ مستشفاها.

ولما ولي رئاسة الوزارة أقبل الناس أفواجاً على شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وهو ابن خالته وأصغر منه سناً، ولكن حسن بك يعرف له قدره ويُكْبر فيه علمه ويستمع منه ويصغي إليه. وقد عرفتم أن الشيخ بهجة لم يكن يرد سائلاً ولا يرفض طلباً لطالب، فحَارَ ماذا يصنع! وكنا عنده، فقلت له: تسمع اقتراحاً من تلميذك؟ قال الشيخ: نعم. قلت: ليس بينك وبين حسن بك حاجب ولا بوّاب، فالرأي أن تخبره بما أنت فيه وتسأله هو المشورة فيما تصنع.

فأخذ بذلك وعرض الأمر على حسن بك، فاتفقا على أن يستمع الشيخ بهجة كل طلب وكل شَكاة ويخبر بها الرئيس حسن بك، ويقول للناس: أنا عليّ أن أوصل الطلب أو الشكوى وهو يقبل ما يراه حقاً ويرد ما يراه باطلاً. وكان ذلك، فاستراح شيخنا ورضي الناس، وأنصف أقواماً من ظلامات كانت واقعة عليهم، وكشف أقواماً كانت لهم مطامع يسترونها بمظاهر التقوى والصلاح.

(١) المقالة في كتاب «فصول إسلامية»، وعنوانها في الكتاب «في إصلاح الأوقاف» (مجاهد).

كان رجلاً من طراز نادر، لو أحصينا أمثاله في الناس لما وجدنا من أمثاله إلا قليلاً، ولكننا أمة لا تقدّر رجالها. أمضى ثلث القرن الأخير من حياته (التي امتدت مئة وأربع سنوات)[1] في حالة هي أدنى إلى الفقر وإلى الحاجة، وما وجد منا من يكرم شيخوخته ومن يسهّل عليه حياته. رحمه الله.

* * *

(١) لعل جدي وَهِمَ في حساب عُمْر حسن الحكيم، رحم الله الاثنين، فقد عاش ستاً وتسعين سنة فحسب، وُلد سنة ١٨٨٦ وتوفي سنة ١٩٨٢، قبل نشر هذه المقالة بسنتين، فلم يُتِمّ القرن، لا بالسنين الشمسية ولا القمرية (مجاهد).

الشيخ سليمان الجوخَدار

نشرت سنة ١٩٤٤*

كنت سنة ١٩٤٤ قاضياً في دُوماً، وكنت أركب الترام من داري في المهاجرين إلى المرجة، وهي ساحة الشام الكبرى ومركز البلد يومئذ، ثم أركب الترام منها إلى دوما، فكان الطريق يستنفد مني ساعتين كاملتين.

وكنت يوماً في الترام، وكان مزدحماً براكبيه كما تزدحم في العلبة أسماكُ السردين، وكان إلى جانبي فتى من المتأدبين فقال لي: مَن هذا الشيخ المهيب الطلعة البادي الأناقة ذو الشيبة المشرقة والعمامة الإسطنبولية الذي لا ينفكّ ينظر إليك؟

فتلفَّتُّ حيث أشار، فلما أبصرته أسرعت إليه فقبّلت يده وحيَّيته بتحية فيها المحبة والإكبار، فجعل يسألني عن حالي

---

* نشر علي الطنطاوي هذه المقالة سنة ١٩٤٤ بعنوان «قاضي دُوما سنة ١٣٠٠»، ثم ضمّها إلى مقالة طويلة نشرها مع حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٤/٦/٢١، وقد فصلتها عنها وأعدتُها مقالةً مستقلة كما كانت، وأبقيت سائر المقالة على حالها، وهي التي تأتي بعدها في هذا الكتاب بعنوان «مع بعض مشايخي» (مجاهد).

وعملي، حتى بلغ الترام آخره في ساحة المرجة (التي سُمِّيَت بعدُ ساحةَ الشهداء) فقال لي: إلى أين؟

قلت: إلى دُوما، فهل تتفضلون بزيارتي فيها؟ فضحك وقال: ألا تدري أني كنت سَلَفاً لك فيها؟ قلت: لا والله يا سيدي، فمتى كان ذلك؟ قال: احزر. فذهبت أقول: قبل عشرين، قبل ثلاثين سنة... وهو يضحك. فلما عجزت وسكتّ قال: لقد كنت قاضياً في دوما سنة ١٣٠٠هـ.

ولما فارقناه جعل صاحبي يُلحف عليّ بالسؤال عنه وأنا ذاهل عن سؤاله لا أسمعه، أفكر في هذا الشيخ: أي تاريخ حَيّ في ذهنه؟ أي دنيا في ذاكرته؟ وأتصور هذا العمر المديد وهذا الدهر الطويل بين أيامه وأيامي في دُوما. اثنتان وستون سنة؟ كم تبدلت فيها الأيام وتغيرت الوجوه وقامت وقعدت الحكومات، وكانت حروب وكان سلام، ووُلد ناس ومات ناس، وذهب الأتراك وجاء فيصل، وذهب فيصل وجاء الفرنسيون، وكانت حرب البلقان ثم الحرب العامة الأولى والثانية!

لقد تبدل في البلد كل شيء وهذا الشيخُ ثابت لم يتبدل، مقيم على حاله لم يتغيّر عنها، وأحاول أن أتخيل ما في رأسه وكيف ينظر إلى هذه الدنيا فأذكر به أهل الكهف. وأي فرق بينه وبينهم؟ وهل في سكان دوما من يعرفه لو جاءهم أو يذكر أنه كان قاضياً فيها؟ وكم تكون سِنّه اليوم وقد كان قاضياً في دوما منذ اثنتين وستين سنة؟ وقضاء دوما أكبر أقضية سوريا كلها، ولم يكن يُولّاه يومئذ من هو دون الثلاثين؟

* * *

وضاق رفيقي ذرعاً بسكوتي، فجذب يدي فانتبهت، فقال: من هذا الشيخ؟ قلت: ألا تعرفه؟ هذا العالم الجليل، هذا الذي كان مفتي الديار الشامية سنة ١٣٢٥، قبل ولادتي أنا بسنتين، بعد المفتي الأشهر محمود الحمزاوي والمفتي المنيني والمفتي شيخ قطنا، وقبل أبي الخير عابدين وعطا الكسم ومحمد شكري الأسطواني الذي جاء بعدهم، رحمهم الله جميعاً[1].

ولي الإفتاء والبلد حافلة بالعلماء الأعلام، فلم تَطُلْ ولايته، لأنه أراد أن يسيّر الأمور على ساق الحق وحدها. والأمور في الدنيا لا تمشي غالباً إلا على ساقين من حق وباطل. وهذه الكلمة مروية عن ابن عباس، قالها عن عليّ بن أبي طالب، ولست أدري هل قالها فعلاً أم تَقَوّلها الرواةُ عليه ونسبوها إليه؟

نظر هذا الشيخ -لما ولي الإفتاء- فرأى الأوقاف يأكلها متولّوها، وفيهم الباشوات والوجهاء الكبار وأهل الحل والعقد في دمشق، ورأى بستان الأعجام (الذي أقيم عليه اليوم حي الحلبوني، وهو من أفخم أحياء دمشق) قد تقاسمه هؤلاء بحجج واهية وحقوق مزعومة ادّعوها على الأوقاف. فمنهم من كان له «حق القيمة» (وهي في عرفهم الجدران وجذور البرسيم والدمنة) يريد أن يمتلك البستان بها! وكان في البلد رجل وجيه مسموع الكلمة في الشام وعند السلطان في إسطنبول، فقام الشيخ يحاربه بسيف الحق، وأقبل المتولّون يحاربونه مع هذا الرجل بسيوف

---

(١) توفي الشيخ محمد شكري الأسطواني بعد كتابة هذه المقالة بإحدى عشرة سنة، سنة ١٩٥٥ (مجاهد).

الشغب وإيفاد الوفود إلى حاضرة الخلافة في إسطنبول وإرسال الكتب والمضابط. والحكومات في كل زمان ومكان إنما تحب الموظف الذي يَألف ويُؤلف ولا يهيج الناس عليه ولا يثير اللغط عليها، فنقلوه إلى منصب أعلى ورتبة أكبر، ولكنهم أبعدوه عن إفتاء الشام. فذهب قاضياً إلى المدينة المنورة، ولو سألتم أحد الشيوخ من أهل المدينة ممّن يذكر تلك الأيام لأخبركم خبره.

وكان هذا الشيخ نائب الشام في مجلس النواب العثماني، وكانوا أربعة نواب يقومون مقام المجلس النيابي في الشام الآن بطوله وعرضه وارتفاعه. ولا أدري متى كان نائباً، ولكني أذكر أن شاعراً دمشقياً من شعراء تلك الأيام أرَّخَ سنة إرسالهم على طريقة حساب الجُمَّل (التي كانت رائجة وكان الشعراء يتبارَون فيها) فكان التاريخ أسماء النواب الأربعة: «سليمان رشدي والشفيقُ محمد»، وهذا من عجائب التاريخ.

وسليمان هو هذا الشيخ الذي أتحدث عنه، الشيخ سليمان الجوخدار، ورشدي هو رشدي بك الشمعة، والشفيق هو شفيق بك المؤيد (وآل المؤيد فرع من آل العظم) ومحمد هو محمد فوزي باشا العظم، والد خالد بك العظم.

وكان هذا الشيخ هو الرئيس الأول لمحكمة التمييز (النقض) عشرَ سنين، وكان وزير العدل مرات، فكان -على عُلُوّ سِنّه- أشد الوزراء مضاء وأحدَّهم ذكاء وأجرأهم على الإصلاح. كان بطل معاهدة الشعباني، اقتنع بها ورآها في مصلحة الشعب فدافع عنها وناضل دونها، واحتمل في دفاعه ما لا يحتمل سياسي في الدنيا من أذى العامة وسخرية الناس وما عرّضوه له من المهانة، ولم

يَنِ ولم يتقاعس ولم يُؤْثر السلامة. وكان أستاذَ الشريعة في كلية الحقوق، وكان قاضي منطقة الزيتون أيام العثمانيين.

* * *

ثم اتصل حبلي بحبله[1]، فكنت أزوره في داره في حي «المهاجرين» مع الأستاذ سعيد الأفغاني والأستاذ الشيخ عبد القادر العاني والأستاذ يوسف الحسني وجماعة، فكنا نجد عنده تاريخاً ناطقاً، ما قرأه في الكتب فوعاه في ذهنه ولكنه عاشه. والعجيب أن هذا الرجل -على علمه الكبير، وعلى أنه ولي أكبر المناصب القضائية في الشام وكان له أظهر الأثر في السياسة- لم يكتب عنه أحد، حتى إن الأستاذ خير الدين الزركلي لم يذكره في «الأعلام»!

كان منهجه اليومي أن يقوم قبل الفجر فيتهجد، ثم يذهب فيصلي الغداة في مسجد الحي، ويبقى فيه إلى ما بعد طلوع الشمس، ثم يعود إلى داره فيأكل شيئاً خفيفاً، ثم يمشي ساعتين كل يوم، فمن ذلك كنت ترى وجهه وهو في هذا العمر مورَّداً طافحاً بالصحة والقوة. ثم يشتري حاجات داره بيده، ثم يعود إلى الدار فلا يخرج إلا إلى الصلاة. فإذا صلى العشاء انقلب إلى فراشه، لا يكلم أحداً بعدَه إلا في ضرورة لا بد منها أو إيناس ضيف دخل عليه أو في حديث العلم.

---

(١) الجزء الباقي من المقالة أضافه جدي إلى نسختها الجديدة التي نشرها في «الشرق الأوسط» سنة ١٩٨٤، ولم يكن في أصلها الذي نشره سنة ١٩٤٤ (مجاهد).

وقد خبّرني أنه لما صار قاضياً في القضاء (والقضاء أصغر جزء في التقسيمات الإدارية في البلاد العثمانية والبلاد التي انبثقت عنها كالشام) كان يجد الموظفين يسهرون كل ليلة عند قائم المقام، فيمضون الوقت كله في أحاديث تافهة أو في اغتياب الناس أو في الدسّ عليهم، أي أنهم يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع لهم فيه، بل فيه الضرر عليهم، فجعل يجمعهم على كتاب يقرؤونه أو درس يسمعونه، ثم اخترع طريقة جديدة ما أظن أن أحداً سبقه إليها، وهي أنه كان يعمد إلى الطبقة المتميزة من الموظفين ومن المتعلمين في البلد الذي ولي قضاءه، فإذا كانت جلسة اختار للجلسة التي بعدها موضوعاً من الموضوعات العلمية أو الفكرية أو الاجتماعية، ثم قال لهم: ليعدّ كل واحد منكم نفسه للكلام في هذا الموضوع في الجلسة المقبلة. ودلهم على المراجع فيه، فمن أراد منهم وقدر رجع إلى هذه المراجع فدرسها فازداد بها علماً (وقد جربت هذه الطريقة لما عيّنت قاضياً في النبك سنة ١٩٤١ فوجدت فيها خيراً كثيراً).

هذا الرجل واحد من عشرات، بل من مئات من الرجال، كان في حيواتهم[١] وفي أفكارهم درس للناس لو أن تراجم حيواتهم دُوِّنَت وكُتبت وأُلِّفَت فيها الرسائل، ولكن خبره ضاع في الدنيا كما ضاع الكثير من أخبار أمثاله من كبار الرجال.

* * *

---

(١) حيوات جمع حياة.

مع بعض أساتذتي ومشايخي

نشرت سنة ١٩٨٤*

مِمَّن عرفت من الجنود المجهولين والرجال العاملين الذين لم تصل إليهم أضواء الشهرة فيعرفهم الناس ولكن الله يعرفهم ويثيبهم برحمته ويجزيهم على أعمالهم: معلم الشام الشيخ عيد السفرجلاني. وقد كتبت عنه كثيراً، وكان من أوائل من فتحوا المدارس الأهلية الابتدائية في دمشق، لبث سبعين سنة معلماً، تعلّم عنده الولد وأبوه من قبله وجده من قبلهما. وقد رأيت في سجلّاته أن أبا الجد قد تعلم عنده!

كانت له مدرسة في «المناخلية» في دمشق، إلى جنب باب الفرج، وهو أحد الأبواب الباقية لدمشق (وسور دمشق وأبوابها لم تذهب به أحداث الزمان ولا يزال باقياً إلى الآن). ثم انتقل إلى المدرسة الجقمقية، عند باب الأموي الشمالي الذي يفضي إلى باب الفراديس من أبواب دمشق السبعة. وهذه المدرسة من أجمل المدارس الأثرية في دمشق، وقد عُنيت بها مصلحة الآثار أخيراً فجدَّدت بناءها وأعادت نقوشها، ولكنها أغلقت أبوابها!

---

* نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٤/٦/٢١.

والعمارة المطلوبة في الإسلام ليست عمارة الأركان والجدران ولكنها عمارة العلم والإيمان، ولذلك أثبت الله للمشركين أنهم عمروا المسجد الحرام حين قال: ﴿أجَعَلتم سِقايَةَ الحاجّ وعِمارَةَ المسجد الحرام كمَن آمَنَ بالله واليوم الآخر؟﴾ ولكنه نفى عنهم عمارة العلم والإيمان، فقال: ﴿إنّما يَعْمُرُ مساجدَ الله من آمن بالله واليوم الآخِر﴾.

هذه المدرسة هي التي تعلمت فيها في نهاية الحرب الأولى، ثم صرت معلماً فيها، وكان أبي من تلاميذها وصار معلماً فيها، وكل ذلك والشيخ عيد السفرجلاني هو صاحب المدرسة وهو مديرها. وقد كتبت عنه كثيراً فلا أعود الآن إليه، وأذكر أنه لما توفي سنة ١٩٣١ كنت أشتغل في جريدة «الأيام» عند الأستاذ عارف النكدي، فكتبت مقالة عن الشيخ عيد، فقال لي بعض إخواننا هناك: ومَن هو الشيخ عيد؟ أنشغل القرّاء بشيخ كُتّاب؟



المدرسة الجقمقية

فثرت عليه وأسمعته ما لا ينتظر سماعه مني، وبيَّنت له أن شيخ الكتّاب هذا وأن معلّمي مدارس الحضانة والمدارس الابتدائية هم الذين يضعون الأساس، ولا يقوم البناء إلا على أساس مهما كثرت طبقاته وعَلَت شرفاته. فينبغي أن نطالب معلم الابتدائي بالكثير من العلم ومن الخُلُق، وأن نعطيه الكثير من المال ومن التقدير.

* * *

وكان لشيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلاني، كان من أقدم المعلمين في دمشق، يدرّس الرياضيات. ثم صار المدير الثاني، أي وكيل المدرسة في «مكتب عنبر». وقد اخترع لنا -لمّا كان مديرنا فيه- مكافآت مطبوعة مذهَّبة مكتوبة بالخط الكوفي والخط الفارسي والثلث، سماها «الاستحسان والتقدير والامتياز»، وجعلها درجات، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجِدّ وإلى الاجتهاد. ولا تزال عندي طائفة منها، لو أنها وُضعت في إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية.

وعاش الأستاذ عبد الرحمن عمراً طويلاً جداً ومات وقد بلغ السابعة والتسعين، لم يبقَ بينه وبين المئة إلا ثلاث سنوات. رأيته يوماً في مجلس شيخ القضاة في الشام، مصطفى برمدا، الرئيس الأول لمحكمة التمييز (محكمة النقض)، وكان يستقبل الناس صباح الجمعة إلى وقت الصلاة، فإذا دنا وقت الصلاة استعدَّ فذهب وذهبوا إلى المسجد لأدائها. لا كمجلس العقاد يوم الجمعة، وقد حضرتُه مرة مع أخويّ الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا والأستاذ نهاد القاسم، وزير العدل أيام الوحدة، فوجدت

القوم لا يصلّون ويبقون في هذا المجلس إلى الساعة الثانية، فتركناهم وخرجنا.

أقول إني وجدت الأستاذ عبد الرحمن مرة في مجلس مصطفى بك، وكان في المجلس الأستاذ جميل بك الدهّان، الرجل المعمَّر الذي كان المدير العام للأوقاف، وكان قبل ذلك متصرف حمص دهراً طويلاً، فجرى ذكر أيام المدرسة فاشتركوا جميعاً في الحديث عنها، فاستأذنت وسألت مصطفى بك: هل كنتم في مدرسة واحدة؟ فقال الأستاذ عبد الرحمن: نعم. فضحك مصطفى بك وقال: نعم، ولكن كنا نحن التلاميذ وكان هو الأستاذ! ودخل فجاء بصورة قديمة يبدو فيها مصطفى برمدا وجميل الدهان ولدين صغيرين واقفَين مع التلاميذ، والأستاذ عبد الرحمن قاعد على الكرسي مع المعلّمين وله شاربان معقوفان.

وكان من تلاميذه شكري بك القُوَّتلي، أي أنه عاش حتى رأى تلاميذه قد بلغوا أعلى المراتب وجاوزوا من أعمارهم الستين سنة. ولما أصدر حسني الزعيم قراراً بإلغاء الأوقاف الذرية واحتاجوا إلى مَن يحسب أنصبة المستحقين فيها (وقد يبلغون أحياناً المئات، في وقت طويل يستمر عشرات من السنين) كان أول الحاسبين الذين يقسمونها ويعرفون الفرائض ويتقنون الحساب الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني والشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة.

وكانت له أجوبة عجيبة. كنت مرة راكباً في سيارة النقل الجماعي في الشام، وكنت في الصف الأول، والسيارة كبيرة فيها ستون راكباً وهي مزدحمة، فسمعت ضجة من ورائي، فسألت

الجابي (الكمساري): ما القصة؟ فضحك وقرَّب فاه من أذني وقال: والله شيء عجيب. أترى هؤلاء البنات؟ فرأيت ثلاث بنات شابات متبرجات واقفات في ممر السيارة. قلت: نعم. قال: لما صعدْنَ تعرَّضْنَ لهذا الرجل العجوز وأسأنَ إليه بالكلام، فتناولهن بسلسلة من النكات والأجوبة المسكتة حتى جعلهن هزأة بين الناس، ولا يزال يتكلم، ينتقل من مَثَل إلى مثل ومن موعظة إلى موعظة ومن نكتة إلى نكتة، وكلها تنصب على رؤوس هؤلاء البنات كصب الحميم، ولم يكد يتم كلامه حتى سحبت إحداهن حبل الجرس لتقف السيارة، ووقفت ونزلنَ هاربات منه.

* * *

ولما كنا صغاراً كان شيوخ المعلمين في الشام ثلاثة: الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، وأسنّ منه وأكبر في القدر يومئذ الأستاذ سعيد مراد، والشيخ محيي الدين الخاني. وأسرة الخاني منسوبة إلى خان شيخون، وهي أسرة كبيرة ظهر منها علماء أجلاء ورجال كبار، منهم الدكتور جميل الخاني، وهو أحد الذين وضعوا المصطلحات العربية الطبية مع إخوانه حمدي الخياط ومرشد خاطر وشوكت الشطي.

ولما انتهت الحرب العامة الأولى أغلقت مدرستنا التي كانت منسوبة بالاسم لجمعية الاتحاد والترقي (وإن لم يكن بين الجمعية وبينها صلة بالفعل) أغلقت هذه المدرسة فذهبت إلى المدرسة السلطانية[١]. وكان المدير الأول فيها (أي المدير العام) الأستاذ

---

(١) كنا إذا قلنا «المدرسة السلطانية» أردنا بها يومئذ المدرسة الثانوية.

سعيد مراد، وكان المدير الثاني (أي مدير القسم الابتدائي) الأستاذ شريف آقْبيق. وأسرة آقبيق أسرة دمشقية صغيرة، وأظن أن معنى آقبيق باللغة التركية الشارب الأبيض، ولست متحققاً[1].

كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هيبة في نفوسنا، بل رهبة، لعلوّ منزلته ولأنه المدير الأول الذي يأمر وينهى هذه المجموعةَ الكبيرة من الأساتذة وهذا الجيشَ المحشود من الطلاب. وكنت أصنع أحذيتي عند حَذّاء كبير[2]، ودكانه مواجهة للباب الجنوبي لمسجد بني أمية الذي يفضي إلى الحرم (أي إلى بيت الصلاة) رأساً، وكان صاحب هذه الدكان شيخاً بعمامة من آل الأسطواني.

والمشايخ الذين كانوا يعملون في التجارة والصناعة كثيرون، ربما عدت يوماً إلى الكلام عنهم، يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام أو إلى استجداء احترام العوام أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال. وهذه سُنّة سَلَفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار، يتكسبون أموالهم بعملهم، وما ذلَّ العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم وأصحاب الأموال.

---

(١) هي كذلك؛ ak = أبيض، bıyık = شارب (مجاهد).

(٢) أدركت هذه المهنة وأنا صغير، فكنا نذهب في رمضان كلَّ عام إلى حَذّاء يقيس أقدامنا ويعرض علينا النماذج لنختار منها شكلاً نرضاه، ثم يصنع لنا الحذاء ويسلّمه قبل العيد، فتكون له في نفوسنا فرحة كبيرة. وقد انقرضت هذه المهنة اليوم كما انقرضت مهنة خياطة القمصان وكما كادت تنقرض مهنة خياطة البناطيل، فصار الناس يشترون الألبسة والأحذية جاهزةً من المتاجر، فيجدون وفرة في الأشكال والقياسات تُغنيهم عن «التفصيل» (مجاهد).

أعود إلى الموضوع: ذهبت يوماً لأفصّل حذاءً جديداً، وكنت تلميذاً في السلطانية الثانية، فرأيت في الدكان ما جمد خطواتي وثبتني في مكاني فلم أستطع أن أتقدم، وظهر ذلك عليّ وجذب الأنظار إليّ، فما الذي وجدته؟ وجدت مديرنا الأستاذ سعيد مراد، وكان أقرب إلى الطول، وكانت له لحية صغيرة شقراء. فاستدعاني واستدناني وثبَّت رُوعي[1]، وكلمني كلام أب محب لا كلام أستاذ مرهوب.

ومَرَّت الأيام الطويلة وصرت قاضي دمشق، وكنت يوماً على قوس المحكمة أنظر في قضايا الناس، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين، وكلهم مستعجل يريد أن تُرى قضيته وينصرف. فنظرت من الشبّاك فرأيت في ساحة المحكمة رجلاً كبير السن قائماً على قدميه، قد أحنى الدهر ظهره، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد.

فقلت للإخوان: أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق. ونزلت من فوق القوس وخرجت من القاعة، وهم يحسبون أني إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة لا بد منها ولا يُستغنى عنها، أي أني ذاهب إلى الحمّام، فرأوني قد ذهبت إلى هذا الشيخ، فقبّلت يده وسألته أن يدخل معي لأقضي حاجته إن كانت له حاجة. فدخل معي، فأصعدته القوس إلى جانبي وقلت للحاضرين: هذا

(١) كذا تُلفَظ، بضم الراء، وتخطئ العامة فتلفظها بالفتح. والرَّوع بالفتح هو الفزع، أما الرُّوع بالضم فهو القلب (أو هو موضع الفزع منه) وهو المقصود بهذا التعبير وأشباهه (مجاهد).

شيخ المعلمين وهو أستاذي، علّمني كما علّم آلافاً وآلافاً من أبناء هذه الأمة، أفلا ترون من حقه عليّ وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر فيما جاء من أجله؟

قالوا: نعم. وظهر الرضا على وجوههم، وبان أن في هذه الأمة خيراً كثيراً وأن الكرم والنبل لا يزال في أعماق قلوبها، ولكن ربما غطت عليه المطامع أو هموم الأيام. ونظرت في حاجته وقضيتها، فسألني: من أنت؟ قلت: انظر إليّ لعلك تعرفني. فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبيَّنّي. فقلت له: أنا فلان. فذكرني ودعا لي وترحّم على أبي، ثم أوصلته إلى باب القاعة حتى خرج، ولا يزال منظر دموعه وهي تقطر من لحيته (التي كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج) منظراً لست أنساه وأحمد الله عليه.

* * *

ولم تَمضِ إلّا أيام حتى جاءني من يخبرني أن أستاذنا سعيد البحرة قد توفي وأن داره قريبة من المحكمة، وأن الناس -على عادة أهل الشام- يجتمعون في بيت من بيوت الجيران للاستعداد لتشييع الجنازة. وكذلك كنا، كنا إذا كان فرح أو كانت مصيبة فالفرح فرح أهل الحارة جميعاً والمصيبة مصيبتهم جميعاً، يفتحون أبوابهم ويقدمون ما عندهم مشارَكةً في الفرح أو مواساة في الألم.

ولم أكن أحضر مثل هذه الاجتماعات، ولكنه أستاذنا، كان يدرّس الفلسفة (ولم أقرأ عليه إلا مدة قصيرة جداً) لذلك ذهبت، فأجلسوني في صدر القاعة وحفّوا بي، إكراماً للمنصب

لا لشخصي، لأن لمنصب القضاء عند الناس حرمة ليست لغيره من المناصب. وكان الناس يدخلون ويخرجون، فنظرت فإذا بين الداخلين الأستاذ شريف آقبيق، وهو مديرنا الثاني في المدرسة السلطانية لمّا كان الأستاذ سعيد مراد مديرنا الأول (كم قدمت) فقمت إليه فقبّلت يده (على عادتنا في تلك الأيام؛ كان فيها الصغار يقبلون أيدي الكبار، يحترمون مدرسيهم وأولي الفضل فيهم) وعزمت عليه إلّا أن يجلس في مكاني، وقلت للحاضرين: هذا أستاذي، ومهما علا المرء أو اغتنى أو ارتفع قدره فإنه يبقى أمام أستاذه صغيراً كما كان من قبل ولداً صغيراً. وكان لذلك أطيب الأثر في نفسه رحمه الله.

* * *

الشيخ أمجد الزهاوي

نشرت سنة ١٩٨٥*

كان الشيخ أمجد كنزاً مخبوءاً فكشفه الصوّاف، كان كتاباً عظيماً مخطوطاً لا يعرفه الناس، فطبعه الصواف ونشره وعرّف به الناس. عاش قاضياً في الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتى إذا جاء الشيخ الصواف عرّف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ. فلولا حماسة الصواف لما ظهرت هذه العبقرية المخبوءة، ولولا عبقرية الشيخ ما أثمرت حماسة الصواف، ذلك أنها إذا كادت تخبو النار فنفخت فيها اشتعلت، ولكن إن نفخت في رماد بارد لم يظهر لهب النار.

---

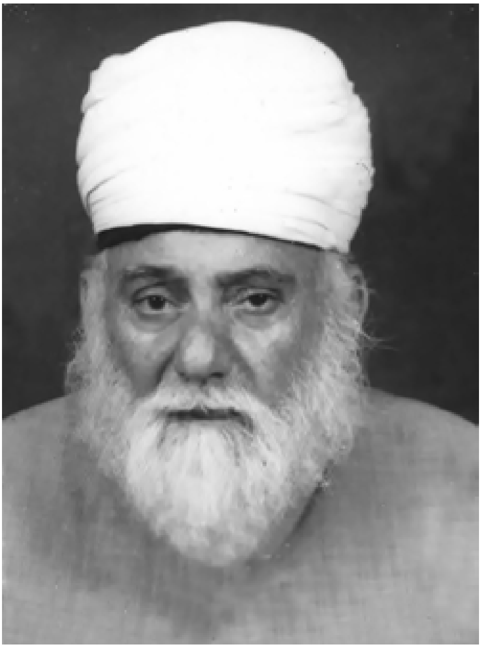
* نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٥/٢/٧، في سياق الحديث عن مؤتمر القدس الإسلامي؛ قال في آخر الحلقة ١٣٧: "إن الحديث عن هذا المؤتمر لا بدّ فيه من الكلام عن الشيخ الصواف والشيخ أمجد، فهما اللذان دَعَوَا إليه وجمعا من المال ما أنفقنا منه عليه". ثم شرع في أخبار المؤتمر في الحلقة التي بعدها (١٣٨)، وخصص بعدها حلقة كاملة للحديث عن الشيخ أمجد، ولم تظهر في «الذكريات» لأنه آثر ضمَّها إلى الطبعة الجديدة من كتاب «رجال من التاريخ» التي أصدرَتها دار المنارة سنة ١٩٨٨، ومنه نقلتُها إلى هذا الكتاب الجديد (مجاهد).

لقد أَعْدَتْهُ حماسة الصواف، أفتحسبون أن العدوى إنما تكون في الأمراض وحدها؟ أما الشيخ أمجد فإنني أنقل لكم ما كتبته عنه في حياته بإذنه وقرأته عليه قبل نشره. الشيخ أمجد كان بركة العصر، وإني لا أعرف في العلماء مثله، استفدت من صحبته فوائد كثيرة في خلقي وفي تفكيري. عرفته أول ما عرفته في دار العلوم، الكلية الشرعية في الأعظمية في بغداد، وكان أستاذاً فيها، وكنت أدرّس فيها الأدب وأنام فيها سنة ١٩٣٧ أو قريباً منها، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أرَه إلا في المؤتمر.

ولقد عجبت من هذا النشاط الذي عراه في شيخوخته، في السنّ التي يخمد فيها عادةً في نفوس أهله النشاطُ، وعهدي به أنه كان قاضياً منعزلاً منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، فلما ترك العمل وبلغ السن التي يستريح فيها أمثالُه انتفض فإذا هو يرجع شاباً: شاباً في جسده وفي همّته، وإذا هو ينتقل -بقفزة واحدة- من حياة بلغ فيها الغاية في العزلة إلى حياة بلغ فيها الغاية في الاختلاط، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين وجمعية الآداب الإسلامية وجمعية الأخوّة الإسلامية (الإخوان المسلمين) وجمعية التربية الإسلامية، وإذا هو يُصلح مدارس الأوقاف ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية، وإذا هو يرحل إلى الهند أولاً وثانياً ويرحل مرات ومرات إلى الشام ومصر والحجاز.

* * *

لمّا رأيته في المؤتمر وسلمت عليه وذكّرته بنفسي (وقد درَّستُ معه في مدرسة واحدة سنة كاملة) قال لي: أنا لا أذكرك. فحسبت ذلك منه تكبراً وترفعاً واعتزازاً بالنفس وتجاهلاً للناس،



ثم علمت بعدُ، لمّا صحبته، أنه كثير النسيان، وأنه صادق لا يعرف المداهنة ولا المجاملة، فإذا كان لا يذكرني فيستحيل أن يقول لي إنه يذكرني أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً. وقد ينسى من أمور الحياة القريبَ منها والبعيد، أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدى. ثم أخذت آلفه، ثم أحببته، ثم حل من نفسي من التَّجِلّة ومن المحبة محلاً لم يحتلّه إلا القليل ممن لقيت من فضلاء الرجال.

لمّا لقيته في المؤتمر بهذه العمامة المشوَّشة دائماً، التي اتسخت جوانبها من كثرة العرق واحمَرَّت من صبغ الطربوش، ورأيت ثيابه التي كانت أقرب إلى أن توصف بالرثاثة، ورأيت شعره الذي لم يعرف الحلاقة من شهور، ظننته فقيراً، حتى لقد

احتَلْتُ فجئته بقميص وشاش للعمامة وقدمت المقدمات ليقبلها مني، فلما رأى ذلك ضحك وقال: أفندي، ظننتني فقيراً؟ أنا أملك ستة عشر ألف دونم.

والدونم ألف متر مربع. وقد علمت بعدُ أنه له ذلك كله، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه. ورأيته -لمّا كانت الرحلة- قد تركه ومشى في سبيل الله، ولمّا فاض نهر دجلة وغرقت بغداد كنا في كراتشي، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه: هل غرقت مع ما غرق أم هي قد سلمت مع ما سلم؟ فكان يغضب ويقول: إني خرجت في سبيل الله، فلا تشغل ذهني بها!

وهذا هو الزاهد حقاً: الدنيا مِلءُ يديه ولكن قلبه مملوء بمراقبة الله وذكر الآخرة. كان يأكل الطيبات وينزل في أكبر الفنادق، ويلبس -إن وجد- الغالي من الثياب، فإن لم يجد الغالي لبس الذي وجده، لا يفرح بهذا الذي آتاه الله فرحاً يطغيه وينسيه دينه، ولا يأسى ولا يحزن إن استردّ الله ما أعطى أسىً يُؤْيِسه ويُقْنِطه من رحمة ربه.

هذا هو الزهد حقاً، زهد بعض الصحابة والتابعين وبعض الأئمة المتبوعين الذين كانوا يملكون الملايين، عثمان والزبير وابن عوف وأبي حنيفة والليث وابن المبارك، لا زهد الصوفي الذي منع نفسه الفالوذج أربعين سنة لأن نفسه تشتهيه، فعاقبها بمنعه عنها وهو قادر عليه من الحلال لأنه زعم أنه يخاف أن لا يؤدّي شكره، فقال له الحسن البصري: يا جاهل، وهل تستطيع أن تؤدي شكر الماء البارد؟

* * *

رأيته لا يبالي طعاماً، إن جئته به أكل من طيباته وإن لم يجد صبر، فكان لا يقول لشيء منه هذا طيب ولا لشي منه هذا رديء، بل يأكل كل ما يُقدَّم إليه. وكنت أنا على الضدّ منه، قَلّما أستطيع أن آكل في تلك الرحلة ما أجد. وطعامي في بلدي ألوان قليلة معدودة، فإذا تبدلت أو تبدلت طريقةُ طبخها لم آكلها، لذلك كنت أَلقَى من السفر عنتاً. وهو بحمد الله صحيح الجسم قوي المعدة، فلا يبالي اختلال ألوانه ولا تبدل مواعيده، وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل.

ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدري لأعلم: هل يتجاهل أم هو لا يدري حقيقة؟ فقلت لغلام الفندق (أي للنادل): الشيخ لا يريد اليوم طعاماً. فلم يأته بطعام،



في السفارة المصرية بكراتشي (١٩٥٤): علي الطنطاوي والشيخ أمجد الزهاوي، وبينهما الدكتور عبد الوهاب عزام، سفير مصر في باكستان.

فلم ينتبه ولم يسأل. فلما كان موعد العشاء رأيته يقبل على الأكل إقبال جائع، فسألته لماذا لم يَتَغدّ، قال: لم يأتونا بطعام! ولما شك في طعام فنادق الهند (لأن الدار دار قوم لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام، وليست دار أهل كتاب) بقي شهرين لا يذوق إلا الخبز والشاي، وهو يشكو القبض، حتى مرض.

لباسه ما قد رأيتم وسمعتم، والمال لا يباليه والجاه لا يلتفت إليه، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء فكانوا يقدمونه ويمدحونه، فلا يستهويه المدح ولا يؤثر فيه التقديم، لأنه همه كله الأمر الذي رحل من أجله، وهو قضية فلسطين.

وأمره في الوضوء والصلاة عجب، فهو مُوسوِس[1] في الطهارة لا في النجاسة، فإذا لم يرَ النجاسة عياناً لم يبال. لذلك كان يصلي على الأرض وفي ممر الطيارة، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة، هناك وسوسته وشَكُّه. ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء أو في مؤتمر صحافي، فكان يخرج ونصف جبته مبتل يقطر منه الماء، فإذا لُمته قال: أفندي، تنجست!

وإذا سمع داعي الله ودخل وقت الصلاة قام من فوره، أينما كان وكيفما كان، فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية.

---

(١) كذا يضبطها الفقهاء، بكسر الواو، ونقله ابن منظور في اللسان عن ابن الأعرابي، قال: فلان مُوَسوِس (بالكسر): الذي تعتريه الوساوس، ولا يقال موسوَس (بالفتح)، لأنه يحدث نفسه بالوسوسة، قال تعالى: ﴿ونعلم ما تُوَسْوِسُ به نفسه﴾ (مجاهد).

رأيت هذا منه مراراً، على مائدة الملك حسين في عمّان ومائدة رئيس وزراء باكستان وفي حفلات رسمية عديدة، ويراه شيئاً عادياً ولا يفكر في مخالفته للعرف. وإن كانت السنّة أن يكمل طعامه ثم يقوم للصلاة، ولقد كان عبد الله بن عمر أتبعَ الناس لسنّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل مرة فسمع الأذان والإقامة واستمر يأكل، فلما سُئل بيَّنَ أن هذه هي السنة. ولعل للشيخ دليلاً على ما كان يفعله ويذهب إليه.

وإذا وقف للصلاة نَقَّى قلبه ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا ثم صرخ: «الله أكبر»، فتحسّ أنها قنبلة ألقيت في وجه الشيطان! وأدركنا رمضان في سفر وفي مناطق استوائية، كنا فوق خط الاستواء تماماً. فلم يفطر رغم الحر والسفر، وإن كان الفطر أفضل.

وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ ويجلس حيث يجلسون على الأرض ويأكل معهم. وأنا لا أستطيع أن آلف هذا الأسلوب فآكل بأصابعي مثلاً، ولا أسلوب الإفرنج في الولائم الرسمية، فكنت أتضايق في الحالين. يكره تقليد الإفرنج، لكنه يقرأ ما يصل إليه من كتبهم ويروي النافع من أقوالهم، ويضيق صدره إن حدثته عنهم، لا سيما فيما لا يعرف من أمورهم.

* * *

وهو -في الحقيقة- رجلان مختلفان: إن جئت للعلم وجدت له ذهناً نفّاذاً عجيباً يخترق كل معضلة علمية، لا بالرأي المنقول بل برأيه هو. ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل، يتكلم فيها على

الغالب وحده، وهذا يزيد (إنْ صَحَّ حسابي) على ألف ساعة، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل.

ولكنه إلى جانب ذلك لا رأي له في المشكلات اليومية ولا يحاول أن يعالجها، وربما ترك الطريق الواضح المستقيم وسلك الطريق المعوَجّ. لما كنا في كلكتا ترددنا بين الذهاب إلى دهلي أو الذهاب إلى بومباي، فقال إنه لا نفع لنا من دهلي. وذهبنا إلى بومباي، ثم نصح له مَن فيها بالعودة إلى دهلي فعدنا إليها، واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً.

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلي ولاهور مثل قاعدة المثلث المتساوي الساقين ورأسه كراتشي، فسألته ونحن في دهلي: أنزور لاهور؟ قال: لا. فلما وصلنا كراتشي قال: إلى لاهور. فقلت: أنا لا أذهب إليها؛ لما كنت قريباً منها فعرضت عليك الذهاب أبيَت، أفموكَل أنا بفضاء الأرض أذرعه لنعود إليها الآن؟!

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل. كنا نركب الطيارة فأقول له: شد الحزام. فيشدّه، وأنسى أن أنبّهَه لحَلّه إذا طارت الطيارة، فيبقى الساعتين والثلاث وهو مربوط، فيقول: أفندي هذا الحزام... فأفكه له.

* * *

ورعه الورع الحق لا ورع التظاهر والرياء. كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية في السفر والفنادق التي يراها ضرورية، ولكنه لا ينفق قرشاً لحلاقة رأسه مثلاً، لأن ذلك ليس من نفقات

السفر، ولولا أني أقسمت له مرة أن أدفعها مني ما حلق، لأنه لم يكن يحمل معه مالاً.

وكانت رحلتنا لقضية فلسطين، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام في بلد لم يُقِمْ فيه يوماً، ولم يمش بغير هذا المقصد متراً واحداً، حتى «تاج محل»، أجمل بناء على ظهر هذه الأرض، لم يَرَه ولم يُمَكِّنّي من أن أراه (وقد كنا في دهلي وهو في أغرا، وبيننا وبينه ساعتان بالسيارة، والناس يقصدونه من أقاصي الدنيا) لأنه لا مصلحة للقضية في رؤية «تاج محل»، وما جاء في كتابي «رجال من التاريخ» مِن وصفه (الذي قال مَن كتب عن الكتاب إنه كان وصفاً رائعاً) إنما كتبته على السماع.

ولما وصلنا بومباي تلقانا الرجل الكريم الذي منَّ علينا (وهو السيد عبد الله البسام) فسألنا: هل تنزلون في بنسيون؟ فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله وقال: بنسيون؟ بنسيون؟! يحسب البنسيون ماخوراً أو مكاناً للفسوق. وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون فما تركني أتكلم! وهو لا ينتظر تمام الجملة ولا يرقب الشرح، بل هو يثور بي ويُسكتني. وأنا رجل أعرف له قدره وأراعي سنّه، ولكن حِدّة طبعي لا تحتمل ذلك من أحد، فكان يقع بيني وبينه ما يكون بين الولد وأبيه والتلميذ وأستاذه.

وأما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب. قال لي مرة ونحن في بومباي: اذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية. فذهبنا، فكانت القنصلية العراقية على طريقنا، فقلت له: ندخل هذه أولاً؟ قال: باسم الله. فدخلنا وجلسنا جلسة طويلة وتحدثنا عن العراق وأهله، ولما خرجنا قال: هيا بنا إلى العراقية. قلت: كنا

فيها. فغضب وقال: ليش ما تقول لي؟ أنا أحسبها السعودية. قلت: أما رأيت العلم وصورة فيصل بن غازي؟ أما حدثتهم عن العراق؟

ولكنه -إلى جنب هذا- يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة. وهو فقيه حنفي متمكن وله مشاركة في كل علم، وكان محامياً ثم صار قاضياً، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز (النقض) وأستاذاً في كلية الحقوق ومدرّساً في مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف هي المدرسة السليمانية، فلما منع القانون الجمعَ بين الوظائف وخيَّرَ بينها اختار التدريس في المدرسة الوقفية الصغيرة، لأنها مدرسة أبيه ولأن العمل فيها لله وللدار الآخرة، وترك رياسة محكمة التمييز.

هذا هو الرجل الذي كان لي شرف صحبته في رحلتنا الطويلة، فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً، رحمه الله وأجزل ثوابه.

* * *

أنور العطّار
شاعر الحب والألم والطبيعة

نشرت سنة ١٩٨٥*

أخذت جريدة الشرق الأوسط يوم الأربعاء الماضي فوجدت اثنين من بلدي، هفا إليهما قلبي وأضرما (وما خمدت) لواعجَ الشوق إليه في صدري، وضمَّخا بالعطر كل ما حولي فملأ الطيب مجلسي، وكيف لا، وهما عطّار يكتب عنه عطريّ؟

فكأنني انتقلت معهما إلى الغوطة في آذار، وقد كلَّلت هامَ الأشجار فيها الأزهارُ وغنَّت على أفنانها الأطيار. وأين مني تلك الديار؟ أين مني الغوطة؟ يا أسَفَى على الغوطة! لقد قطعوا شجرها وبَدَّدوا زهرها وثمرها، وأقاموا عليها مقابر كبيرة للأحياء من البشر، لا تختلف عن القبور إلا بأنها طبقات فوق طبقات، وأن لها منافذ يدخل منها الضياء كما تدخل منها شياطين الإثم، إذ تكشف سرَّ الجار للجار حتى يكاد يراه في مخدعه مع أهله!

فيا أيها الأستاذ عبد الغني العطري، لك الشكر. لقد أحييت

---

* نشرت في جريدة «الشرق الأوسط» ضمن حلقات الذكريات بتاريخ ١٩٨٥/٢/٢٨.

في نفسي طرفاً من ماضيّ الذي حسبته مات حين أثنيت على أنور، ولا ترجو على الثناء جزاء ولا شكراً، إنما هو الوفاء، وما أقلَّ في الناس الأوفياءَ!

لقد صحبتُ في طريق الدراسة الطويل ألوفاً من الطلاب، رافقتهم ثم فارقتهم، مشينا معاً في طريق واحد ثم انشعبت بنا الطرق واشتبكت المسالك، فتفرق الشمل الجميع[1]، وانقضت صحبة المدرسة، أجمل صحبة وأنقاها وأثبتها على نُوَب الزمان وأبقاها:

أيا حبَّذا صحبةُ المكتبِ وأَحْبِبْ بأيامِهِ أَحْبِبِ

إنها الصداقة المبرَّأة من شوائب المطامع والمنافع، البعيدة عن المجاملة والمخادعة والنفاق. كنا جميعاً على مقاعد متشابهة، فرفعت الحياة ناساً منا فأعلت منازلهم، وخفضت ناساً غيرهم. ولقد تبدلت المقاييس واضطربت الموازين، فتقدم من كان متأخراً في دروسه وتأخر من كان متقدماً.

وكم مُنجِبٍ في تَلَقّي الدروس
تلقَّى الحياةَ فلم يُنْجِبِ
وصار إلى الفَاقَةِ اِبنُ الغِنى
ولاقى الغِنَى وَلَدُ المُترِبِ[1]
وقد ذهبَ المُمْتَلي صحّةً
وصَحَّ السقيمُ فلم يذهَبِ

---

(١) أي المجموع.

(٢) أترب المرء: كثر ماله (مجاهد).

وغاب الرِّفاقُ كـأنْ لـم يكن
بِهِـمْ لَكَ عهدٌ ولـم يصحب
إلـى أن فَـنُـوا ثُــلَّــةً ثُـلَّــةً
فَناءَ السَّراب على السَّبْسَبِ[1]

لم يبقَ معي على الطريق من هؤلاء الألوف إلا اثنان، أنور العطار رحمه الله وسعيد الأفغاني سلمه الله[2].

* * *

يقول الأستاذ عبد الغني العطري إن أنور العطار ظلم نفسه بعزلته وابتعاده عمّن في أيديهم مفاتيح الشهرة، يفتحون أبوابها لمن يرونه معهم يغشى مجالسهم ويغلقونها في وجه من ينأى عنهم. ولكن هل ترى -يا أيها الأستاذ العطري- أن هذا من صنع أنور؟ هل طبعي أنا مثلاً من صنعي؟ إن الله كما يخلق الرجل قصيراً أو طويلاً، ولا يد له في طوله وقِصَره، يجعله مقبلاً على المخالطة أو معرضاً عنها.

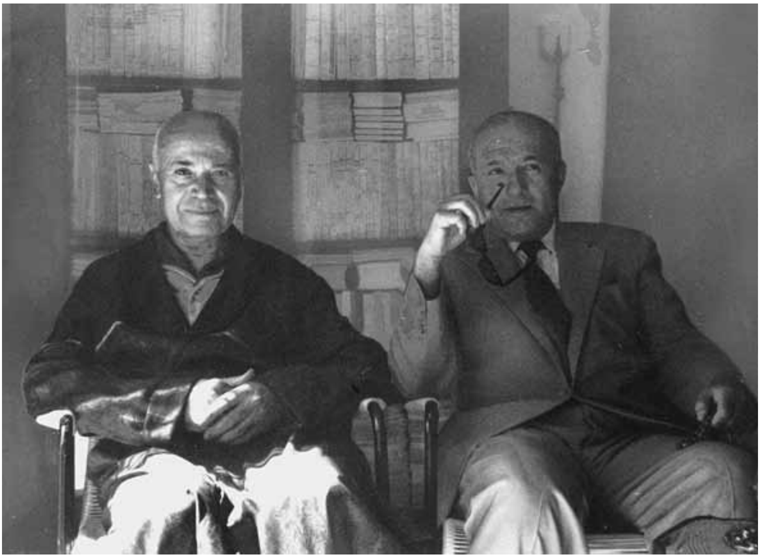
وإنْ كانت عزلة أنور ظلماً منه لنفسه فماذا تقول عني أنا؟ لقد كان هو الاجتماعيَّ بيننا، أنا وهو، وكنت أنا المتوحد المتفرد! كان ينكر عليّ عزلتي ويدفعني إلى غِشْيان مجالس الأدب التي

(١) السبسب: الصحراء (مجاهد).
(٢) الأفغاني هو عديل علي الطنطاوي، زوجته أخت جدتي، وهما حفيدتا محدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني، وقد سبق جدي إلى دار البقاء بسنتين فتوفي سنة ١٩٩٧، رحم الله الجميع (مجاهد).

يغشاها ولقاء أهله الذين يلقاهم، فكنت أستجيب له حيناً وأتأبَّى سائرَ الأحيان.

لقد كتبت مقدمة ديوان أنور «ظلال الأيام» من نحو أربعين سنة، سنة ١٩٤٨، ثم قطع الدهر ما بيني وبينه فابتعدنا قليلاً، كان هو في الشام وكنت في الرياض، فلما جاء الرياض كنت في مكة! ثم زرت دمشق إحدى زياراتي القليلة أيامَ إقامتي هنا في المملكة، فقابلته في بيته وأُخذت لنا صورة، ما كنت أدري يومئذ أنها المقابلة الأخيرة وأن تلك الصورة ستبقى ذكرى عزيزة لأخ فقدته.

ولما كان في مستشفى المواساة في مرض موته كنت أنا إلى جواره، ما يفصلني عنه إلا بضع غرف، وكنت مقيَّداً إلى سريري، أجرى لي الصديق الدكتور مظهر المهايني عملية ما



استطعت بعدَها أن أذهب إليه فأراه، ولكن زوجتي زارت زوجته فخبَّرَتني أنه صار جلداً على عظم وأنه ليس أنور الذي عرفناه، بل هو طيف له على صورته وعلى شكله.

ولما توفاه الله كنت قد خرجت من المستشفى، فمشيت في الجنازة وأنا والله في دنيا غير دنيا الناس، أصحبهم بجسدي وفكري ونفسي مع أنور في أيامنا الخوالي. ثم لما انتهى الدفن ووقف أهله للتعزية تركتهم وجست خلال المقابر، فقعدت بينها حيث لا يراني أحد، وما معي إلا قبور الموتى من حولي والماضي الذي حسبته مات في خيالي، وعلى يميني من بعيد قبر أبي وأمي وأمامي من بعيد الحفرة التي ثوى فيها جسد أنور. وكَرَّ شريط الذكريات فلم أعد أعرف أين أنا، لا أفكر في المكان الذي أقعد فيه ولا في الزمان الذي أعيش فيه، لأن صداقتنا وُلدت ذات يوم في هذه المقبرة.

* * *

هل تحبون أن أكشف لكم طرف الستار عن هذه القصة الطويلة التي عشتها معه وعاشها معي؟ لا بد -إذن- أن أعيد عليكم بعض ما كتبت في مقدمة الديوان. إنه «فِلْم» طويل، فِلْمٌ حافل بكل جميل ونبيل يمر بك في لحظات، وقد تصرَّمت في تأليفه وإخراجه خمسون سنة. فِلْمٌ كنا نحن أبطاله وكنا نحن ممثليه، فصرنا نرى فصوله تُعرَض علينا من بعيد.

الفصل الأول من هذا الفلم في «مكتب عنبر» في أعقاب الحرب العامة الأولى، سنة ١٩٢٣، عندما أبصرت أنور العطار

أول مرة. أبصرت فيه تلميذاً رقيق العود دقيق الملامح، أنيق المظهر من غير أن يبدو عليه أثر الغنى، شارد النظرات، يمر في ظلال الجدران خفيف الوطء حالم الخطى كأنه طيف يمر على خيال نائم، يعتزل التلاميذ فلا يثب وثبهم ولا يلعب لعبهم، فسألت عنه من يعرفه فقال: هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار.

وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين، ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي ولا يرضى لي ذلك مشايخي، لئلا تفسد -كما قالوا- مَلَكتي، ولم أسمع باسم شوقي، فما لي ولهذا الشاعر الذي اسمه أنور العطار؟ لذلك ما طلبت صحبته ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال، حتى كانت تلك المصادفة المُسعِدة التي كان لها في حياتي أنا وفي حياته هو أبلغ الأثر.

كانت هذه المصادفة على باب «المدرسة البادرائية» في ليلة من ليالي رمضان. كنت داخلاً إليها فوجدت أنور خارجاً منها، فوقف يحييني ووقفت أحييه، وكلمني وكلمته، واتصل الحديث ونحن قيام تحت مصباح الشارع حتى جاء ذكر شوقي، فأنشدني قصيدة له، قرأها بصوت عذب حالم حنون، فأحسست أنه كان يَمَسُّ بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني، فأحببت شوقي وأحببته!

وأنت تلقَى المرء أول مرة فتُحسّ بأنك تحبه أو أنك تكرهه، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً؛ سِرٌّ ركَّبَه الله في نفس الإنسان. وفهمت منه أنه يسكن في حارة تجاور الحارة التي أسكن فيها، فاصطحبنا، وذكرت موت والدي في تلك الأيام فحدثني عن



موت والده وهو صغير. وجعلنا طريقنا على مقبرة الدحداح، والطريق منها إلى حارتنا أقصر، وهنالك على قبر أبيه وعلى قبر أبي وُلدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونثراً وحباً وإخلاصاً، وكانت من أخلص الصداقات، وإن لم تَخْلُ من منغِّصات، شأنَ الناس في هذه الحياة.

هنالك، في مدينة الأموات، وُلدت هذه المودة التي لم يستطع أن يعدو عليها الموت، لأنها محصَّنَة منه ولأن الأدب أكسبها الخلود.

* * *

وكرت فصول «الفِلْم» تتوالى، فرأيتني قد غدوت صديقه وغدا صديقي، يبثّني شَكاته وأبثه شكاتي، ويجد في حياتي مَشَابِهَ من حياته، وأجد في حياته مَشابِهَ من حياتي، ألَّفَ بيننا اليُتم وأننا كنا مستورين على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى، حتى كأني هو وكأنه أنا.

وصار يُسمعني شعره، فأجد بواكير شاعر متمكن لا محاولات طالب مبتدئ، وأجد في هذه البواكير قوة في التعبير وجِدَّة في التفكير، وأبياتاً سائرة وصوراً رائعة، يرسلها تترى[1] يستقيها من مَعين ثابت لا ينضب. وكنت لطول ما نظرت في كتب الأدب وأَلِفْتُ من آثار البلغاء أستطيع -على صغري- أن أميز الذهب الخالص (من الكلام) من النحاس المطلي بماء الذهب منه.

واستقبلَت فيه العربيةُ شاعراً جديداً ملهماً، وفَتحَ له ولإخوانه الثلاثة: جميل سلطان وزكي المحاسني وعبد الكريم الكرمي (وهو أبو سلمى) وكلهم رفاقنا في المدرسة، فتح لهم أستاذُنا محمد كرد علي أبواب المَجْمَع[2]، فأقام لهم حفلة تكريمية أنشد فيها أنور العطار قصيدته «الشاعر» التي رويتها من قبل[3] والتي أشار إليها وأثنى عليها الأستاذ العطري. وكانت هذه الحفلة سنة ١٩٢٧، ونُشرت قصيدته في «الحديقة» التي كان

---

(١) أي متتابعة.

(٢) انظر ص ١٩٥ في هذا الكتاب (مجاهد).

(٣) يقصد في «الذكريات»، وقد ذكرها في موضعين، في الحلقة ٦٣ (٢/٣٣٨) والحلقة ٢٠٣ (٧/٢٦٥) (مجاهد).

يصدرها خالي محب الدين الخطيب في تلك السنة.

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً، ودموع صاغها البيان شعراً، ومقطوعات حلوة ما أدري ما الذي زَهَّدَ الشاعرَ فيها فلم يُثبت منها في ديوانه «ظلال الأيام» إلا مقطوعة «الحمامة»!

* * *

ورأيت فصول الفِلْم تتوالى، أُبصر فيها كل دقيق وجليل من حياتي وحياة أخي في الصغر وفي الكبر، ورفيقي في السفر وفي الحضر، وأنيسي في المسرّة وفي الكدر، أنور، رحمة الله على روح أنور.

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش -من الأدب- في دنيا الخيال إذ أعجزَتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه، لا نصدّق متى ينقضي النهار حتى نَفِرَّ إلى كتب الأدب، لنقرأ كل بارع من القول ونتدارس كل رائع من البيان.

ورأيتنا وقد فرَّقت الأيام بيننا قليلاً، فاشتغلت أنا بالصحافة وغامرت في السياسة، وآثَرَ أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين[1]. في هذه القرية النائمة في حِجر القَلَمون الأدنى ترى مواكب الأحلام بأجمل عين وأشدها سحراً وأكثرها فتوناً: عين منين، ومن لم يَرَ عين منين ما عرف سحر العيون ولا رأى جمال الينابيع ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون. فكنت

(١) إحدى القرى القريبة من دمشق.

أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جُمعت فيها النِّعَم، أسكر سكرين: سكر الجمال وسكر البيان، وأخضع فيها لسحرين: سحر الطبيعة وسحر الشعر، وأجمع فيها الماضي البهيّ ذكرى حلوة، والآتي الشهيّ أملاً مُرَجَّى في حاضر ضاع في نشوة اللذة، حتى لم يبقَ لنا منه حاضر نحسه وندركه. نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من قلوبنا، فصارت تحنو علينا وتولينا الحب والحنان. أيام سعدنا بها، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء ولكن بأحلام الشباب، رحمة الله على تلك الأيام.

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً في الجبل من دمشق، في المهاجرين، وصار هو معلماً في السفح، في الصالحية. فكنا نرتقب المساء ارتقاباً، فإذا حل انحدرتُ أنا من هنا وانحدر هو من هناك حتى نلتقي عند العفيف[1] نفرح بهذا اللقاء فرح حبيبين التقيا بعد طول فراق.

ورأيت أيام العراق زهرة أيامنا، أنا وأنور، وزينتها أيام بغداد. وقد حدثتكم عني وعنه وعن بغداد[1]، كانت أيام بغداد

(١) العفيف: حي من أحياء دمشق يقع في أدنى سفح جبل قاسيون.
(٢) في «الذكريات»، الحلقة الخامسة والتسعين وما بعدها، وفي أولها: "كنا أنا وأنور نتحدّث ساعات عن أيامنا في بغداد؛ أبدأ أنا الكلام فيكمل هو، ويتكلم هو فأُتمّ أنا. عشنا حياة واحدة، كنا دائماً معاً، فمَن رآني رآه ومن رآه رآني، وكانوا يقولون: «علي وأنور» و«أنور وعلي»، وربما خلطوا فقالوا: علي العطار وأنور الطنطاوي!" (مجاهد).

أجدى الأيام على أنور، ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور وفيها نظم أروع القصائد، وفيها ابتدأ في حياة الشاعر عهد جديد، هو عهد القومية وشعر الحماسة الوطنية، فازدادت بذلك هذه القيثارة وتراً جديداً خرجت منه أطيب النغمات.

* * *

ماذا أصف وعَمَّ أتكلم؟ وكيف أستطيع أن أجمع في كلماتٍ دنيا من العواطف وعالماً من الذكريات، وآلافاً مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان، لأنها بقيت وقد ذهب الزمان، وكانت أجمل من العمر لأنها هي جمال العمر؟

علي الطنطاوي وأنور العطار في بغداد (التعليق على الصورة بخط المؤلف)



رأيت هذا كله، وما هذا إلا تلخيص لحياة أنور، الشاعر الذي عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الملهمون، شعراء القلب والروح واللسان لا شعراء الألفاظ والبيان، الشاعر في قلبه المتفتح أبداً للجمال المترع بالخير الممتلئ بالحب، وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالجمال وينفث السحر الحلال.

وفي هذا التلخيص تحليل لشاعرية أنور. فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن صديق الأسى، قد وقف شعرَه على تقديس الألم العبقري[1]، وبكى الأحلامَ الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في الخريف، وخلّد مظاهر الأسى في النفس وفي الطبيعة... إذا أخذتم عليه ذلك فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غيره، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهي ولكنْ يطبعه الله بطابع البيئة والزمان، ويكوّن مشاعرَه في طفولته قبل أن يَشعر هو ليكوّن مشاعره كما يريد، ولو استطاع امرؤ أن يصغّر فمه أو يُجمّل أنفه لاستطاع أن يبدّل قلبه ويحوّل عواطفه.

لقد نشأ أنور مثلما نشأتُ أنا، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العامة الأولى قائمة، ودمشق في أشد أيامها، ومظاهر البؤس والألم في كل مكان. وُلد في السنة التي وُلدتُ أنا فيها، سنة ١٣٢٧هـ[2]، فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره وكان

---

(١) ولا شيء يبعث الأدب العبقري كالألم العبقري، كما قال ألفرِدْ دي موسّه في أبياته المشهورات.

(٢) وقد كبَّرَه الأستاذ مؤلف «الأعلام» وصَغَّرَه الأستاذ العطري، وميلاده الحق هو ما قلته.

الفرح فيه مثل الفجر الأول، لا يكاد يبدو بياضه في الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل، فهذا هو السبب.

ولا تلوموه إنْ تغزَّل فتكلم عن الرؤى والأحلام، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع، وأنه عمَّمَ وجَمْجَمَ[1] فلم يكشف ولم يصرّح، فإن البيئة التقية التي نشأ فيها أنور لم تكن ترى في الحب إلا ذنباً على صاحبه أن يستغفر الله منه! فإذا كان في شعراء اليوم من قَصَر شعره على مخدع الزوجية بغير زواج شرعي، وعلى ما يكون بين المرأة والرجل بغير إذن من الله، وكان شاعر الفسوق والعصيان[2]، فإن شعر أنور كشعر نصيب الشاعر، الذي سمّى قومَه «ليلى» ليتغزل بها.

إن أنور لم يتصل في حياته بفتاة على نحو ما يفعل الشباب، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر في هذا أو أن يحاوله. وأنا أقول ما أقول عن معرفة به، أعرف عنه أكثر مما يعرف عنه ولده الذي انبثق من صلبه.

* * *

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه في هذه الدائرة الضيقة وقصر عليها شعره، فلم يخرج إلى الفضاء الأرحب ولم يعرف في الدنيا الواسعة التي يعيش فيها أكثر الشعراء والناس، فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباي، في عالم ضيق كانت حدوده

---

(١) جمجم كلامَه: لم يبيّنه، وجمجم الأمرَ في صدره: أخفاه (مجاهد).
(٢) يأخذهما جزافاً، بلا وزن ولا «قبّان»!

تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى «مكتب عنبر»، وتلك الساقية الصغيرة التي كتبت عنها في مجلة «الرسالة» من اثنتين وخمسين سنة، فارجعوا إليها لتقرؤوها[1]، وذلك الطريق الموحل الذي كان ينتهي عنده العمران ويبدأ منه عالم الظلام والفزع واللصوص، والذي كان اسمه «قفا الدُّور» وكان نهاية البلد، فصار الآن شارع بغداد وصار في وسط البلد!

إن أنور يخشى أن يفارق عالمه الشعري الذي أحبه أو يتجاوز حدوده، كما كان يخشى من قبل (وأخشى أنا) أن نتجاوز قفا الدور أو نتخطى مكتب عنبر.

ولكن عالم أنور الشعري واسع على ضيقه، لأنه عالم القلب: إنْ لم يمتدَّ على وجه الأرض فإنه يمتد في العلاء صُعُداً حتى ليتصل شعره أحياناً بالدين، والإيمان ذروة السموّ في هذه الدنيا. وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر عليها، ولا يضيق عليه متر واحد إنْ سما حتى اتصل بالسماء.

عاش أنور في عهد جِدّ ويقظة وإقبال على العلم والعمل، وحفظ عشرات القصائد من جياد أشعار العرب، فجاء أسلوبه كالماء الصافي: فيه عذوبة ولين، وفيه -إنْ تدفق- قوة ومضاء. وكان في شعره أثر الجِدّ ومؤهلات الخلود، لا كأشعار أصحاب المناسبات وطالبي إعجاب العوام. وكان نَسجه كالحرير المتين المنقوش النقش البارع، لا كالنسيج الرخيص الذي يتمزق من الشد وتذهب ألوانه من رؤية الشمس.

---

(١) مقالة «ساقية في دمشق»، وهي في كتاب «دمشق» (مجاهد).

ما مشى أنور على الطريق الذي فتحه له مَن قبلَه من الشعراء، بل على طريق شَقَّه هو لمن بعده من الشعراء. كان إمامَ جماعة الشباب ولم يكن مؤتَمّاً تابعاً، ولولا نَفَسٌ من شعر شوقي في مثل قصيدته «ليل الحزين» (من بواكيره) وروح من الأدب الفرنسي في بعضها لقلت بأن أنور لم يقلّد في أسلوبه أحداً أبداً. وهل لشاعر مثلُ الذي لأنور في وصف الطبيعة، وفي وصف البلدان، وفي وصف الرؤى والأحلام، حتى يقلده أنور؟

* * *

لقد قلت يومئذ في مقدمة الديوان إنه ديوان الوفاء للعربية: نخل مفرداتها فاختار أطيبها، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها. وإنه ديوان الوفاء لأقطارها: جرى بَرَدَى منذ الأزل وقام لبنان، فهل قال شاعر في بردى مثل الذي قال أنور؟ هل نظم في لبنان مثلَ ما نظم؟ هل يعرف القارئ في الشعر الحديث قصيدة في وصف الطبيعة أعظمَ من «لبنان» التي اشتمل عليها هذا الديوان؟ أنا لا أبالغ ولا أغالي، وهذا الشعر الحديث بين أيدي الناس، فمَن عرف أعظم منها فليقل.

ولكن المعاصَرة حرمان، وأزهدُ الناس بالعالم أهله وجيرانه، وستمحص السنون هذا الشعر وهذا النثر الذي يُلقى بين أيدي الناس، فتميز الجوهر من الزجاج والذهب من النحاس. هنالك، بعد أن يذهب الرجال وتنقطع الصداقات والعداوات ولا ينفع إلا الأدب الذي يستحق الخلود، يومئذ تُعرف قيمة قصيدة «لبنان» وقصيدة «بردى». وهنالك بعد أن يعدو النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع وتشغل الناس، يحتل اسم أنور العطار

مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين.

هذا كلام قلته من أكثر من أربعين سنة، فإنْ لم يأتِ ذلك اليوم بعدُ فلا بد أنه آت.

كنا نعد الشعراء الكبار في دمشق أربعة، هم خير الدين الزركلي ومحمد البزم وخليل مردم بك وشفيق جبري. وكان أصحاب الصحف يبدلون المقاييس فيقدمون مَن يرونه هم أحق بالتقدير، فيعرف الناس اسمه ويقرؤون شعره ويهملون غيره، فلما هدأت تلك الضجة وانطفأت تلك القناديل وسطعت شمس الحقيقة احتل كلٌّ مكانَه الذي يستحقه. وكان شعراء الشباب من رفاقنا أربعة، هم الذين كرَّمَهم الأستاذ كرد علي، خليفة الشيخ طاهر الجزائري في تشجيع الناشئين والأخذ بأيدي المبتدئين.

وكان أنور العطار أشعرَهم. إنْ لم يكن أوسعهم أفقاً وأكثرهم تنويعاً فهو أجودهم ديباجة وأحلاهم أسلوباً، وأحسب أنه سيكون أبقاهم ذكراً. رحمه الله، والشكر للأستاذ عبد الغني العطري الذي دفعني إلى نشر هذا الكلام.

* * *

شخصية شامية نادرة

نشرت سنة ١٩٥٥

هذه أخبار رجل من بلدنا لا تعرفونه، وهي صفحة من التاريخ لم يعلم بها التاريخ، لأنه يمر بالقصور العوالي ولا يعرج على الخِصاص[1] والأكواخ، ويسلك الشوارع الفِساح ولا يجتاز الأزقة والدروب.

لم يكن صاحبنا شاعراً من أشهر الشعراء ولا بليغاً من أبلغ البلغاء ولا كان في الطبقة العالية من العلماء، ولكنّ له نوادرَ مشهورة وأخباراً معروفة قَلَّ من لا يعرفها في دمشق، إلا أنها في غير دمشق مجهولة، بل ربما كانت عجيبة منكرَة يكذِّب بها من يسمعها، لذلك جمعتها ودوّنتها في هذا الفصل القصير.

ولست بدعاً في تدوين هذه الأخبار، فلقد دوَّنَ أجدادنا أخبار كل صنف من الناس، حتى البخلاء والظرفاء والطفيليين وعقلاء المجانين، ولم يستنكف الأئمة الكبار -كالجاحظ وأبي الفرج وابن الجوزي- عن تدوين أمثال هذه الأخبار.

* * *

(١) الخصاص جمع خُصّ، وهو كوخٌ سقفُه من قصب (مجاهد).

هذا الرجل هو الشيخ بكري الشويكي، وقد توفي في دمشق من نحو عشرين سنة[1]. وهذه الأخبار واقعة كلها، رأيت بعيني بعضَها ورويت بعضها بالسند المتصل إلى من رآها، وما ذلك كله إلا طرف من أخباره، ومَن مَرَّ منكم بدمشق حدّثه أهلُها عن أمثالها ممّا لم أذكره فيها. أقصّها عليكم لأسلّيكم بها وأعجّبكم منها، وأدع لكم أن تعللوها وتبحثوا عن أسبابها، أو تكون منها مادة لعالم أو موضوع لطبيب.

كان الشيخ بكري رحمه الله شيخاً ربعة جسيماً مورَّد الوجه، جميل الطلعة مهيباً مستدير اللحية، له زي القضاة وسمت العلماء ووقار المشايخ، ولكن لم يكن صاحب علم مشهود. وكان أخفَّ خلق الله روحاً وأظرفهم حديثاً وأطرفهم نادرة، وكان ممثلاً بالفطرة لا نظير له؛ إذا حدّث بالحديث رواه بلسانه ووجهه ويديه وجسده، فهو يتضاحك ويتباكى ويرقق صوته ويخشّنه ويقلب سحنته على معاني الحديث، فتراه مقهقهاً من غير ضحك، باكياً من غير بكاء، وهو يتنقل من غضب إلى رضا ومن دهشة إلى جزع، كأنه على المسرح، ولكنه هو المؤلف والمخرج والممثل وهو المشهد والمسرح والستار... أعجوبة من الأعاجيب.

سمعته مرة يمثل وداع المحمل[2] (وكان له في الشام مشهد حافل) فقلَّد بفيه الموسيقى العسكرية بزَمْرها وطبلها وصنجاتها، وحكى صوت القيثارة والبوق والباعة بشتَّى لهجاتهم والأولاد

(١) توفي الشيخ بكري سنة ١٩٣٥ (مجاهد).

(٢) بدعة كانت في مصر والشام وأراح الله منها.



والنساء، فلو أغمضت عينيك وسمعت لخِلتَ أنك في المشهد أو في الفِلم المصوِّر له الناطق عنه.

ومن نوادره التي سمعتها ولست أستطيع إعادتها (ولا يستطيعها غيري) أنه دُعي مرة للامتحان -خلال حرب البلقان سنة ١٩١٢- ليثبت أنه من العلماء فينجو من الجندية، فدخل على لجنة من كبار علماء الأتراك، فرأوا هيئة وهيبة وطولاً وعرضاً، فهابوه وسألوه مستحيين، فاندفع يلقي عليهم كلاماً له أول وليس له آخر، يفيض فيضاناً ويجيء بنفَس واحد ولهجة فخمة وصوت مُدَوٍّ كأنه صوت رجل يتكلم في الحمام، كل كلمة منه آخذة بآخِر التي قبلها وأول التي بعدها، ملتصقات ليس بينهنّ موضع نَفَس واحد يطلع أو ينزل، والموضوع من جنس: وقال قوم بالمدلول الثاني لأنه المسند والمسند إليه والسنة الصحيحة عند الكوفيين

والبصريين، ورَدَّ عليه المُحَشّي بقول المعلم الأول، وهو منصوب عندهم على تقدير الفعل، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. اللهم انصر السلطان ابن السلطان عبد الحميد خان وثبت ملكه إلى آخر الدوران.

ثم صرخ: الفاتحة! فأقبل عليه أعضاء اللجنة العلماء الكبار يتبرّكون به ويلتمسون دعواته وأعفوه من الجندية!

* * *

وكانت له في أكله غرائب لا تصدَّق. وفي الناس أكولون يأكلون على القعدة ما يأكله مثلي في يومين، ولكن الشيخ كان بابَةً أخرى. كان أكله العادي أكلَ رجل من الناس، يُشبعه الرغيف والصحن الواحد، فإنْ أحرجوه أو أكرهوه أكل كلَّ ما يقدَّم إليه.

وله حوادث دُوِّنَت إحداها في محضر وشهد عليها خلائق يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب، ذلك أنه لما قدم الأمير فيصل بن الحسين دمشق حُدِّثَ حديثَه ووُصف له بكثرة الأكل وأنه إذا ضويق أكل خروفاً محشواً، فشكّ في ذلك وأحب أن يختبره، فأولم وليمة كبيرة في قصره في العفيف[1] دعا إليها المئات من أهل الشام، وأمر فأعِدَّت فيها الجفان (المناسف) على عادة العرب مترعة بالرز، وقد جُلِّلَت كل جفنة منها بخروف كامل. وتحلق القوم حِلَقاً وبقيت جفنة للشيخ وحده، فبرك أمامها كما يبرك الجمل، وانطلق يقبض القبضة بيده ويقذف بها في

(١) الذي صار دار المندوب الفرنسي ثم دار السفارة الفرنسية.

جوفه، فلا تلمس فمه حتى تكون قد بلغت معدته وامتدت يدُه إلى غيرها، والأمير ينظر إليه، حتى ملَّ فوكل به من يراقبه، والناس ينظرون. فلما أتى عليها كلها ومسحها تلفت ليأكل الحلوى ونظر إلى الخدم، فقلب وجهه وكشر في وجوههم وحوّل عينيه وأدار حنكه وأبرز أسنانه، فهربوا منه مرعوبين!

ومن أخباره أنه احتاج مرة إلى مُسهل، فأخذ زجاجة زيت الخروع وشرب بفمه من فمها مقدار نصف رطل شامي، وهو مقدار يقتل فيلاً! فأصابه المغص، فأكل رطلين من القُضامة، فمرض. وعاده جماعة من الأطباء ووصفوا له أدوية كُثراً من الحبوب والأشربة والمراهم والإبر، وانطرح في الفراش أياماً يأخذ الدواء ويتبع قول الأطباء. ثم جاءه نفر من أصحابه يدعونه إلى نزهة في «نبع الفيجة»، فتمنّع واعتذر، وأصرُّوا، فحار في الدواء ماذا يصنع به وكيف يحمله، فعمد إلى الشراب المُعَدِّ لأيام فشربه كله والحبوب فبلعها جميعاً والمراهم فلحسها والإبر فكسرها وامتص ما فيها، ثم مشى معهم، فركبته الحمى حتى لم يشكّوا في موته، ثم افتقدوه ففتشوا كل مكان فلم يجدوه، حتى إذا مضت ساعة خرج وجسمه ببرد الثلج ولون الورد وقد زالت عنه الحمى وفارقه المرض، وإذا هو قد دخل تحت الصخرة، فاستنقع هذه الساعةَ في ماء الينبوع الذي لا يطيق الإنسان غمسَ يديه فيه خمسَ دقائق من برده![(١)]

(١) هذه حقيقةٌ لا تزيُّدَ فيها ولا خيال. وأذكر أنّا ذهبنا مرة إلى بَسِّيمة وأنا شاب فَتِيّ قوي، وأنني غمست يدي في النهر المتدفق من العين، فما طقت أن أتركها أكثر من دقيقة أو اثنتين من شدة برد الماء (مجاهد).

وأكلَ مرة إحدى عشرة صبَّارة بشوكها، وأعجب منه أنه أمسك مرة -على مشهد من الناس- بسلك الكهرباء الذي يحمل خطر الموت ويقتل بلمسة واحدة، فلم يُصَب بأذى. ورأيته مرة بعيني شرب كأس الشاي، ثم جعل يكسر زجاجها بأسنانه قطعة قطعة ويأكلها، حتى إذا أتى على ربع الكأس أخذوها منه!

ومن نوادره أنه كان ينام فجأة، فيستغرق في النوم في لحظة واحدة ويغط غطيطاً عالياً. وكان خطيب مسجد، فكان إذا جلس بين الخطبتين نام وعلا شخيره، فكان يتخذ دبوساً يشك به نفسه لئلا ينام! وكان يضطجع ويُقيم الرجلين الجسيمين على بطنه، ثم يرقِّص بطنَه فيعلو بهما وينزل.

وأختم الفصل بهذه الطرفة: كانت للشيخ بكري غرفة في دار الحديث الأشرفية بدمشق، وكان ربما نام فيها، فأفاق مرة في ليلة من ليالي الصيف (وكانت المدرسة خالية) وقد وجب عليه الغسل، فنزع ثيابه في غرفته ووثب إلى البركة. فلم يكد ينزل فيها حتى خرج الشيخ بدر الدين الحسني ليتوضأ من البركة، وكان نائماً في المدرسة وهو لا يدري به، فغطس الشيخ بكري تحت الماء وحبس نفَسه، وأطال الشيخ بدر الدين الوضوء حتى ضاق نفَسُ الشيخ بكري ولم يدرِ ماذا يصنع، فما كان منه إلا أن صرخ: "يا هو"! ووثب من وسط الماء، ففزع الشيخ بدر الدين. وكيف لا يفزع من يتوضأ من بركة ساكنة في ليلة هادئة في مدرسة خالية، فينشَقُّ الماء ويخرج منه إنسان بحجم الفيل الصغير؟! وهرب إلى غرفته فبقي مريضاً فيها عدة أيام.

* * *

هذه كلها حقائق واقعة يعرفها الناس عندنا بالتواتر، فماذا يقول فيها العلماء والأطباء؟ ولولا خوف الإملال لرويت من قصصه الكثير، فلِمَ لا يفعل أدباء كل بلد كما فعل الأجداد، فيدوّنوا أمثال هذه الأخبار، فيكون فيها التسلية والأنس إن لم يكن فيها النفع والفائدة؟

* * *

مُحِبّ الدين الخطيب

كتبت سنة ١٩٥٤*

كنت أسمع -منذ بلغت السن التي يميز فيها الطفل ويفهم الكلام- أن لي في مصر خالاً، هو شقيق والدتي رحمها الله وأبوها بعد أبيها، وكنت ألمس حبَّها إياه وشوقَها إليه فيُعديني هذا الحب. ولما تعلمت الكتابة كتبت إليه أول رسالة، نسختها من كتاب «الإنشاء العصري» ولم أزد عليها شيئاً إلا الاسم، فقد كان موضعه خالياً فوضعت فيه اسم خالي، فتلقيت منه جواباً بخط لا أجد أحداً يكتب مثله، خط مفرد في بابه، فيه روح جديدة وفيه معنى كريم شعرت به وإن لم أفهمه. وقد كان لهذه الرسالة (التي مَرَّت عليها الآن أربعون سنة)[1] أكبر الأثر عندي.

ثم بدأت أفهم ما لا يفهمه الطفل الصغير، فعلمت أن خالي

* هذه المقالة مركَّبة من عدة قطع، أخذت أولها من مقدمة علي الطنطاوي لكتاب خاله محب الدين «إحياء سنن الإسلام وقواعده»، وقد كتبها سنة ١٩٥٤ (وأدرجها أخونا الشيخ مجد مكّي في الكتاب الذي جمع فيه مقدمات علي الطنطاوي) وأخذت سائرَها من مواضع متفرقة في «الذكريات» أشرت إليها في الحواشي (مجاهد).

(١) يوم كتابة هذه المقدمة سنة ١٩٥٤، أي أن علي الطنطاوي كتب الرسالة لخاله وهو ابن ستّ سنين (مجاهد).

كان مِن أقدم مَن نادى بالدعوة إلى العربية التي أراد الاتحاديون القضاء عليها، وأن نشاطه ظهر وهو في «مكتب عنبر»[1]، وأنه كان يجمع ما لم يجمعه قبلَه أحد: الثقافة الإسلامية التي كانت حكراً على المشايخ والثقافة الجديدة التي كان يستأثر بها الأفندية وطلاب المدارس، وأنه كان يتصل بالشيخ طاهر الجزائري (باعث النهضة الفكرية في الشام) ويلتقي عنده بالكبار من أصحاب الشيخ، ويحمل إليه الصغارَ من أصحابه ليلتقوا به، فكان واسطة العقد الذي يضم النابهين من الشيب والشبان.

ثم انتقل إلى إسطنبول للدراسة العالية فاتسعت دائرته وازداد نشاطه، حتى ضاق به الأتراك الاتحاديون الحاكمون وضاق بهم، فانتقل إلى أقصى البلاد العربية، إلى اليمن. ثم مشى إلى العراق، ثم سافر إلى مصر فأسس فيها مكتبة وداراً للنشر، ثم قدم دمشق مع الشريف فيصل سنة ١٩١٨، وهناك لقيت خالي الذي أحببته وتتبعت أخباره قبل أن ألقاه.

ثم كانت نكبة ميسلون ودخل الفرنسيون الشام، فحكموا عليه بالإعدام[2] ففرَّ على الإبل إلى مصر.

---

(١) قال علي الطنطاوي في هذا الموضع: "وقد بقي إلى أيامنا، وكان الثانوية الوحيدة في دمشق". قلت: بقي المكتب أهمَّ ثانوية في دمشق إلى بداية عهد الاستقلال، ثم صار مقراً لمعهد الفنون النسوية، وتحول عام ١٩٨١ إلى «قصر الثقافة العربية»، ولا أدري ما حاله الآن (مجاهد).

(٢) بسبب دوره في مقاومة الاحتلال الفرنسي. قال جدي في الحلقة =



= الثامنة من الذكريات (١/٩٢): "أصبحنا وإذا الأخبار تتوارد عن مسير الفرنسيين إلينا. واشتعلت البلد بنار الحماسة، وكان الشيخ كامل القصّاب يُذْكي هذه النار ويُضرمها، وتألّفت اللجان الشعبية لجمع المال، وكان المشرف على هذه اللجان خالي الأستاذ محب الدين الخطيب، وأنا أذكر غرفة كبيرة في داره (قرب البادرائية) مملوءة حتى سقفها بالبنادق تُوزَّع على المتطوعين" (مجاهد).

هنالك بدأ محب الدين أزهرَ مرحلة من مراحل حياته وأنفعها للناس وأرضاها لله، فقد وجد فيها صحافة تجانب الدين وأهله ووجد الأزهر منزوياً منطوياً على نفسه، فأنشأ جريدة «الفتح»، فكانت أول صوت ارتفع في مصر (بل في بلاد العرب كلها) يدعو إلى الإسلام، وكونت «الفتحُ» مدرسةً إسلامية كان تلاميذها مُنْبَثّين ما بين فاس ومراكش والهند وجاوة، وكانت مجلة عالية يكتب فيها أمثال كاتب الإسلام الأكبر الأمير شكيب أرسلان وأديب الإسلام الأكبر الرافعي.[١]

* * *

إن محبّ الدين الخطيب هو أبو الحركة الإسلامية الجديدة في مصر، كان قلمه أول قلم دعا إليها وكانت مطبعته (المطبعة السلفية) أولَ مطبعة وُقفت عليها، وكانت مجلته «الفتح» أول مجلة إسلامية في مصر[٢]. وهو أول (أو من أوائل) من دعا إلى إحياء لغة العرب وتاريخها وأمجادها، رداً لفتنة «التتريك» التي جاء بها الاتحاديون[٣]، كما أنه كان أول (أو من أوائل) من دعا

---

(١) من أول المقالة إلى هذا الموضع هو الجزء الذي أخذته من مقدمة علي الطنطاوي لكتاب خاله، وما يأتي بعده أخذته من الذكريات على ما هو موضح في الحواشي (مجاهد).

(٢) الذكريات (٨/ ٦٠).

(٣) قال علي الطنطاوي في الحلقة ١٣٧ من الذكريات (٥/ ١٥١): لقد طالما قلت إنني أعرف أن عند خالي محبّ الدين الخطيب الوثائق الأصلية للحركة العربية التي قامت رداً على ما ذهب إليه غُلاة الأتراك من الاتحاديين وغيرهم من قبلهم، قبل أن تصير إلى هذه القومية=



إلى تنظيم العمل الإسلامي في مصر[1].

ولما ذهبت إلى مصر سنة ١٩٢٨ كانت «المطبعة السلفية» في شارع الاستئناف في باب الخلق، وكان مجلسها يجمع جِلّةً من علماء مصر وأدبائها ومن علماء الأقطار الإسلامية الذين يفدون عليها، منهم أحمد تيمور باشا والسيد الخضر حسين والأستاذ

= المعروفة. عنده رسائل رجالها، عنده ضبوط جلساتها، وكل ذلك بخطوط أصحابها وتوقيعاتهم. ويا ليت إحدى الجامعات أو الهيئات التي تهتم بتدوين تاريخ العرب الحديث تشتريها أو تأخذ صوراً عنها لئلاّ يضيع شيء منها (مجاهد).

(١) الذكريات (٣٤٦/٢).

أحمد إبراهيم بك والشيخ عبد الوهاب النجّار والأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وإخواننا الذين كانوا يومئذ شباباً فصاروا شيوخ الأدب وأعلام العرب: محمود محمد شاكر وعبد السلام هارون وعبد المنعم خلاّف والدكتور الخضيري والأستاذ الغمراوي والشاعر أبو شادي، وكثير من أمثالهم.(١)

* * *

شهدت في تلك السفرة بداية الدعوة الإسلامية المنظَّمة، وكانت بدايتها بإنشاء جمعية الشبان المسلمين، وكان الذي فكّر بإنشائها هو محب الدين الخطيب، سمعت ذلك منه، وخلاصته أنه في سنة ١٩٢٧ كان أصحاب دور النشر (ومنهم محب الدين صاحب المطبعة السلفية) يجتمعون لتكوين رابطة بينهم أو نقابة لهم في دار الشبان المسيحية، وهي إحدى المؤسسات التبشيرية (أي التنصيرية التكفيرية). فلما رآها فكّر أن يكون للشبان المسلمين جمعية مثلها، فعرض الفكرة على صديقَيه الأستاذين الجليلَين: السيد محمد الخضر حسين والوجيه العالِم أحمد تيمور باشا، وعلى مجموعة من الشبان(٢) منهم الأساتذة عبد السلام هارون وعبد المنعم خلّاف ومحمود شاكر، وكل هؤلاء من أصدقائي. وكان كل واحد منهم يدعو أصدقاءه فيَقبلون بها ويُقبلون على الانضمام إلى أهلها.

وكان اجتماعهم وكان لقاؤهم بالشيوخ الثلاثة، الخضر

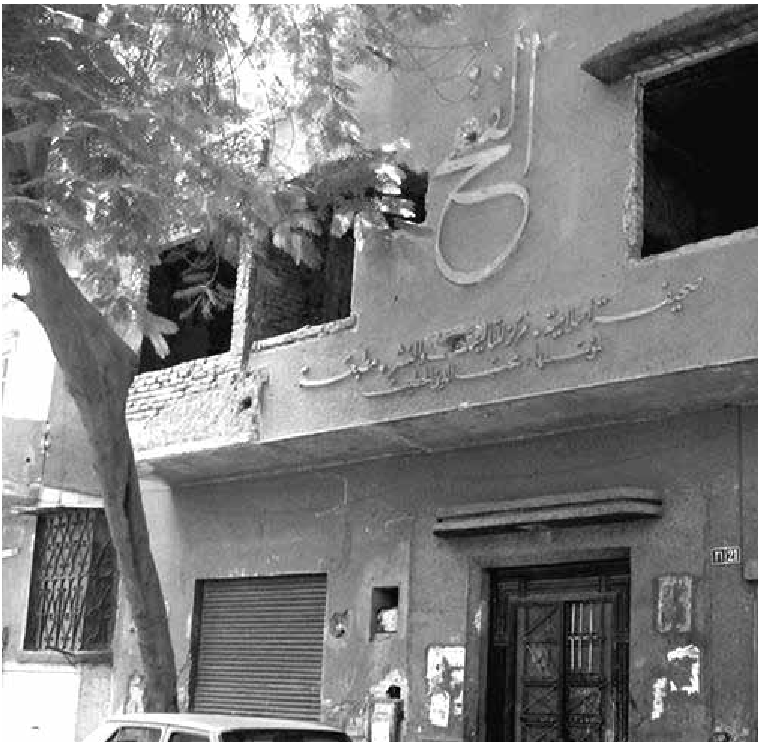
(١) الذكريات (١٠٨/٧).
(٢) الشبان يومئذٍ، وهم جميعاً في مثل سني.

وتيمور ومحب الدين، في المطبعة السلفية في شارع الاستئناف، وهو شارع صغير يتصل بميدان باب الخلق. حتى إذا قويت الفكرة وانتشرت وكَثُرَ أتباعها ولم يعُد يُخشى عليها عُقد أول اجتماع عامّ لإقرار قانون الجمعية وانتخاب مجلسها الإداري في دار سينما كوزمو، ودفع أجرة الدار شوقي أمير الشعراء من ماله، وأُعلِنَ عن الجمعية وانتُخِب لرياستها عبد الحميد سعيد الذي آتاه الله بسطة في الجسم وسعة من المال ووجاهة في الناس، وكان عضواً دائماً في مجلس النواب، والسيد محبّ الدين الخطيب أميناً عاماً، وأحمد تيمور باشا أميناً للصندوق. واستؤجرت للجمعية دار كبيرة في شارع قصر العيني بجانب مجلس النوّاب، لمّا وصلتُ مصر كانت فيها.[١]

❊ ❊ ❊

ومحب الدين هو منشئ الفتح والزهراء. فأما «الفتح» فكانت أوعى مجلة إسلامية، تُوجِّهُ حتى في عناوين الأخبار العامّة التي تنقلها عن وكالات الأخبار، فتُحوِّلُ بالعنوان مغزى الخبر عمّا تريده الوكالة إلى ما يوافق خطة «الفتح» ويريده الإسلام. ولمّا وصلت مصر كان قد مر على ظهورها سنتان، ولكنها استطاعت أن تكون -بتوفيق الله- مجلة العالَم الإسلامي. وكانت أسبوعية، ولكنها عالية الصوت مسموعة الكلمة، معروفة في الأوساط الإسلامية في بلاد الإسلام جميعاً، لها من التأثير فيها أكثر ممّا لجرائد ذلك البلد. وكانت تُعنى بأمور المسلمين كلها على

(١) الذكريات (١/٣٣٦).



السواء، هي أثارت الدنيا على فرنسا يوم الظهير البربري، وهي أقامت الناس على إيطاليا لما صنعته في طرابلس، وكانت تجري فيها أقوى الأقلام الإسلامية كقلم شكيب أرسلان والرافعي ومحب الدين.

وأمّا «الزهراء»، مجلّة الأدب الإسلامي، فكانت لمّا جئت مصر في دور النَّزْع، صدر منها أربع مجلّدات[1]. فلما دخلَت سنتها الخامسة نضب موردها وقلّ مالها وأفلسَت، ولكنها كانت

---

(١) جمع مجلّدة، ولو أردت المجلّد لقلت أربعة.

تجاهد جهاد المحتضَر لتدفع عن نفسها الموت. وقد صدر منها بعد وصولي عددان فقط، كتبت أنا أكثر ما نُشر فيهما، ولا أقول أن الذي كتبتُه كان من الأدب الجيّد، ولكن أقول أنه كان فوق محاولات المبتدئين ودون كتابة المطبوعين المجوِّدين.[1]

* * *

هذا هو محب الدين الخطيب، العالم المطّلع المحقق المدقق صاحب القلم المترسّل البليغ، وقد كتب آلاف الصفحات في «المنار» و«الفتح» و«الأزهر» و«الزهراء» وغيرها من الصحف والمجلات، وحقق عشرات من الكتب وعلق عليها أنفع التعليقات. أما استقامته وعمله بعلمه وقناعته وثباته على مبدئه وشجاعته في الحق فقد سبق فيها كل سابق. جزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.[2]

* * *

ملحق[3]

توفي الأستاذ محب الدين في مصر سنة ١٩٦٩، وقد عثرت على رسالة أرسلها لجدّي سنة ١٩٥٤، يُفهَم منها أنه دعاه للعودة

---

(١) الذكريات (١/٣٦٨).

(٢) الذكريات (١/٣٣٦).

(٣) أضفت هذه القطعة إلى المقالة للمناسبة، ولأنها قطعة نادرة فيها تاريخ وفيها حكمة وعبرة، فضَنَنْت بها أن تبقى حبيسة الأدراج حتى تُميتها الأيام ولا ينتفع بها الناس (مجاهد).

إلى دمشق والاستقرار فيها، فكتب إليه جواباً وجَّهَه إلى "ابن الأخت الحبيب فخر الكتّاب ونابغة الشام الأستاذ علي الطنطاوي" قال فيه:

كنت أتمنى أن أعود إلى دمشق فأكمل فيها حياتي وأنجز ما أستطيع إنجازه وتحقيقه من أمانِيّ، ولكن أين السبيل إلى ذلك وقد رسخَتْ في البقعة التي أكتب لك منها جذورُ علائقي، وأقل ما فيها مكتبتي، وهي أكثر من ثلاثة عشر ألف كتاب، ولا يطيب لي العيش إلا بقربها؟

أنا لا أستطيع أن أكيّف حياتي وأوجّهها كما أشتهي، بل إن الله هو الذي يسيّرني، منذ توفي والدي يوم عاشوراء سنة ١٣١٥ إلى الآن. ولو أن في الدنيا كلها شخصاً واحداً كان يستطيع أن يرسم طريقه في الحياة كما يريد لكان خالك ذلك الشخص، لأني لم أتقيد بقيد سوى المصلحة العامة، ولو خُيِّل إليّ أن الانتقال إلى الربع الخالي للبحث عن مدينة شداد بن عاد والعيش فيها هو أنفع لَمَا ترددت أن أمضي إلى الربع الخالي، لا يمنعني عنه شيء.

ومع أني كنت أحمل هذه القناعة وأنا في الدراسة الثانوية والعليا فإن الله علّمني -بدروس تتعلق بشخصي- أن الأمر كله بيده لا بيدي وأنه هو الموجِّه لي، فرأيتني في اليمن حيث لم أكن أحتسب، ثم أعلن الدستور العثماني وطلبني إخواني من دمشق فعدت إليها، وكنت أظنني سأبقى فيها إلى هذا اليوم فلم يرد الله، وأراد لي أن أعيش في مصر من شعبان ١٣٢٧ (١٩٠٩) وهيأ لي الأسباب ذلك.

وإني منذ وُلدت إلى هذه الساعة لم أتولَّ عملاً بطلب مني، بل أُطلَب له في ظروفٍ أنا نفسي أعجب لها. فلا عملي في اليمن كان بطلب مني، ولا تعينت في حكومة فيصل بدمشق بطلب مني، ولا عملت في «المؤيد» بطلب مني، ولا التحقت بتحرير جريدة «الأهرام» بطلب مني، ولا أنا أعمل الآن في تحرير مجلة «الأزهر» بطلب مني... إن الله هو الذي يوجهني، فيقيم لي السدود في طرق كنت أرتاح إليها لو تيسَّرَت سُبُلها، ويدفعني إلى طرق أخرى لم تكن تخطر ببالي.

والآن أنا في هذا الوضع الذي اختاره الله لي. أفبعد كل هذه التجارب أحاول أن أغيّر مجرى حياتي؟ وأي حياة؟ لو كنت في أعقاب «ميسلون» والشبابُ غض والأمل في البقية واسع (بحسب المعتاد في الأعمار) أما الآن وأنا من مواليد ١٣٠٣ وقد جاوزت السبعين أسعى للبدء بحياة جديدة؟!

إن العمر الباقي لي قصير مهما طال، والذين كنت أعرفهم ويعرفونني في دمشق أكثرهم ماتوا، ومن بقي منهم فإنه يعيش مع زمنه الحاضر لا مع زمننا الماضي. فدعني -يا ابن أختي- في عزلتي وسكينتي. أرجو أن يحفظكم الله ويحفّكم بالسعادة والعافية والرضا، والسلام عليكم ورحمة الله.

محبّ الدين الخطيب
القاهرة ٣ محرم ١٣٧٤

محمد كُرْد علي

حديث أذيع سنة ١٩٥٥*

لماذا أذهب بعيداً فأوغل دائماً في العصور الخوالي وأحدّثكم أحاديث السابقين وأدع أعلام هذا العصر؟ ولِمَ لا أحدّثكم عن رجل تُوفّي بالأمس القريب[1]، وكان أعظمَ الشاميين أثراً في هذه النهضة الشامية، وكان له الفضل على كل من كتب في الشام بقلم وعلى كل من أنشأ جريدة أو مجلة، لأنه هو الذي علّمنا جميعاً هذا الأسلوب البَيِّن في الترسّل الخالي من أثر التكلف والصناعة والزخرف اللفظي، وشَقَّ للناس طريق الصحافة وكان رائدها في بلاد الشام؟

هو محمد كرد علي عليه رحمة الله، الذي نال في حياته

---

* وجدت قطعة من هذا الحديث بين أوراق جدي ولم أجد بقيّته (على طول البحث) فاجتهدت في ترميميه وتتميمه اعتماداً على بعض ما كتبه عنه في مواضع متفرقة من الذكريات (١/١٤١)، (١/٣٩١)، (١/٣٩٦)، (٢/٣٧٩)، وما كتبه عنه في مقالة «التشجيع» المنشورة في كتاب «فِكَر ومباحث» (مجاهد).

(١) ولد الأستاذ كرد علي في دمشق سنة ١٨٧٦ وتوفي فيها سنة ١٩٥٣ (مجاهد).

من الشهرة والذكر وذيوع الاسم ما لم يَنَلْه أحد، والذي ترك من الآثار المكتوبة في الكتب والمحفوظة في الصدور والمأثورة على الألسنة والماثلة في الحياة الأدبية في الشام ما لم يترك مثله أحد.

ولن أعيد عليكم ترجمته التي كتبها بقلمه في أول «الخطط»[١] ولا ما عرض له من تاريخ حياته في مذكراته، ولا ما كتبه عنه صديقي وصديقه سامي الدهان في مجلة «المَجْمَع». وما رجعت إلى شيء من ذلك كله عند كتابة هذا الحديث ولا حاولت تذكّره، لأن طريقتي في كل ما أكتبه عن الرجال الذين قابلتهم أن أكتب ما أعرفه عنهم، فيكون بحثاً شخصياً مَبنياً على ما رأيت أو سمعت منهم أو نقله لي أصدقاؤهم عنهم من أخبار.

* * *

كان العلم في الشام في القرن الماضي مقصوراً على بيوت معروفة لا يتعدَّاها، وكان لها كل معاني الامتياز و«الاحتكار العلمي»، فإذا سُمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت وقدَّروا فيه النبوغ وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة بذلوا الجهد في صرفه عن العلم والعدول به إلى التجارة. أوَليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار وهم لا يزاحمون أبناء التجار على حوانيتهم؟ أوَلا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف

(١) «خطط الشام»، طُبع في ستة مجلدات كبار. وهو كتاب جليل نادر في بابه، استخرج مؤلفُه مادتَه من نحو سبعمئة كتاب بين مطبوع ومخطوط (مجاهد).



والفقه والمنطق الذي يمنُّ به عليهم هؤلاء العلماء؟

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأَنِسوا منه الميل إلى العلم وعرفوا فيه الذكاء المتوقِّد والعقل الراجح خافوا منه، فذهبوا يقنعون أباه (وكان أبوه تاجراً) ليسلك به سبيل التجارة ويتنكّب به طريق العلم، وجعلوا يكلِّمونه ويرسلون إليه الرسل ويكتبون إليه الكتب ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً فثبّت الوالد، فكان من هذا الولد المبارك ابن عابدين صاحب «الحاشية»، أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي.

وكذلك أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلّامة محمد بن كرد علي

عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقَين من عائلة علمية معروفة (وقد ماتا، فلست أسمّيهما، على الرغم من أنهما قطعا عن العلم أكثرَ من أربعين طالباً) فما زال بأبيه (ولم يكن أبوه من أهل العلم) ينصحانه أن يقطعه عن العلم ويعلّمه مهنة يتكسَّب منها، فما في العلم نفع ولا منه فائدة! ويُلحَّان عليه ويلازمانه، حتى ضجر فصرفهما، فكان من ولده هذا الأستاذ كرد علي أبو النهضة الفكرية في الشام.

* * *

محمد كرد علي هو أستاذنا وأستاذ كل من خطّ في الشام بقلم في مطلع هذا القرن الميلادي، ذلك أنه أول من رسم لهم الطريق وأول من عَبَّدَ لهم الجادّة. وكان مؤرّخاً باحثاً (وإن لم يكن قد بلغ الغاية في التحقيق وتمحيص النصوص)، وكان كاتباً اجتماعياً، وكان له أسلوب في الترسّل، قلت في وصفه -لمّا قرّظت كتابه «أمراء البيان»- إني كنت أتخطى عبارة عبد الحميد الكاتب لأستمتع بعبارة محمد كرد علي!

ولا تستكثروا هذا القول، فإن عبد الحميد في قِدَم عهده ورسوخ قَدَمه وسَبق زمانه إمام الكتّاب، لا أماري في ذلك، ولكن إذا تُرك فضل السَّبْق ومرجّح الزمن ووُضِعَت العبارتان في الميزان رجحت عبارة الكاتب اللاحق على الإمام السابق. وهذا شيء لا يثبت بالدليل المنطقي ولا يحقّق بالتجرِبة المخبرية، ولكن يُدرَك بالذوق، فمن كان من أهل النقد وكان يتذوّق طعوم الأساليب ويستطيع تصنيف الكلام شهد لما قلت بأنه الحقّ.

وإذا كان البارودي في مصر أولَ من أخرج الناس من

متاهات الأسلوب اللفظي في الشعر إلى جادة البيان الأصيل، فإن الذي فعل فعله في النثر في الشام هو محمد كرد علي. وكلاهما نال ما نال بالمطالعة والنظر في آثار البلغاء، ما درس الباروديُّ العَرُوض ولا أتقن علوم الآلة (الصرف والنحو البلاغة) وما كان كرد عليّ متمكناً منها، ولمّا درّسها في الجامعة ظهر ضعفه فيها. وكان كلاهما -مع ذلك- رائداً، وكان أستاذاً، وكان معلم أجيال.

وقد لبث كرد علي يصنّف ويكتب أكثر من خمس وستين سنة، يعمل وحده كأنه موظف في مكتب! وعدته مرة أن آتيه مبكراً لعمل يريد أن أعمل معه فيه، مراجَعةً أو مقابَلةً على بعض الكتب. فبكّرت ما استطعت، فقابلته في الترام، أنا ذاهب إليه وهو نازل من بيته، قد أنهى حصة الصباح من عمله!

وكان في تشجيعه للأدباء آية قائمة ومثلاً سائراً، وكان يمزح معي فيقول: أنت خطير لأن معك قلماً ماضياً، فإذا أخطأت حملت الناس على خطئك! ومن تشجيعه أنه أقام في «المَجْمَع» سنة ١٩٢٥ حفلة التكريم المشهورة لشعراء الشباب الأربعة، أنور العطار وجميل سلطان وزكي المحاسني وعبد الكريم الكرمي (أبي سلمى)، وكانوا تلاميذ في الصف الثامن في «مكتب عنبر». أقام لهم حفلاً في المجمع العلمي بحضور أساتذتنا سليم الجندي وعبد القادر المبارك والداودي والقوّاس والبزم، وألقى الطلاب الأربعة قصائد جِياداً لو نَشَرَ مثلَها الآن مَن يُعَدّ من كبار الشعراء لاستُحسنَت منه.

* * *

وبعد، فإن الأستاذ كرد علي هو مؤسس «المَجْمَع العلمي العربي» في دمشق، أقدم المجامع العربية، أسّسه سنة ١٩٢٠، ثم بُدِّل اسمه أيام الوحدة مع مصر فسُمِّي «مجمع اللغة العربية»، وهو أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سوريا (سابقاً) ومفخرتها، وهو صاحب التصانيف النفيسة: «خطط الشام» و«غرائب الغرب» و«القديم والحديث» و«المحاضرات» و«غابر الأندلس وحاضرها» و«الإدارة الإسلامية» و«الإسلام والحضارة العربية». وهو مؤسس «المقتبس»، ومن آثاره أولئك الشعراء والكتَّاب من الشباب الذين عطف عليهم بالتشجيع والتكريم.

أين هؤلاء الطلاب الشعراء؟ وأين مَن شجّعهم؟ وأين مَن حضر الاحتفال بهم؟ لقد ذهبوا جميعاً. ذهب أساتذتنا كلهم وذهب الكثير من إخواننا الذي كانوا يقرؤون عليهم، رحمهم الله ورحمنا معهم وختم لنا بالحسنى.

* * *

ما أعرفه عن فارس الخوري

نشرت سنة ١٩٤٧*

أقيمت في رَدْهة «المَجمع العلمي العربي» في دمشق قبل عشرين سنة (أي سنة ١٩٢٧) حفلة لتكريم حافظ إبراهيم لمّا زار دمشق حضرتُها أنا وأخي سعيد الأفغاني. وكنا يومئذ في رَيِّق الشباب على أبواب العشرين من العمر، نقصد هذه الحفلات لننقد الخطباء ونبتغي لهم المعايب، فمَن لم نَعِبْ فكرته عِبْنا أسلوبه ومن لم ننتقص إنشاءه انتقصنا إلقاءه!

وخطب كثيرون في الحفلة، وألقى فيها شاعر الشام شفيق جبري إحدى روائع قصائده، وكنا ننتظر من حافظ قصيدة مثل شاميته الأولى، فكأنه أُرْتِجَ عليه فاكتفى ببيتيه المشهورَين:

شكرتُ جميلَ صُنعِكمُ بدمعي ... ودمعُ العينِ مقياسُ الشعورِ
لأوّلِ مرّةٍ قدْ ذاقَ جَفني ... -على ما ذاقهُ- طعمَ السرورِ

ولم يسلم من ألسنتنا!

* هذا هو النص الكامل للمقالة، وقد نشر جدي رحمه الله في الجزء الثاني من ذكرياته (٢/٢٠٣ وما بعدها) قطعة طويلة منها، قال في أولها: =



= كنت سنة ١٩٤٧ أقيم في مصر وأشرفُ على تحرير «الرسالة»، وكان فارس الخوري مندوبَ سوريا في مجلس الأمن، وكانت إليه رئاسة المجلس حين عُرضت قضية مصر عليه، وخطب مندوبها النقراشي باشا مدافعاً عن حقها، وخطب فارس الخوري، فكانت خطبته "نقطة التحول في مجرى الرأي في مجلس الأمن" كما كتب الأستاذ الصاوي في «أخبار اليوم».
وحين كانت الجرائد تتحدث في مصر عن مجلس الأمن والنقراشي وعن فارس الخوري على التخصيص (الذي كان الناس يومئذٍ يزدحمون على الرادّ في المقاهي والشوارع ليستمعوا إلى خطبته وهو يلقيها بالإنكليزية والمذيع ينقلها إلى العربية) لم يكن يُعرَف عنه في مصر إلا القليل، فكتبت في العدد ٧٤٠ من الرسالة (الصادر يوم ١٩٤٧/٩/٨) مقالة عنوانها: «ما أعرفه عن فارس الخوري»، تناقلَتها جرائد كثيرة وعلّق عليها كتّاب كبار منهم الأستاذ العقاد في العدد ٧٤١ من الرسالة بعنوان «فارس الخوري أو عبقرية البيان» (مجاهد).

وكان فيمن خطب رجل قصير القامة عظيم الهامة أبيض الشعر، ألقى قصيدة كان مطلعها:

ليالي التّصابي قد جفاني حُبورُها
ولُمّتيَ السوداءُ أشرقَ نورُها
ومَن لي بإنكارِ الحقيقةِ بعدَما
تجلّى على وجهي وَفَودي نذيرُها
تذكّرتُ أيامَ السرورِ التي مضَتْ
فيا ليتَ شِعري هل يعودُ سرورُها؟
أسِفْتُ على عهدِ الشبابِ ولم تعُدْ
تُثيرُ فؤادي مقلةٌ، وفتورُها
وأدنَتنيَ الأيامُ من هُوّةِ الوَنى
فأصبحَ منّي قابَ قوسٍ شَفيرُها
وكادَت صُروفُ الدهرِ تطوي صحائفي
وهل بعدَ هذا الطيِّ يُرجَى نُشورُها

ومنها:

أَحافظُ حيّيتَ الشآمَ تحيّةً
يفوقُ عبيرَ الوردِ منها عبيرُها
وألبستَها ثوباً منَ الحمدِ دونَهُ
حدائقُها في زَهوِها وزهورُها
وطوّقتَها بالحبِّ والعطفِ رِبقةً
قلادةَ أسرٍ لا يُفادى أسيرُها

وهي قصيدة طويلة، ألقاها بصوت كان قوياً على انخفاض، مدويّاً على وضوح، كأن له عشرة أصداء تتكرر معه، فتحسّ به يأخذك من أطرافك ويأتي عليك من الأقطار الأربعة، فتسمعه بأذنيك وقلبك وجوارحك، بل تكاد يدك تلمس فيه شيئاً ضخماً! على صحّة في المخارج، وضبط في الأداء، وقوة في النبرات، وثبات في المحطّات. هذا الصوت الذي له هذا الدويّ كله يخرج من فم صاحبه باسترسال واسترخاء، لا يفتح له شدقه ولا يحرك لسانه ولا يمُدّ نَفَسَه ولا يُجهد نَفْسَه، فأنسانا -بذلك الصوت والإلقاء- أن ننتقد القصيدة أو نجد لها العيوب، وملك بها قلوبنا وقلوب الحاضرين، فصفّقنا حتى احمرّت منّا الأكفّ[١].

وقلت لسعيد: من هذا؟ قال: هذا فارس الخوري.

وكنت قد سمعت باسم فارس الخوري قبل ذلك بزمان، سمعت به مذ كنت تلميذاً في السنين الأواخر من المدرسة الابتدائية أيام الملك فيصل، سنة ١٩١٩، وكنا نعرفه علَماً من أعلام السياسة وركناً في وزارة المالية، ولكني لم أره قبل تلك الحفلة.

* * *

(١) في «الذكريات» (٢٠٩/٢): "علّق الأستاذ العقاد على مقالتي فقال: من أصغى إلى هذا الخطيب المطبوع وهو يتكلّم عَلِمَ أنّ أداة البيان قد تَمّت له لفظاً وحساً كما تَمّت له بداهة ومعنى، فصوته من تلك الأصوات الغنيّة (كما يقولون باللغات الأوربية)، لا تحسّ فيه جهداً، ولا حاجة إلى جهد، لأنه يملأ عليك جوانب السمع، كأن له عشرة أصداء تتكرر معه كما قال الأستاذ الطنطاوي في وصفه" (مجاهد).



ومرّت الأيام، وخرجت من الثانوية، واشتغلت بالسياسة (كما كان يشتغل لِداتي يومئذ) وصرت سنة ١٩٣١ رئيس اللجنة العليا لطلبة سوريا ومحرّراً في الجريدة الوطنية الكبرى (الأيام)، وكانت تأتمر بأمر «الكتلة الوطنية» التي كان لها -في تلك الأيام- قيادة الأمة، وكانت تحمل لواء الجهاد والعمل على الاستقلال، فكنت أتصل بكبار رجالها وأحضر بعض مجالسهم، وكانوا يجتمعون في بهو في دار «الأيام».

هنالك عرفت فارس الخوري من قرب، فرأيت فيه رجلاً

وديعاً ظريفاً حليماً واسع الصدر، ولكنه كان -مع هذا كله- هائلاً مخيفاً؛ تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاة، لا يهزّه شيء ولا يُغضبه ولا يخرج به إلى الحدّة والهياج. يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق وأعصاب هادئة، فيسدّ على خصمه المسالك ويُقيم السدود، من المنطق المحكم والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة والعلم الفيّاض والأمثال والحِكَم والشواهد، ويرقب اللحظة المناسبة، حتى إذا وجدها ضرب الضربة الماحقة وهو ضاحك، ثم مدّ يده يصافح الخصم الذي سقط. لا يرفع صوته ولا يثور ولا يعبس ولا يغضب، ولكنه (أيضاً) لا يفرّ ولا يُغلَب.

وما رأيته -على طول ما صحبته- يناقش أحداً إلّا شبَّهته بأستاذ يناقش تلميذاً مدلَّلاً غبياً، فأنت تلمس في لهجته ولحظته وكلمته وبسمته صبره عليه وتملكه منه وإشفاقه عليه!

ثم كنت تلميذه في السنة الأخيرة من كلية الحقوق (سنة ١٩٣٢)، وكان يدرّس علم المالية وأصول المحاكمات المدنية، يلقي درسه إلقاء لا تدري: أأنت تعجب وتطرب لفصاحة لهجته أم لغزارة علمه؟ إلقاءً غيرَ محتفَل به ولا متجمَّع له. وكانت له عادة (لازمة) هي أن يأخذ قلماً رصاصياً طويلاً فيقيمه على قاعدته، وهو يسقط وهو يداريه ويعاوده حتى يستقرّ ولا يكاد، ولا يبصر ذلك ولا يُلقي باله إليه، كأنه يكره أن تبقى يده بلا عمل فهو يشغلها به، أو كأن هذا الدرس لا يستحقّ انتباهه كله ولا يملأ هذا الرأس الكبير، فيأخذه على أنه لهو وتسلية!

وكنا نورد عليه في آخر الساعة أسئلة من كل فن ومشكلات

في كل موضوع، فيجيب عنها كلها بتحقيق العالِم أو ببلاغة الأديب أو بنكتة الشاعر. ومن أجوبته الحاضرة ونكته السائرة أن طالباً ثقيلاً سأله: ما فائدة هذه الحروف اللّثَوية؟ ولماذا نقول ثاء وظاء فنخرج ألسنتنا ونُضطرّ إلى هذه الغلاظة؟ فأجابه على الفور قبل أن يتمّ سؤاله: لا فائدة لها أبداً، وسنتركها فنقول: «كسّر الله أمثالك». فسكت الثقيل خزيان.

ومن عجائب حلمه وسعة صدره ووقاره الذي لا يزلزله شيء أني أقبلت عليه مرة بعد الدرس (وكانت لي عليه جراءة) فقلت له أمام الطلاّب: يا أستاذ، ما هذا القرار السخيف الذي وضعَته البلديّة لتقسيم أرض الدرويشية؟[1] أليس من العار أن يصدر عن بلدية دمشق مثل هذا الجهل وهذا الظلم وهذا الـ... في عشر مترادفات من هذا النمط ساق إليها نزق الشباب. فلما انتهيت منها قال لي والابتسامة لم تَمَّحِ عن شفتيه: "أنا الذي وضع صيغة هذا القرار". وراح يشرح لي مزاياه، ولكني لخجلي لم أفهم شيئاً مما قال.

وخرجت من الكلية، فكنت ألقاه في الترام أو ألمحه في الطريق، فأجد من إيناسه وسؤاله عني وحفاوته بي ما يملأ نفسي شكراً. وهذه مزيّة من مزاياه، يشعر كل من يلقاه أنه صديقه الأوحد وأنه أقرب الناس إليه، وأنه لا يشتغل إلّا بذكره ومعرفة أمره والعناية به.

---

(١) كانت الدرويشية حياً من أبهى وأغنى أحياء دمشق هدمَته مدافع الفرنسيين وأحرقَته نارهم، وبقي أنقاضاً إلى ذلك اليوم. وفي كتابي «دمشق» قصّة عنوانها «في خرائب الدرويشية».

وكنت أزور أستاذنا محمد كرد علي في المجمع فألقاه مع من كنت ألقى فيه من أعضائه، وهو من أكبرهم، فأراه أحياناً في مناقشات أدبية أو لغوية، فإذا هو في مجال العلم والحفظ كما كان في مجال الرأي والفكر، وإذا هو متسلط غالب في مصاولات اللغة والأدب كما كان المتسلط الغلّاب في مصاولات السياسة.

* * *

ومرّت الأيام وصار رئيس مجلس النواب، فكانت رياسته عجباً من العجب. وكان الوافدون على دمشق لا يريدون -إذا رأوا جامع بني أمية والرَّبْوَة وقاسيون- إلا أن يروه على منصة الرئاسة، ليحدّثوا قومهم إذا رجعوا إليهم بجليل ما رأوا وما حضروا.

كان النوّاب بين يديه كالتلاميذ، بل إن أكثرهم كانوا تلاميذه فعلاً، وكان يصرّفهم تصريفاً لا يوصَف ولا يثبت على الورق، وما هم بالذين يُصرَفون أو يسيَّرون، وإن فيهم لَكلّ باقعة داهية ذرب اللسان حديد الجنان، آفة من الآفات يطيح بالحكومات وينسف الوزارات، ولكن الحدَأة تسطو على العصافير، فإن قابلَت النسر المَضْرحيّ عادت هي عصفوراً من العصافير.

وكانت تشتبك الآراء وتتداخل المقترحات وتشتدّ المنازعات وتثور الحزبيّات، فما هي إلاّ أن يتكلم ويلخّص الموقف ويفسّر الأقوال ويبيّن المقاصد حتى يقرّب البعيدَين ويجمع الشتيتَين، ويصبّ على جمرات الغضب سطل ماء، ويستلّ الرأي الموافق من بين الآراء المتشابكة سَلّ الشعرة من العجين ويعرضه للتصويت.

وكان له في هذا العرض «فن» يستطيع به أن يجعل التصويت ينجلي عن الموافقة أو عن الرفض، تنبّهت إليه فكتبتُه، فلقيَني لمّا قرأه فقال لي وهو يضحك: يا عفريت! كيف أدركت هذا؟

وهذا الذي أدركتُه وكتبتُه قبل أن يتنبّه الناس إليه هو أن في النوّاب من لا يعمل شيئاً، حتى إنه لا يرفع يده عند «التصويت». وكان يعرفهم، كل عملهم حضور الجلسات صامتين وقبض الرواتب صامتين. فكان إذا أراد لمشروع أن يفوز قال: "المخالف يرفع يده"، فيكونون بذلك مع الموافقين. وإذا أراد له أن يخسر قال: "الموافق يرفع يده"، فيكونون مع المخالفين!

وغضب مني مرة سعد الله الجابري، وكان رئيس الوزراء، ونسب إليّ أني أحرّض عليه. وهو رجل حلبي لا يعرفني، فاضطُررت أن أستشهد بعضَ من يعرفني من رجال الكتلة، فما رأيت أقرب إليّ من فارس بك. وكان رئيس المجلس وقُطْب رحى السياسة كلها، وكان كثير المشاغل ضيّق الوقت، ولم يكُن بُدّ من أن أسأله موعداً، ولكني كنت في عجلة من أمري فذهبت إليه بعد العصر في ساعة ينام فيها أكثر الناس، فحاول الشرطي أن يردّني فنهرتُه ورفعت صوتي، فسمعني وخرج إليّ مبتسماً بثياب البيت وقال له: هذا الشيخ علي، ألا تعرفه؟ إنه دائماً مشاغب!

ودخلت عليه مكتبه مرّات لا أحصيها وهو رئيس الوزراء، فما وجدت إلا أستاذنا فارس الخوري، الأستاذ العالِم الأديب الحاضر الجواب الصائد النكتة. وكنت أظنّ أني سأجد دولة الرئيس فارس بك الذي لا يُكلَّم إلّا بعريضة ولا يخاطَب إلا

بالبروتوكول. لم يبدّل منه المنصب شيئاً؛ إنما يبدّل المنصبُ مَن يكون أقلّ منه فيكثر به، لا من كان في نفسه أكبر من المناصب.

* * *

وفارس الخوري واحد من المشيخة الأجلاء الذين تعتز بهم دمشق، ولقد شهدَت بعبقريته الدنيا ورأت فيه شخصية ضخمة لا توزَن بها الشخصيات، فقد حمل رئاسة مجلس الأمن وهو في الثمانين فكان خير رئيس له وأقواه، هذا وليس وراءه أسطول جاءت منه هيبته ولا قنبلة ذرية قامت عليها سطوته، ما وراءه إلّا دولة صغيرة كبَّرَتها عبقريته وأمّة ضعيفة قَوّتها شخصيته، حتى كان صوتها أعلى الأصوات وكلامُها أبلغَ الكلام، وكانت خطبته عنها هي نقطة التحول في مجرى الرأي في مجلس الأمن كما قال الأستاذ الصاوي في «أخبار اليوم».

ولقد عجب الذين لا يعرفونه لمّا سمعوا أنه لم يقرأ خطبته من كتاب ولا تلاها من ورقة بل ارتجلها ارتجالاً، ولم تكُن في يده إلّا بطاقة فيها «خرابيش» بالقلم الرصاص، رآه النقراشي وهو يخطها فحسب أنها مذكّرات له في مسائل عادية من مسائل الحياة اليومية، فلما رأى أنها هي الخطبة العظيمة التي هزّت أكبر هيئة دولية في الأرض بلغ عجبه منه وإعجابه به أبعد المدى.

أما نحن فلم نَعجب لأن الشيء من معدنه لا يُستغرب، وهذا الرجل الذي بدأ يتعلم الإنكليزية وينبغ فيها قبل أن يُولَد أكثر أعضاء الوفد المصري في مجلس الأمن، والذي أعطاه الله هذا الذهن العجيب فجعله لغوياً أديباً شاعراً حقوقياً مشاركاً في

كل فروع الثقافة، وأمدّه بمنطق سديد وعقل نادر المثال، ورزقه ذكاء ما أعرف أحدّ منه ولا أمضى، وبديهة غريبة، وجعل له مع هذا كله هذا الرأسَ الكبير وهذه الشيبة المهيبة، وهذا الصوت المدوّي المليء بالعظمة والثقة بالنفس، وهذا الصدر الواسع، وهذا الحلم مع القوة، وهذا الحزم بلا عنف... هذا الرجل لا يُستكثَر عليه أن يرتجل خطبته بالإنكليزية (وهو يخطب مثلها أو أبلغ منها في التركية والفرنسية) وأن يكون لهذه الخطبة أثرها في مندوبي أكبر دول الأرض.

* * *

وبعد، فلا يحسب القارئ أني غلوت أو بالغت، فما ذكرت إلاّ ما أعرفه حقاً. وما في الأمر مجال لرغبة تدفع إلى المدح ولا رهبة تمنع من القدح، فأنا لا أرهب الرجل ولا أخافه ولا أرغب في شيء منه ولا أطمع فيه، وربما مَرَّت هذه المقالة فلم يقرأها ولم يطّلع على هذا العدد من «الرسالة»، وإنما أريد المشاركة في تأريخ سيرة عظيم من عظماء العرب[1].

* * *

(١) كتب علي الطنطاوي في أول الحلقة الرابعة والخمسين من «الذكريات»: "كان فارس الخوري أحدَ عباقرة العرب في هذا العصر علماً وفكراً وبياناً. ورُبّ عالِم واسع المعرفة كثير الاطّلاع لكنه غير مفكّر، ورُبّ مفكّر سديد الفكر بعيد الغور ولكنه ضيّق المعرفة، ورُبّ عالِم مفكّر لكنه ضعيف البيان عَيِيّ اللسان. أما فارس الخوري فقد جمع الله له الثلاثة، وكنت أعجب منه كيف يكون له هذا الاطّلاع على الإسلام =



الشيخ محمد بهجة البيطار مع فارس الخوري
في مستشفى المجتهد بدمشق (١٩٦٠)

= وهذا العقل ثم لا يهديه عقله إلى اتّباع دين الحقّ الذي لا حقّ في الأديان غيره! لا سيما أنه كان يتمسك بأوهى خيط من النصرانية، فقد كان بروتستنتياً، بل كان أقرب إلى أن يكون بلا دين.

فلما مرض وطال مرضه رأيناه كلما عادَه أحدٌ من المسلمين حدّثه عن الإسلام، وكان يُكثر أن يطلب من شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار أن يقرأ عليه القرآن، وأوصى (ونُفّذت وصيته) أن يُتلى القرآن في مجلس التعزية به إذا مات. فكنت أحار في تفسير هذا كله، حتى نشر الأستاذ محمد الفرحاني كتابه عنه (وقد كان ملازماً له في مرضه لا يفارقه أبداً) فإذا هو يؤكّد أنه مات على دين الإسلام، فرحمه الله ورحم الفرحاني الذي فرّحنا بهذا النبأ (الذكريات ٢/٢٠٥) (مجاهد).

أستاذنا الجندي

كتبت سنة ١٩٥٥*

عرفنا الأستاذ سليم الجندي مدرّساً وقعدنا بين يديه تلاميذ في «مكتب عنبر»، الذي كان الثانوية الوحيدة في دمشق. ولكن لماذا أقفز إلى حديث الأستاذ قبل أن أحدثكم عَمَّن علَّمَنا قبله، عن سَلَفه الشيخ عبد الرحمن سلام وعن الشيخ عبد القادر المبارك؟ أيقف شعراء العرب على حفرة طمستها الرياح وحجارة سوَّدتها النار ويبكون على آثار الخيام، ولا أقف عند ذكرى الرجلين اللذين لولاهما ولولا الجندي ما عرفت كيف يكون تأليف الكلام؟

لمّا دخلنا «مكتب عنبر» وجدنا في درس العربية مفاجأتين، رجلين من نوادر الرجال. ولقد قلت مرة إن الرجل المهذب الاجتماعي كالنسخة المطبوعة من الكتاب، منها آلاف وآلاف، أما أمثال المبارك وسلام فكالنسخ المخطوطة؛ قد يكون فيها

---

* هذه الترجمة منتخَبة من مقالة «أستاذنا الجندي»، المنشورة في كتاب «من حديث النفس»، اقتطعتُ منها ما يصنع مقالة موجَزة كاملة تناسب هذا الكتاب، ومَن أَحَبَّ قراءتها كاملة قرأها هناك (مجاهد).

خرم أو غموض، ولكنها أثمن من كل مطبوع لأنها مفردة ليس لها نظير.

أما الشيخ عبد الرحمن سلام فما رأيت (وما أظن أنني سأرى) من هو أطلق منه لساناً وأحلى بياناً. لقد كان عجباً من العجب، إذا احتاج أن يتكلم في موضوع لم يكن عليه إلّا أن يفتح فمه ويحرك لسانه، فإذا المعاني في ذهنه والألفاظ على شفتيه والسحر من حوله، والأنظار متعلقة به والأسماع ملقاة إليه والقلوب مربوطة بحركة يديه! وكان يرتجل الشعر كما يرتجل الخطب، وكان يرمي الكتاب (كتاب النحو) لا يباليه، ويتكلم من أول الساعة إلى آخرها في اللغة وفي الأدب وفي كل شيء... كان يريد أن يربّينا على السليقة العربية بالمحاكاة والمِران وينفخ فينا من سحره ليجعلنا أدباء قبل الأوان.



«مكتب عنبر» في ثمانينيات القرن العشرين



وأما المبارك فما رأيت (وما أظن أني سأرى) مدرّساً له مثل أسلوبه في الشرح والبيان، وفي امتلاك قلوب الطلاب، وفي نقش الحقائق في صفحات نفوسهم بهذه الضوابط المحكمة العجيبة التي تلخِّص في جملة واحدة بحثاً من البحوث. وكان يعلمنا الفقه... ماذا قلت؟ الفقه؟ هذا هو اسم الدرس في عُرف المدرسة، أما في حقيقته فكان فقهاً وتفسيراً وحديثاً ولغة وشعراً وأخباراً، وما شئتَ من كل نافع مفيد وكل طريف جديد.

كان الأول هو الذي جرّأني على امتطاء صهوات المنابر ومقارعة الفرسان في ميادين البيان، وكان الثاني هو الذي أخذ بيدي فأطلعني على كنوز الثقافة العربية وطبع نفسي بطابعه. وفي يوم من أيام سنة ١٩٢٣ دخل علينا الشيخ عبد الرحمن سلام،

ولكن لا كما كان يدخل كل يوم، وألقى خطبة، ولكن لا كما كان يلقي؛ دخل حزيناً وألقى خطبة الوداع، وذهب وذهبت معه قلوبنا.

* * *

وجاءنا مدرس جديد فقعد على الكرسي (وما كان الشيخ ليقعد عليه أبداً) وفتح كتابه يقرر الدرس بصوت خافت وكلام لا يكاد يُسمع. وكان الأفغاني[1] إلى جنبي فقلت له: مَن هذا؟ قال آسفاً: هذا والد سيدنا... وأشار إلى نجم الدين. قلت: الأستاذ سليم الجندي؟ قال: نعم.

أهذا هو الأستاذ سليم الجندي؟ أهذا الذي أعجبت به لمّا قرأت له في مجلة «الرابطة»[2]؟ يا ضيعة الأماني! ويا حسرتاه على أستاذنا الذي أضعنا، على الشيخ سلام! سلام على سلام.

---

(١) سعيد الأفغاني، كان رفيقَ علي الطنطاوي أيام الصبا والشباب، ثم صار عديلَه عندما تزوج أخت جدتي. وهو من الطبقة العالية من علماء النحو في الشام. توفي بمكة سنة ١٩٩٦ودُفن فيها (مجاهد).

(٢) قال في «الذكريات»: "أمّا الأدب الحديث فما عرفت منه إلّا ما وجدته في مكتبتنا (يريد مكتبة أبيه) وهو ما كتب المنفلوطي رحمه الله وما تُرجم له فصاغه بقلمه صياغة جديدة، وشيئاً آخر: مجلداً نادراً ما أحسب أنه بقي منه إلا نسخ قليلة، هو مجلد السنة الأولى من مجلة «الرابطة الأدبية» التي تألّفَت في دمشق سنة ١٩٢١. ولا بدّ لمن شاء أن يؤرّخ للنهضة الأدبية في سوريا من دراسة هذه المجلة، وكان من أعضاء الرابطة الأساتذة سليم الجندي وشفيق جبري وخليل مردم بك وعزّ الدين التنوخي وأحمد شاكر الكرمي (١/٢٠٩) (مجاهد).

بل سلام على العربية؛ لقد زهدت فيها وعزفت عنها، وعزمت لأتوجهنَّ بالاهتمام إلى درس آخر من دروس المدرسة. ما لي وللعربية وهذا مدرّسُها؟ مدرس لا يخطب ولا يرتجل الشعر ولا يتلاعب بمُهَج السامعين؟! ومرَّ بي الدَّوْر، فأخرجني الأستاذ فأقامني على اللوح وأملى عليّ بيتين للمعرّي وقال: اقرأ وفسّر وأعرب.

فانطلقت كما علمنا سلام، انطلقت أخطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة، فإذا بالأستاذ يبتسم ابتسامة أحسست كأنها سكين في قلبي، وكأنها دلو ماء أُلقي على جمرة حماستي، وقال: بَعْدُ بَعْدُ، فسّر أولاً معاني الكلمات الغريبة.

ووقفت كما وقف حمار الشيخ في العقبة! وسألني عن دقائق الإعراب، فوقفت وقفة أخرى. قال: أرأيت؟ أتَبني الدار قبل نحت الحجارة؟

ورأيتُني حقاً أبني الدار قبل نحت الحجارة... أبني دوراً في الهواء! وصَغُرت عليّ نفسي بقدر ما كبر الأستاذ، وعدت أبدأ قراءة النحو والصرف من جديد. وكان الكتاب الذي نقرؤه «قواعد اللغة العربية» (الجزء الرابع من الدروس النحوية لحفني ناصيف وأصحابه)، وهو كتاب يغني المتأدب، بل الأديب، عن النظر في كتاب غيره. وهو أعجوبة في جمعه وترتيبه وإيجاز عبارته واختياره الصحيحَ من القواعد، وهو أصحّ وأوسع من «شذور الذهب» ومن «ابن عقيل» التي كنت أقرؤها على أستاذيَّ الجليلين الشيخ أبي الخير الميداني والشيخ صالح التونسي.

وعكفنا عليه وملأنا حواشيه البيض، ثم ألحقنا بين صفحاته صحائفَ نملؤها بفوائد الأستاذ وشواهده وزياداته. وعرفنا -يوماً بعد يوم- مقدار النعمة التي أنعم الله بها علينا حين جعلَنا تلاميذ الأستاذ سليم الجندي. وكنا نفاخر إخواننا الذين يُقرئهم الشيخ الداودي، ونأتي بالمعضلات والصعاب نتصيدها من كتب الأدب وأفواه العلماء فنطرحها عليه، فنحظى بأجمع الجواب بلا مراجعة ولا كتاب ويرجعون هم بلا جواب.

وما أنتقص الداودي رحمه الله، فلقد كان معلماً فاضلاً، وكانت له أخلاق أعطر من زنبق الحقل وأطهر من ثلج الجبل، وله قلب من الذهب، ولكنه لم يكن من بابَةِ الجندي. إن الذهب ذهب، ولكن إن قابلته بالجوهرة المفردة وارَى بريقَه حياءً.

* * *

وأحببت الأستاذ الجندي حب الولد أباه وعرفت قدره، فكنت لا أكفّ عن سؤاله، أسأله في الصف وألحقه في الفرصة وأدخل معه غرفة المدرّسين، أشرب من معين علمه ولا أرتوي، أتزود من هذا المنهل العذب لسفري الطويل في صحراء الحياة، أسأله عن الغريب فلا تغيب عنه كلمة منه، كأنه قد وعى المعاجم وغيّبها في صدره، وأسأله عن التصريف والاشتقاق فيجيب على البديهة ما يُعيي العلماءَ جوابُه بعد البحث والتنقيب، وأسأله عن النحو فإذا هو إمامه وحجته، وألقي عليه بالبيت اليتيم وجدته في كتاب فإذا هو ينشد القصيدة التي يُنمَى إليها ويعرّف بالشاعر الذي قالها.

لقد كان مدرّساً للعربية، ولكنه كان أكثر من مدرس. وكان عالماً من علماء البلد، ولكنه كان أكثر من عالم. ورُبَّ مدرّس لا يكون عالِماً، ورُبَّ عالم لا يكون عالماً إلّا في بلده وبين أقرانه، وربّ عالم لا يكون عالماً إلّا بالنسبة إلى عصره وزمانه. أما الجندي فقد كان أعلمَ علماء العربية في هذا العصر، وكان واحداً من أعلام العربية الأولين، ولكنه ضَلَّ طريقَه في بيداء الزمان فجاء في القرن الرابع عشر الهجري لا في القرن الرابع!

أقرر هذا بعدما مشيت في البلاد وجالست العلماء، فما ثَمّ عالم مشهور في العربية في مصر والشام والعراق والحجاز والهند والملايو وأندونيسيا إلّا عرفته. عرفت في مصر علماء الجامعة المصرية وعلماء الجامع الأزهر والأدباء والكتاب، وأنا أؤكد لكم القول أني لم أجد فيهم من يفوق -في حفظه وضبطه وأمانته وملكته- الأستاذَ الجندي.

وكشفت فيه -يوماً- بحرَ علم آخر لم أكن أعرفه من قبل؛ سألته عن مسألة من الدين فإذا هو فقيه أصولي يروي الحديث ويعرف المقالات. ومن هنا، من هنا يا سادة جاء حفاظه على اللغة ومعرفته بقدرها وغَيرته عليها. هذا هو سبب نبوغ الجندي، السبب معرفةُ الجندي أن العربية لغة القرآن، وأن مَن أراد أن يكون إماماً فيها فليكن خادماً للقرآن. فلقّنَنا مع العربية الدين وقصد التقرب إلى الله بخدمة لغة القرآن، وأخذَنا -من أول يوم- بالبعد عن الجرائد والمجلات وهذا الأدب الجديد، ولم يكن يملي علينا في الإعراب والاستظهار إلّا الشعر الذي يُحتَجّ بعربيته من الجاهلي والإسلامي، ويخرِّج لنا الألفاظ تخريج المحدّثين

الأحاديث، فيميز لنا الصحيحَ من الدخيل والفصيحَ من الشاذ.

وهو -على ذلك كله- متواضع حييٌّ، غاض الطرف والصوت، حاضر النكتة، صافي القلب، حسن المعشر، رضيّ الخلق، مستقيم لا تستطيع مغريات الدنيا أن تحوله عن طريقه. ولقد سار على هذا المنهج حياتَه كلها، ولكنه قاسى في هذا السير الأهوال. لم يكن يوضَع برنامج للعربية في المدارس ويبدَّل أو يؤلَّف كتاب أو يعدَّل إلّا دعوا الجندي، فإذا جاء وجد أعداء العربية وخَدَمة الاستعمار متربصين له، يريدون أن يجهّلوا أبناء العربية بالعربية حتى يبعدوهم عن القرآن فيسلبوهم أقوى سلاح يحاربون به الاستعمار، يسلكون لذلك أدق المسالك ويتخذون لذلك أخفى المكر، وكان عليه أن يحاربهم وحده، يدفع مكرهم بأخفى منه ويسلك لذلك أدق من مسالكهم، فينال ذلك من أعصابه ومن صحته، ولكنه يحتسبه جهاداً عند الله. وسيكون له -إن شاء الله- أجر المجاهدين.

* * *

وبعد، لقد مضى الرجل الذي لم يبقَ تحت أديم السماء مَن هو أعلم منه بلسان العرب، لغةً واشتقاقاً ونحواً وبلاغة وعَروضاً وروايةً وضبطاً، ولا مَنْ هو أوفى لها وأغيَرَ عليها، ولم يعد في ديار الشام مَنْ أستطيع أن أذهب إليه أنا والأفغاني والعطار[1] كلما

---

(١) سعيد الأفغاني وأنور العطار، كانا وعلي الطنطاوي أصدقاء الطفولة والشباب وكانوا طلاباً معاً في «مكتب عنبر» (مجاهد).

دَهَمتنا عِظام المشكلات في العربية، نحملها إليه ليحل لنا عُقَدها. ولم يبقَ في الدنيا كلها من نقول له في العربية: "يا أستاذنا"، فعلينا منذ اليوم أن نعتمد على أنفسنا كما يعتمد الضابط على نفسه حين يفتقد القائد العبقري وسط المعمعة الحمراء. وهيهات أن يسدّ أحدٌ مكان قائد المعركة بين العربية والعجمة، حجة العرب، سليم الجندي[1]!

اللهمّ ارحمه واعفُ عنه وأدخله جنتك، اللهمّ عوّض هذه العربية منه، اللهمّ لا تحرمنا أجره ولا تفتِنّا بعده وغفر لنا وله، اللهمّ آمين.

* * *

(١) في «الذكريات» تحدّث علي الطنطاوي عن أساتذته في «مكتب عنبر»، فذكر سليم الجندي وعبد القادر المبارك ثم قال: "لقد ماتا وما أعرف تحت قبة الفلك أعلمَ منهما بالعربية" (١/١٥٦) (مجاهد).

الشيخ محمد نصيف*

أحسُّ الآن -وأنا أكتب هذا الفصل- كأني في جدة سنة ١٣٥٥هـ، ولكنْ لا البلدُ هو البلد ولا أهله هم أهل جدة الآن. كانت جدة كالنائم في فراش الشتاء البارد، ينضمّ بعضُه إلى بعض حتى لَيَسعه الفراش الضيّق ويغطيه اللحاف الصغير. كانت نائمة وسط السور، وكانت تغلق أبوابها كل عشيّة، حتى إننا لمّا أردنا أن نخرج منها إلى مكة بعد صلاة العشاء لم يفتحوا لنا الباب حتى رأوا أوراقنا وأوراق سيارتنا![1]

كانت جدة قرية أو كالقرية، تمشي فيها الآن ثلاثين كيلاً فلا تخرج منها، وكنت تقطعها مشياً من طرفها إلى طرفها في

---

* كُتبت هذه الكلمة سنة ١٩٩٢ لتنشر في كتاب «محمد نصيف، حياته وآثاره»، ثم ضمّها أخونا الفاضل مجد مكي إلى كتاب «مقدمات الشيخ علي الطنطاوي». وقد استحسنت إلحاقها بهذا الكتاب لأنها من جنسه (مجاهد).

(١) الخبر في الحلقة الثامنة والسبعين من «الذكريات» (١٣٩/٣) قال: "لمّا انقضت أيامنا في جدّة وعزمنا على التوجه إلى البلد الأمين ودّعْنا الشيخ ومشينا إلى باب مكة بسياراتنا. وكان وصولنا إلى الباب في المساء، فسألَنا الجندُ ونظروا في أوراقنا وفتحوا لنا الباب، وخرجنا من باب مكة" (مجاهد).

ربع ساعة، لأن طولها لم يكن يزيد على كيل واحد وعرضها أقل من طولها. ما كان فيها شارع تمشي فيه السيارات، وما كان فيها سيارات تمشي في الشوارع.

جدة التي تحسب وأنت تجول فيها اليوم -من كثرة الأشجار- كأنك في غوطة دمشق (قبل أن تأكلها الشوارع وتدفنها العمارات الحديثة) ما كان فيها يومئذٍ إلا شجرة واحدة أمام دار الشيخ، وقد خبّرني أن قابل أفندي (الذي سُمِّي باسمه شارع قابل) غرسها له. وكانتا شجرتين، ولكن الآجال التي كتبها الله للناس وللأشياء ذهبت بإحداهما وبقيت الأخرى، وكانت علامةً على دار الشيخ، وإن كانت دارُه يُستَدَلّ بها ولا يُدَلّ عليها، كانت أكبرَ دار في جدة، وكان هو أوجهَ وجهائها وكان عينَ أعيانها.

* * *

وصلنا إليها بعدما وصلت أرواحنا إلى التراقي، في رحلة بالسيارات من دمشق إلى مكة امتدت ثمانية وخمسين يوماً، اعتسفنا فيها الصحراء، واجهنا فيها الموت، عرفنا فيها الضياع. ما كنا نمشي على طريق معبَّد ولا على جادة واضحة، فما كان فيها طريق، ما فيها إلا الرمال والآكام والجبال. وكانت رحلتنا لكشف طريق للسيارات، فالطريق الذي يسلكه الناس اليوم آمنين كنا نحن الذين كشفوه.

وكانت رحلة ليس لها مثيل في الرحلات، مَرّ عليها يوم كتابة هذا الفصل سبعٌ وخمسون سنة ولا أزال أذكرها وأتحدث عنها، وسلكت بعدها هذا الطريقَ عشرات من المرات ما أجد ما

أتحدث به عنها، لأننا كنا ندخل فيها الطيارة في الشام فأستلقي فيها في المقعد المريح حتى أصل إلى جدة، أطيب الطعام يوضَع أمامي وألذّ الشراب، أطلب كل ما يُطلَب مثلُه في الطيارة فيكون بين يديّ، ولكني لم أجد لهذه الرحلات كلها عُشرَ ما وجدته في تلك الرحلة. ربحت الراحة، ولكني خسرت المشاعر والذكريات.

كانت رحلة مغامرة وإقدام على مجهول وتخبط في البوادي على غير هدى. كان معنا أدلّاء، ولكنهم أدلاء لقوافل الإبل لا للسيارات، يصل بنا الدليل إلى صخرات معترضات كأنهن دَرَج من الحجر فيقول: من هنا! فنقول: إن السيارات لا تصعد السلالم والأدراج! فيقول: هذا هو الطريق. فنقول: إنه طريق الإبل، إن الجمل يرفع رجله فيصعد الدرجات ولكن السيارات ما لها أرجل ترفعها! ونرجع بعد أن مشينا ست ساعات فنمشي ستاً أخرى حتى نجد مكاناً يمكن أن تمشي فيه السيارات.

وطالما اعترضتنا بَحرةٌ[1] من الرمل الناعم الذي يحركه النسيم، لا يستطيع حمل السيارات فتغوص فيه دواليبُها، فننزل لنجرّها بالحبال فنخرجها مما علقت فيه. وما أكثر ما كنّا نمرُّ به من هذه البحرات. ولقد رأينا الموت قرب العُلا عند مدائن صالح من بحر كان فيها من الرمل، وكان عند الشميسي قرب الحديبية تلال من الرمل يمرّ بها الراكب الآن بالسيارة فلا يكاد يلتفت إليها، كنا نبقى فيها ساعات حتى نقطعها. كنا نُمضي على الطريق من جدة

---

(١) البحرة في اللغة هي مَجمع الخيام، ولعل منه اسم «بحرة» بين مكة وجدة.

إلى مكة إحدى عشرة ساعة. ولا تعجبوا من هذا الكلام، فإني أحدّثكم عمّا رأيته قبل نحو ستين سنة.

وكنا في أول الطريق ننصب الخيام ونُعِدّ الطعام، ثم ضاق الوقت وكَلَّ العزم عن هذا، فصرنا إذا جاء الليل سقطنا من الإعياء كالموتى ومدَدْنا ما معنا من البسط ونمنا في مكاننا. ولقد بتنا ليلة في أرض كلها عقارب، فلم أستطع المنام. وكيف لي أن أنام بين العقارب؟ ثم غلبني التعب، فاستعذت بالله ودعوته ونمت، وشعرت قبل أن أغفي بشيء يمسّ قدمي، فوثبت وأشعلت عود كبريت (وكان هذا كل ما معي) فلم أجد شيئاً، فعدت إلى المنام!

وكنا مرة نهمّ بالنوم، وكان معنا دليل شيطان من شياطين الإنس أو عفريت من عفاريت الجن، اسمه (ولا أزال أذكره) محمد الأعرج، فرأيت نوراً كأنه نور سيارة صغيرة، ورأيته وبندقيته في يده، فقلت: ما هذا؟ وكان قليلَ الكلام. فقال: نمر(١)! وأطلق طلقة من بندقيته، فاختفى النور. قلت: أصبتَه؟ قال: لا. قلت: فماذا نصنع؟ فنظر إليّ ولم يُجب، ثم استلقى لينام!

وبقيت وحدي في الظلام أخاف أن أخبر أصحابي فأخوّفهم، وأخاف النمر. إنه نمر لا ثعلب! فبقيت ساهراً أرعى النجوم، كلما سمعت حركة أو صوتاً قمت أنظر حتى طلع النهار.

لا؛ لن أضيع الوقت في وصف تلك الرحلة، فارجعوا إن

---

(١) ولست أعلم: هل هو نمر حقاً أم هو وحش آخر؟ ولكنه شيء مخيف على كل حال.

شئتم إلى الجزء الثالث من ذكرياتي تجدوا خبرَها، خبر الرحلة التي وطئَت فيها سياراتُنا أرضاً ما وطئتها سيارةٌ قبلَها منذ برأها الله[١].

* * *

توجهنا حين وصلنا جدة إلى دار الأفندي، الشيخ محمد نصيف رحمة الله على روحه. وكانت داره محطّة لكبار الحجاج من أهل العلم وأهل الصدارة في كل بلد، فكأنها دار خرقاء التي قال فيها ذو الرُّمَّة[٢]:

تمامُ الحجّ أن تقف المطايا   على خَرقاءَ واضعة اللثام

وكنت أعرف عنه الكثير من خالي محب الدين الخطيب الذي كان في تحرير «القبلة» على عهد الشريف حسين، الجريدة الرسمية التي حلّت محلها «أم القرى»، ومن الشيخ محمد بهجة البيطار الذي كان مع الشيخ كامل القصاب، الذي وضع أساس التعليم الرسمي في المملكة أوائلَ عهد الملك عبد العزيز.

فلما التقينا وجدت الشيخ أنبل وأفضل مما سمعت عنه ومما كنت أحسبه مبالغة في المدح. أصفه في كلمات قبل أن يتشعّب

---

(١) وهي مفصلة في كتاب «من نفحات الحرم» (مجاهد).

(٢) الرُّمة هي القطعة من الحبل، ومنه قولهم: أخذت الشيء برُمَّته، أي أخذته كله وجميعه. واسم الشاعر هو غَيلان بن عُقبة، ولتسميته بذي الرمة قصة ذكرها أبو الفرج في «الأغاني». وقد شبَّبَ ذو الرمّة بمَيّة، وله معها قصص في كتب الأدب، وشبّب بخرقاء، وفيها قال هذا البيت المشهور (مجاهد).


دار الشيخ محمد نصيف في جدة

بي الحديث فأضيع وأضيّع القرّاء بين شعابه: كان نبيلاً نبلاً أصيلاً لا متكلَّفاً، كان الكرم طبعاً فيه لا تطبعاً، فلو أراد العدول عنه لما استطاع، فكأن حاله تشير إلى قول أبي تمام:

تعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتى لَوَ انّه
ثناهـا لِقَبْضٍ لم تُطِعْهُ أنـامِلُه

كانت المائدة منصوبة كل يوم، لا يُسأل الداخلُ إليها عن اسمه، وكانت في داره غرف معدة للمنام، مَن زاره وشاء أن ينام فيها نام.

وكان عالماً بالحجاز وأهله وحكامه، فكأنه تاريخٌ حيّ يمشي على قدمين، يعرف الدول والناس كما يعرف الكتب، وعنده مكتبة من أنفس ما عرفت من المكتبات. ولقد عرفت مكتبات



أساتذتنا، محمد كرد علي في دمشق، وإسعاف النشاشيبي في القدس، وأحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا في مصر، ومكتبة ندوة العلماء في لكنو في الهند، ومكتبة الحاج حمدي الأعظمي في بغداد، ومكتبات لا أحصيها الآن، فوجدت مكتبة الشيخ محمد نصيف من أكبرها، وكانت مكتبته مثلَ مائدته، مفتَّحةَ الأبواب لكل قادم. وكان كلما اطّلع على كتاب نافع اشترى منه ووزع نسخه هدية على مَن ظَنّ أنه ينتفع بها، فأفاد بذلك المؤلفين وأعانهم، ونفع القارئين وأفادهم.

ولمّا أقمت في مكة (من سنة ١٣٨٤ إلى الآن) كنت أنزل إلى جدة كل أسبوع لأحدّث في الإذاعة، ولم يكن قد أنشئ الرائي (التلفزيون)، فكان أول مكان أقصده إن دخلتها دار الشيخ، وآخر

مكان أتركه إن خرجت منها دار الشيخ. ولم يكن من طبعي أن أنطلق على سجيتي عند الناس فآكل وأشرب إلا عند الشيخ وقلّةٍ من أصدقائي ومَنْ هم بمثابة مشايخي، فكنت أشعر عنده كأني في بيتي، وكنت حيناً أجد عنده -كلما جئت جدة- رجلاً ينام في الدار ويأكل على مائدة صاحبها ويأخذ حريته كاملة فيها، فسألته عنه، فقال: رجل طيّب عرفته في بعض أسفاري إلى لبنان يبدو أن له أعمالاً هنا، لا أعرف اسمه!

وإذا كان موعد الحج وتجهّز له حج معه كل من كان حاضراً، ومنهم من لا يعرف أسماءهم، يذهبون ويرجعون ويأكلون ويشربون، ينفق هو عليهم ويعلّمهم مناسك الحج ويرشدهم ويُوليهم من كرم نفسه وكرم يده أكثرَ مما يبلغه أمل الآملين.

* * *

لم يكن في جدة فندق، فكانت داره هي الفندق الكبير، ولكنه كان فندقاً بالمجّان، لا يكلف النزيلَ فيه مالاً. ولم تكن فيها دارُ ضيافة رسمية، فكانت دارُه دارَ الضيافة، ينزل فيها كل مَن أَمَّ جدّة من عظماء الرجال؛ نزل فيها الشريف حسين (الملك حسين) وابنه الملك عليّ في أواخر عهدهما، كما نزل فيها الملك عبد العزيز في أوائل عهده، وفيها كان ينزل الوالي على عهد العثمانيين.

وخبّرني أن آخر سلاطينهم نزل فيها بعد أن قضى مصطفى كمال على الخلافة وسلب قومَه أشرفَ ما كانوا يعتزون به، وحكم على أكثرهم بالأمّية لمّا ترك الحرف العربي الذي شرفه الله فكُتب

به القرآن، وألزمهم بالحروف اللاتينية التي لا تغني عنها ولا تسد مسدها. ولكنه لم يستطع إبعادهم عن الدين، ولا يزال الشعب التركي متمسكاً بالإسلام، وسيأتي يومٌ قريب تسقط فيه هذه البدعة الجديدة ويعودون إلى دينهم كما عاد الأذان بالعربية، وقد خبّرني مَن شهد عودتَه أنهم لمّا سمعوا «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله» باللفظ العربي المبين، كما جهر به بلالٌ يوم الفتح على ظهر الكعبة لا ترجمتَه التركية التي لا روح فيها ولا جلال، لمّا سمعوه كان يومَ عيد لهم تبادلوا فيه التهنئات.

* * *

وقد كنت أزور الشيخ في أيام السنة كلها، فما كان يتخذ وسيلة للتبريد ولا كان يحتاج إلى اتخاذها، بل كان يقول للخادم: "يا ولد، افتح هذه الطاقة وأغلق تلك الطاقة"، فإذا النسيم ما ينفكّ ناعشاً يملأ المجلس رَوحاً ونعيماً. وتلك وسيلة قديمة عرفها أجدادنا فاستغنوا بها عن أكثر الوسائل التي يتّبعها الناس اليوم، وقد رأيت مثلها لمّا زرت أنقاضَ قصر المتوكل الصيفي في مدينة «سُرّ من رأى»، فمَن شاء قرأ خبره في كتابي «بغداد»[1].

(١) قال في «الذكريات» (٣/١٣٤): "لمّا زرت قصر المتوكّل، القصر الجعفري في «سُرّ مَن رأى» سنة ١٩٣٦، وكنّا نشكو الحرّ وتنضح أجسادنا بالعرق وتضيق أنفاسنا من وهج الصيف كأننا ننظر في تنّور، دخلنا القسم الصيفي، أعني أنقاضه الباقية، فوجدنا النسيم عليلاً والهواء متحركاً ينعش النفوس لأنه مبني بناء لا ينقطع فيه جريان الهواء" (مجاهد).

كان مجلس الشيخ ندوة علمية دائمة، لا يخلو من ضيف كبير. وحديث الشيخ درس فيه منفعة وفيه متعة وفيه طرائف وظرائف، وليس بالمجلس الجادّ الصارم، بل إن سماحة نفس الشيخ ولطفه تسيطر عليه وتملؤه لطفاً وإيناساً.

كانت معرفته بالرجال مضربَ الأمثال، حتى إنه ليَقِلّ في أعلام الناس مَن لا يمت إلى الشيخ بود أو معرفة أو زيارة له في أيام الحج. وكان إذا حل الصيف واشتد الحر رحل إلى بلد من البلدان المجاورة، كالشام أو عمّان أو لبنان، وأخذ معه أحد أحفاده وقضى الصيف فيه. ثم لم يكن يخرج من غرفته إلا لجولة بالسيارة يَجولها في البلدة أو في ضواحيها، ولكن يزوره فيها كرام أهلها ممن عرفه أو سمع به، وقلّ مِن الكرام مَن لم يعرفه أو يسمع باسمه. ولقد زرته في فندق الأردن الكبير في عمّان وفندق بوريفاج (أي الشط الجميل) في بيروت، وتفضل فزارني مرات في داري في دمشق. وداري (التي عزّ عليّ الوصولُ إليها) في جبل قاسيون، تُشرِف من نافذتها على دمشق كلها وعلى غوطتها في منظر عرضُه على الأرض أكثر من عشرة أكيال (كيلومترات).

وكنت أصحبه إلى ضواحي دمشق، إلى غوطتها التي أكلت العماراتُ والشوارعُ أكثرَها، وإلى وادي برَدَى، وهو من أجمل أودية الدنيا، ما رأيت أجملَ منه إلّا وادي الآرْدِن الذي يصل بلجيكا بفرنسا من عند دينان، والذي دخل منه الألمان في الحرب الكبرى.

وقد ذهبنا مرة مع الشيخ ومع صديقه شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار إلى «الفيجة»، حيث النبع الكبير الذي تستقي منه

دمشق والذي يمدّ نهر بَرَدَى بأكثر ما فيه من ماء، فاخترت أحلى مقصف على العين، وما كنت أرتاده من قبل ولا الشيخ بهجة يعرفه، فإذا هو ممّا لا يليق بنا دخوله، وقد عجبَ رُوّاده لمّا رأوا ثلاثة مشايخ يدخلون فيه، وجاءنا النادل يسألنا عما نطلب، فطلبنا شاياً، فبانَ على وجهه أن طلبنا لم يعجبه، ولكنه سكت ومضى. وحان وقت الصلاة، فسألنا عن المكان الذي يصلّون فيه، فارتبكوا ولم يجيبوا، فما بالينا بهم وأقمنا الصلاة، وسمع الإقامةَ بعضُ مَن كان في المقاهي المجاورة فجاؤوا يصلون معنا، وتكلم الشيخ بهجة فنصح بما يحتمله المقام وعقّبتُ عليه بكلمة مناسبة، فتحول المكان -بحمد الله- إلى مسجد.

ومَن قرأ لي مقالة «شيخ في مرقص»[1] علم أن كلمة الحق تُقال في كل مجال، وأن إسماعَها للضالين أَولى من إسماعها للصالحين المهتدين.

* * *

وبعد، فهل تروني أحسنت الكتابة عن الشيخ؟ هل أستطيع أن أنقل إليكم صورة (ولو باهتة) عمّا في نفسي عنه من الإكبار وما له فيها من الحب؟ هل عرضت عليكم طرفاً من ذكرياتي عنه؟ هيهات! وهل تدخل ستون سنة من أحلى سنوات العمر في ستين سطراً من كتاب؟ هل يُختصَر البحر في قطرة والروض في زهرة؟

رحم الله الشيخ الذي لا أحسب أنه سيخلفه الزمان. قد نجد

---

(١) في كتاب «قصص من الحياة» (مجاهد).

في كرم النفس وكرم اليد مثله، وقد نلقى مَن له مثلُ مكتبته ومثل ولعه بالكتب ومن له مثل معرفته بالرجال، ولكن أين مَن جمع من هذه كلها ومن خِلال الخير مثلَ ما كان للشيخ محمد نصيف؟

* * *

أبو الحسن النَّدْوي

كتبت سنة ١٩٨٦*

عرفت من مطالعاتي أُسَراً تَوارث أبناؤها العلم فكانوا وكان نساؤهم من العلماء، كأسرة «آل قدامة» الذين منهم مؤلّف «المغني» أعظم كتب الفقه الإسلامي وابن أخيه صاحب «الشرح الكبير» والحافظ صاحب «المختارة» التي هي أصحّ كتب الزوائد على الصحيحَين، ولقد أُولِعت زمناً بتتبّع تاريخ هذه الأسرة فحصل معي من سِيَر نسائها العالِمات (فضلاً عن رجالها العلماء) أكثر من إحدى عشرة سيرة.

ولو عددت من هذه الأسر أسرة أبي الحسن النَّدْوي لما أبعدت، فأبوه مؤرّخ الهند حقيقة، وقد استفدت من كتابه العظيم «نزهة الخواطر» فوائد جليلة في تراجم عظماء الهند التي أودعتُها كتابي «رجال من التاريخ». وأخوه عالِم طبيب، وأخته مؤلّفة ولها ترجمة «رياض الصالحين»، وأخته الأخرى عالمة وهي أم لعلماء

* استخلصتُ هذه الترجمة من المقدمة الطويلة التي كتبها جدي لمذكرات أبي الحسن الندوي (في مسيرة الحياة) وهي منشورة في الجزء الثامن من «الذكريات» بطول ثلاث حلقات (مجاهد).

كلهم اسمه محمد، عرفت منهم محمداً الرابع الذي كان شاباً يوم زرت الهند، وكان -جزاه الله خيراً- يمشي معي يدلّني ويأخذ بيدي ويترجم لي.

* * *

كانت أول معرفتي بأبي الحسن من كتابه «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين؟». لمّا رأيت هذا الكتاب لم أكُن أعرف مؤلّفه فقلت: مَن هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي ويُحيط هذه الإحاطة بأحوال المسلمين؟ ثم علمت أنه هندي المولد ولكنه عربي الأرومة، وكم من العرب الأقحاح الذين عُرفوا بألقاب فارسية أو أعجمية.

وكنت أحسب أن «النَّدْوي» لقَب أسرة يجمع بين أفرادها النسب، وكنت أسأل: ما قرابة السيد سليمان الندوي (الذي كان من أعاظم من كتب في السيرة) والسيد أبي الحسن؟ ثم علمت فيما بعد أنهم لا يجمع بينهم النسب، وإنما يجمع بينهم العلمُ والأدب وهذا المعهدُ الذي ينتسبون إليه. وأنا لا أعرف أهل معهد أو مدرسة لهم تعلُّق بمعهدهم أو مدرستهم كتعلق النَّدْويين بنَدْوتهم، ينتسبون إذا انتسبوا إليها لا إلى آبائهم، ويجتمعون عليها أكثر مما يجتمع أفراد الأسرة على أنسبائهم، فكل مَن دخلها حمل لقب «النَّدْوي» فعُرف به لا بلقب أهله. لا أعرف مثل ذلك إلاّ للأزهر، الذي انتسب إليه مِن طلبة العلم فيه جماعة فصاروا يُعرفون في بلادهم ويُعرف بنوهم من بعدهم بآل الأزهري.

وليس للندوة ما لقِدَم الأزهر ولا لها مثل أمجاده، ولكنها



أُسّست من أول يوم على التقوى؛ رُسم لها الطريق السوي فمشت فيه، فلا الطريق انحرف بها عن الغاية ولا هي قد تنكّبَت الطريق. كانت طريقاً وسطاً بين الأزهر بعدما شاخ وتخلّف شيئاً قليلاً عن الركب (ومعهد ديوبَنْد في الهند الذي أقيمَ على غراره ومشى يتبعه في مساره) وبين جامعة عُلَيكرة التي أنشأها أحمد خان لتساير الزمان، فلم تجمُد «الندوة» جمود ديوبند والأزهر القديم ولم تَسِل وتَمِع ميَعَان عليكرة، بل أخذت من طرفَي الأمور بأحسنها وكانت تجرِبة كتب الله لها النجاح.

وكان أبو الحسن هو المَثَل الأكمل لهذه الطريقة؛ أمسك الخَيرَين باليدين، فما أضاع القديم ولا أهمل الانتفاع بالجديد.

وإذا كان أول ما يؤخَذ على أكثر علمائنا ومشايخنا والدعاة إلى الله منا أنهم لا يُحسِنون لغة أجنبية فأبو الحسن يُتقِن ثلاث لغات إتقاناً كاملاً، الثلاث التي هي أكثر أَلسُن الأرض ناطقين بها: العربية والأوردية والإنكليزية، ويعرف فوقها الفارسية. وهو يهتمّ بالأدب الإسلامي، وقد أنشأ له هو وأخونا الأستاذ عبد الرحمن رأفت الباشا (رحمة الله عليه) وآخرون رابطةً تربط أهله، تجمعهم وتشدّ من أزرهم وتُعينهم في أمرهم.

وفي أبي الحسن والندويين عناية بالأدب. والدعوة لا تكون إلاّ باللسان والقلم، وقوامُ اللسان والقلم الأدب. وإذا كان من الأدباء الذين يُعرفون اليوم بالإسلاميين من يكتب ويقول غيرَ ما يعمل، ومنهم من كتب في الإسلام لمّا رأى الكتب الإسلامية مقصودة وبضاعتها رائجة فجعل يسوق ما يُعجِب السوق، فإن أبا الحسن وجماعته ملتزمون بالإسلام قولاً وعملاً، كتاباً وسلوكاً، يعملون ما يعملون ابتغاء رضا الله لا رضا الناس.

* * *

قرأت لأبي الحسن أولاً، ثم عرفته واتصل حبلي بحبله، في الهند ثم في موسم حجّ سنة ١٣٨١هـ، وكان من قبلُ قد قدم دمشق أستاذاً زائراً في جامعتها، وما كُتب لي أن ألقاه لأنني معتزل بعيد عن مجامع الناس، أمضيت شبابي في ذلك وامتدّ معي إلى شيخوختي، فأنا لا أكاد أخرج من داري ولا ألقى إلاّ نفراً من إخواني ومن أصحابي. فلما عرفت أبا الحسن في لكنو صار من النفر القليل الذين أَوْلَيتهم حبي واحترامي، والذين أنطلقُ حين

أكون معهم على سجيّتي، أظهر ما أُخفيه وأبدي ما أكتمه عن الناس.

ولعل من تتمّة الكلام أن أذكر كيف لقينا أبا الحسن في لكنو. كان ذلك في رحلة المشرق[1]، وكنا أنا والشيخ أمجد الزهاوي كلما جئنا بلداً وجدنا مَن يستقبلنا فيها ويدلنا ويأخذ بأيدينا، فلما وصلنا لكنو كنا مطمئنّين لأنها بلد صديقنا الحبيب أبي الحسن، ولكنا وصلنا فلم نجد في استقبالنا أحداً، لأنهم ترقبوا وصولنا بالقطار وانتظرونا في المحطة، لم يقدّروا أن نأتي بالطيارة!

ولم نكن نعرف لسان القوم لنكلمهم به، فوقعنا في لُجّة ما معنا فيها سفينة، ولا نحن ممن يحسن السباحة، فكيف ننجو منها؟ كيف نُقيم في بلد لا نعرفه ولا نعرف فيه أحداً ولا نُحسِن النطق بلسان أهله؟ واستعنّا بالإشارات وبكلمة «أوتيل» التي تُفهم في كل مكان، فأخذونا إلى فندق كبير له غرف واسعة تُطِلّ على منظر من أجمل المناظر التي رأيناها، تظلّله أشجار من أضخم ما رأيت في عمري من الأشجار، والقردة تلعب على أغصانها وتمرح فيها!

وأصبحنا من الغد والمطر نازل ونحن محبوسان في الفندق، لا المقصد الذي جئنا من أجله حققناه ولا صديقنا الندوي وجدناه، فضاق صدر الشيخ أمجد وطفق يأمرني بأن آخذه إلى

---

(١) أخبارها في كتاب «في أندونيسيا» وفي الجزأين الخامس والسادس من «الذكريات» (مجاهد).

أبي الحسن، يكرّر الأمر، يلين به تارة ويشتدّ به أخرى، يكرّره ثلاث مرات كل نصف ساعة! وأنا حائر لا أريد أن أغضبه ولا أعرف الطريق إلى أبي الحسن، ولا أعرف لسان القوم لأسألهم عنه ولا أجد حولي من يفهم عني فيترجم لي.

فلما نفد صبره قلت: أنا ذاهب أفتّش عنه. وما كنت أدري أين أفتّش عنه في بلد كبير، فأخذت سيارة وأشرت إلى السائق أن يمشي بي، وأنا أتأمل وجوه الناس، والسيارة تلفّ الشوارع والعداد يعدّ عليّ، وكلما عرض لنا مفرق طريقين أخذت الأيمن منهما، لست أدري إلى أين يوصلني.

ما زلنا نمشي حتى لمحت وجه شابّ وقع في قلبي أنه مسلم. وللمسلم نور في وجهه يُدرِكه المسلم، فوقفتُ السيارةَ وأشرت إليه، فأقبل عليّ فقلت له: السلام عليكم ورحمة الله. فأجاب بلسان عربي متين: وعليكم السلام ورحمة الله. فقلت له: أتعرف أبا الحسن الندوي؟ قال وقد انطلقت أساريره وبرقت عيناه: نعم، وأنا من تلاميذه، فهل أنت الشيخ أمجد أو الطنطاوي؟ قلت: أنا الطنطاوي. فأقبل عليّ معانقاً ومرحّباً، وتعانقنا وتصافح قلبانا. وأذكر أن اسم الفتى كان عبد المحسن، أحسن الله إليه إن كان حياً ورحمه إن كان قد سبقنا إلى لقاء الله. وأخذني إلى الندوة.

* * *

أرأيتم الضالّ في الصحراء جوعانَ عطشانَ قد هدّه وبرّح به التعب وكاد يصل إلى حافّة اليأس، وإذا هو أمام مضارب أهله ومنازل ذويه؟ أنا ذلكم الرجل. لقد كانت هذه إحدى الفرحات

التي فرحها قلبي طول عمري.

ولقيت أبا الحسن وصحبه وتلاميذه. ولا تزال بقايا تلك الفرحة تشرق في نفسي إلى الآن كلما ذُكِرَت أمامي لكنو، أو سمعت اسم الندوة أو اسم أحد من أهلها. حتى إنني كنت مرة في مقابلة إذاعية في الرائي، فسألني المحدّث عن المكان الذي أتمنى أن أقضي فيه بقية أيامي، قلت: إن لم أستطع أن أعود إلى بلدي، وبلدي دمشق، ولم أقدر أن أبقى بجوار بيت الله هنا في مكة، فإن أحبّ مكان إليّ هو لكنو، وأن أقيم في معهد ندوة العلماء، فأجمع فيها بين الظلّ والماء وصحبة العلماء.

ولم يرغّبني في دار الندوة جمال منظرها وحده، ففي الأرض مناظر كثيرة فيها ما ليس في لكنو من ألوان الجمال، بل لأن المُثُل العليا التي يطمح البشر إليها والدنوّ منها من قديم الأزمان إلى الآن



المسجد الجامع في لكنو

هي الحقّ والخير والجمال، والثلاثة فيها: الجمال في موقعها، والخير في أهلها، والحقّ في الغاية التي تعمل لها وتسعى إليها.

***

وبعد، فلقد عرفت أبا الحسن في مكة وفي المدينة وفي دمشق، وعرفته قبل ذلك في الهند لمّا زرت لكنو سنة ١٩٥٤، فوجدته في الأحوال كلها مستقيماً على الحقّ عاملاً لله، متواضعاً زاهداً زُهداً حقيقياً، لا زهد المغفَّلين الذين يعيشون وراء أسوار الحياة لا يدرون ما الدنيا ولا يعرفون ماذا فيها، بل زهد العالِم العارف بالدنيا وأهلها. فقد رأى الشرق والغرب وزار الأمصار والحواضر ولقي الكبار والصغار، وعاش صدر حياته في قصر صدّيق حسن خان العالِم السلفي الأمير الكبير، أسكنوه فيه بعد موت أبيه، فذاق حياة الترف والنعيم ولكنه زهد فيها، فزُهده ليس



لكنو: الجسر القديم على نهر غومتي

زهد الحرمان، ليس زهد الجائع الذي لم يجد الطعام فوطّن نفسه على فقده، بل زهد الذي فقد شهوة الأكل والأكلُ أمامه.

ولم أرَ فيمن عرفت من الناس من هو أبعد عن التكلّف وأقرب إلى البساطة منه، فهو يلبس أيسر لباس وأرخصه وأبعده عن الزهو والتعالي، قميص طويل تحته سراويل واسعة، وهو لباس أكثر مَن عرفت من علماء الهند. وهو يحضر المؤتمرات ولكنه يجتنب الفنادق الكبار التي يُنزِلون فيها الوفود وينزل في بيوت تلاميذه، وما أكثر هؤلاء التلاميذ.

وإذا كان مَن بنى حصناً أو قاد جيشاً عُدَّ من العظماء، فأبو الحسن بنى للإسلام من نفوس تلاميذه حصوناً أقوى وأمتن من حصون الحجر، بنى أمة صغيرة من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين.

* * *

محمّد محمود الصوّاف

كتبت سنة ١٩٦٤*

ذهبت إلى مصر سنة ١٩٤٥ بعد غيبة عنها امتدت سبع عشرة سنة، وحضرتُ حفلة أقامها لي ولمن جاء معي الشيخُ حسن البنا رحمه الله، مجدد الإسلام في هذا العصر. وكانت قد جمعتنا «دار العلوم» سنة ١٩٢٧، فما نسي وهو في أوج مجده رفيقَ صباه وتفضّل فأقام له هذه الحفلة.

وكان ممّن خطب فيها شاب جسيم وسيم بعمامة شامية لا تشبه عمائم المشايخ في مصر، وكان يهدر في خطبته ويقذف بكلماتها متدافعة متلاطمة كأنها النهر المزبد الجياش، وقد تورد من فرط الحماسة وجهه وتقاطر عرَقه. فسألت عنه فوصفوه لي

---

* القسم الأول من هذه المقالة هو المقدمة التي كتبها علي الطنطاوي سنة ١٩٦٤ لكتاب الأستاذ الصواف «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام» ، وقد ضمها أخونا الفاضل مجد مكي إلى كتاب «مقدمات علي الطنطاوي»، أما بقيتها فكانت في الأصل جزءاً من حلقة من حلقات الذكريات نُشرت في جريدة «الشرق الأوسط» سنة ١٩٨٥، ثم ضُمَّت إلى كتاب «رجال من التاريخ» في طبعته الجديدة (مجاهد).

بإعجاب وعرَّفوه بفخر، وإذا هو طالب موصلي يدرس في الأزهر اسمه محمد محمود الصواف. وتقصيت خبره، فعلمت أنه أعدى بحماسته مَن كان حوله في الأزهر من مدرسين وطلاب وبَثَّ فيهم من شبابه روح الشباب، ثم اتصل بالشيخ البنا فكان من أوثق الشبان صلة به وأدناهم منزلة من قلبه.

ثم رجعت من تلك السفرة إلى الشام فسمعت أنه أكمل دراسته ورجع إلى العراق، ولم ألقَه في تلك السنوات إلّا في زيارته لسوريا، فكنت أسمع منه من أخبار النهضة الإسلامية التي أحدَثَها في العراق مثل الذي كنت أسمعه عنه، إلى أن كان المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس سنة ١٩٥٣.

وكانت الدعوة إلى هذا المؤتمر من «جمعية إنقاذ فلسطين» في بغداد وبطاقتها مذيَّلة باسم أمجد الزهاوي ومحمد محمود الصواف، ونفقات المؤتمر عليها. وعلمت أن هذه الجمعية ثمرة من ثمرات نشاط الصواف، وأنها قد أمدَّت مجاهدي فلسطين بالمال والسلاح وبعثت إليهم بالمجاهدين الذين درّبتهم على القتال وأَعَدَّتْهم له.

والشيخ أمجد الزهاوي هو عالم العراق وهو بركة العصر[١]، ما أعرف مثله في اهتمامه بأمور المسلمين وحمله المشاقَّ في سبيل القضية الإسلامية، على عُلوّ سنه وكثرة ماله. وكان يستطيع -لو شاء- أن يقضي شيخوخته في راحة ودعة، ولكنه آثر الجهاد

---

(١) مَن شاء فليقرأ المقالة اللطيفة عنه في كتاب «رجال من التاريخ» (مجاهد).



على القعود، وإنفاقَ المال على الدعوة على إنفاقه في المتعة والرفاهية.

ومن الحق أن أقرر أن للصواف عملاً كبيراً في نشاط الشيخ وجهاده، فلقد كان معتزلاً منصرفاً إلى العلم والتعليم، أمضى في ذلك شبابه، فلما اتصل به الصواف كان للشيخ من شيخوخته شباب يعجز عن مجاراته فيه أقوياء الشبان.

* * *

وانعقد المؤتمر، وكان الصواف لولبَه ومحرِّكَه، لا يفتر ولا يستريح. ثم كان من ثمراته أن أوفد وفداً يطوف بالعالم الإسلامي، يؤسس المكاتب لنصرة فلسطين ومساعدتها وإمدادها بالمال.



وكان الوفد مؤلفاً من الشيخ أمجد والصوّاف وأنا، ثم اضطَرَّت الصوّافَ ظروفُ الدعوة أن يعود من كراتشي إلى بغداد[١]، ومشينا نحن إلى الهند والملايا وأندونيسيا. ومن أحب أن يعرف طرفاً مما صنعنا فليقرأ مقدمة كتابي «في أندونيسيا»، وقد صنعنا بحمد الله

(١) أخبار المؤتمر في الجزء الخامس من الذكريات، وفيها: "وكان معنا الشيخ محمد محمود الصواف، هو يدبّر أمرنا ويزيح عِلّتنا ويكفينا مؤونة الحِلّ والترحال ويهيّئ لنا كل شيء، فلما رجع مضطراً من كراتشي إلى بغداد بقيت أنا والشيخ أمجد رحمة الله عليه وحدنا. فتصوّروا اثنين كان أمهرَهما وأخبرَهما بشؤون الحياة أنا الذي لا خبرة لي فيها ولا أملك من المهارة شيئاً! (الذكريات ٥/١٢١) (مجاهد).

كثيراً لفلسطين، وإن كنا (والحمد لله مرة أخرى) قد قررنا أن لا نستلم شيئاً من الأموال وأن نكتفي بالدعوة إلى الإنفاق، ومن شاء أن ينفق أرسل ما يتبرع به إلى مكتب المؤتمر في القدس.

بدأنا هذه الرحلة بالسفر من الأردن إلى العراق، فوصلنا الرمادي قبيل الفجر في ليلة باردة ممطرة من ليالي كانون، ذات رياح تلفح الوجوه، وإذا نحن نجد مئات من الشبان قد جَفَوا فُرُشهم الدافئة وتركوا بيوتهم المريحة، وذهبوا في الطرق في هذه الليلة الفظيعة ينتظرون الصواف لمّا سمعوا بقدومه.

ثم ما كنا ندخل بلداً ونحن في الطريق إلى بغداد إلا وجدنا مئات من أمثالهم. بغداد التي كنت أدرّس فيها والتي أقمت فيها من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ فما كنت أجد فيها من المتدينين إلا طائفة من المشايخ، وما كان فيها من الجمعيات إلا «جمعية الشبان المسلمين»، وما لها من عمل إلا أنها تقيم كل سنة مهرجاناً للمولد ثم إذا انقضى نامت إلى المولد القادم، و«جمعية الهداية الإسلامية» التي كان يقوم عليها الشيخ الطائي[1]. وأشهد أن الطائي كان يتحرق ألماً لحال المسلمين في بغداد يومئذ ويعمل كل ما يستطيع، تعطل الحكومة مجلة «الهداية الإسلامية» فيخرجها باسم

(١) الشيخ كمال الدين الطائي. أسس جمعية الهداية الإسلامية ورأسَ تحرير المجلات التي أصدرتها: «الهداية» ثم «صدى الإسلام» ثم «الصراط المستقيم» ثم «تنوير الأفكار» ثم «الاعتصام» ثم «الكفاح» ثم «لسان الهداية». اعتُقل سنة ١٩٤١ بسبب نشاطه الإسلامي وبقي في الاعتقال ثلاث سنوات، وتوفي سنة ١٩٧٧ رحمه الله (مجاهد).

«الصراط المستقيم» فتعطلها الحكومة فيصدر «الكفاح»، وكنت أكتب فيها أحياناً، ونجتمع فنتشاكى ونتباكى ولكن لا نقدر على شيء.

فلما عدت مع الصواف ودخلت دار «جمعية الأخوّة الإسلامية» ووجدت فيها الآلاف من الشبان وتذكرت الآلاف التي رأيناها في المدن والقرى على الطريق لم أصدق أنني في بغداد، وعرفت مبلغ التوفيق الذي كتبه الله للصواف حين حقق هذا كله على يديه[١].

وللصواف أثر في كل بلد إسلامي، فما بلد إلا ويعرف من رجال الدعوة فيه والعاملين من علمائه أكثر مما يعرف أبناؤه. وأشهد أنه طالما عرفني بناس من الدمشقيين في دمشق أعيش معهم من نصف قرن، فما عرفتهم حتى جاء هذا «الشيخ الموصلي» فعرَّفَني بهم!

ولقد جلت معه في كثير من بلدان المسلمين، فما يكاد يلقى أحداً حتى يخاطبه باسمه ويخوض معه في خاصة أمره. ولا

(١) قال في الذكريات (ح١٤١): أخذوني إلى دار الأخوّة الإسلامية في باب المعظم، فإذا دنيا جديدة وإذا ناس غير من عرفت من الناس، كأنني كنت في جاهلية وأدركت الإسلام: شباب مؤمنون صالحون إنْ سلَكَ أمثالُهم طرقَ الغواية واللذّة سلكوا هم طرق العبادة والصلاح، يَدَعون هوى نفوسهم لطاعة ربهم، مجالسُهم أنس وحديثهم عبادة وصحبتهم خير وبركة. أين كان هؤلاء قبل سبع عشرة سنة لمّا كنت أدرّس في العراق؟ كيف كانت هذه النهضة الإسلامية؟ جزى الله الشيخ الصواف الذي يرجع إليه بتوفيق الله وبنعمته الفضل فيها (٥/٢١٤) (مجاهد).

أعرف مَن أوتي مثل هذه الحافظة للأسماء إلا الشيخ البنا، أما أنا فأعرف الرجل اليوم باسمه، فإذا لقيته بعد يومين نسيت اسمه وتذكرت وجهه، وأما الشيخ الزهاوي فينسى الرجل واسمَه بعد ساعة واحدة! وإن كانت له مزايا أخرى أجلّ وأكبر لا يتعلق بها واحد منا.

ولما أشيع أن الشيوعيين (على عهد قاسم في العراق) قتلوا الصواف أذعتُ رثاءه من إذاعة دمشق، فلما جئت أقول «رحمه الله» ما طاوعني لساني وغلبني البكاء، فبكيت وأبكيت الملايين من السامعين، لما للصواف في قلوبهم من الحب، الحب لله لا للدنيا، وليس لأكثرهم صلة به وما عرفوا وجهه! وبلغ من ذلك أن زوجتي لما سمعت أن الخبر قد يكون مكذوباً نذرت أن تذبح لله كبشاً إن تحقق كذبه، وقد وفت بهذا النذر.

* * *

وبعد[1]، فلقد أقمت في العراق سنين مدرّساً فيها، من سنة ١٩٣٦، أتنقل ما بين البصرة في أقصى الجنوب إلى كركوك في الشمال، ولكني لم ألقَ الصواف ولم أسمع به. وأنَّى لي لقاؤه أو معرفة اسمه وقد كان طالباً يمشي مع الآلاف والآلاف من أمثاله

---

(١) ما بقي من هذه المقالة منقول من مقالة «أأمجد الزهاوي» المنشورة في كتاب «رجال من التاريخ». وهي في الأصل حلقة من حلقات الذكريات كان موضعها بعد الحلقة ١٣٨ في الجزء الخامس، ولكن جدي آثَرَ بها كتاب «رجال» لأن أكثرها عن الشيخ أمجد، فنقلها إليه في طبعته الجديدة التي طبعتها دار المنارة سنة ١٩٨٩ (مجاهد).

في طريق بعيد عن أضواء الشهرة، ثم تفجرت مناقبه فذهب إلى مصر طالباً، ولم يكن في سن الطلاب، بل كان كبيراً، أحسب أنه كان في الثلاثين من عمره، وقد أودع الله صدره من الحماسة نبعاً لا يغيض.

وكل امرئ يأتي عليه حين من زمانه تتفجر فيه حماسته ثم تهدأ، كالبركان يثور ثم يخمد والريح تهبّ ثم تركد. والصواف بركان ظل أبداً نشطاً عاملاً؛ لقد بلغ الآن السبعين[1] ولو حاول أن يصبغ لحيته وأن يستر شيبته، ولا يزال -إن كلّمك- تورّدَ وجهُه وعلا صوتُه وهدرت كلماته وظهرت حماسته.

أمّا أثره في العراق فأرجو أن لا يكون حديثي عنه سبباً في نقص ثوابه من الله، وما أظن أنه عمله إلا له وحده ولا طلب جزاءً إلا منه وحده. وأنا إن مدحته فما أمدحه رغبة، وليس عنده شيء أرغب فيه، ولا رهبة، وما لديه ما أرهبه أو أخافه منه، ولو نظمت ديواناً في مدحه وهو حي أو ديواناً في رثائه وهو ميت لما نفعه ذلك ولا ضَرَّه، ولَعَملُ مثقال ذرة من الخير وترك مثقال ذرة من الشر أجدى على الإنسان وأرجح من ذلك كله في الميزان.

* * *

(١) أي وقت نشر هذه المقالة سنة ١٩٨٥، وقد توفي بعدها بسبع سنين، رحمه الله (مجاهد).

ناجي الطنطاوي*

أمامي الآن كتاب أُنجز طبعه ولم تُخَرّم كراريسه ولم يوضَع غلافه، اسمه «كلمات نافعة»، حملته إليّ «دار المنارة» في جدة لأقدّم له مقدّمة. هذه الكراريس التي وُضعت أمامي لكتاب ألّفه أخي ناجي، القاضي من قبلُ في الشام والمستشار الشرعي الآن في وزارة الأوقاف هنا من نحن ربع قرن، فكيف أكتب مقدّمة لكتاب لأخي؟

كنت أعرف عن مؤلّفي الكتب التي أقدّمها القليل فأصوغ منه الفصل الذي يطلبونه، ولكنني اليوم حيال حياة طويلة أخبارها كلها ماثلة لعيني، أعرفها من يوم وُلد سنة ١٣٣٢هـ (وكان عمري نحو ستّ سنين) إلى حين بلغتُ الواحدة والثمانين، فهل يمكن أن أختصر حياة طولها خمس وسبعون سنة حتى أُدخِلها في خمس صفحات تكون مقدّمة لكتاب؟

حياة رأى فيها ورأيت مثل ما يرى الناس جميعاً: أياماً

---

* كتب علي الطنطاوي هذا الفصل مقدمةً لكتاب أخيه ناجي سنة ١٩٨٧، ثم نشره في حلقات «الذكريات» التي كان ينشرها في «الشرق الأوسط» في ذلك الوقت، وهو آخر ما نُشر منها (راجع الحلقتين الأخيرتين من الجزء الثامن والأخير) (مجاهد).

بيضاً وأياماً سوداً، عرفنا فقراً وإن لم يبلغ حدّ الحاجة، واكتفاءً وإن لم يصل إلى منزلة الغنى. عرفنا السرور عن طريق الحلال وعرفنا الكدر، ورأينا أزواجاً وأشكالاً من البشر، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم الوفي ومنهم الغادر، ومنهم الأمين ومنهم الخَؤون. حياة تبدّلت فيها الدنيا التي نشأنا فيها مرّات، دالت دول وحالت أحوال، ومات أقوام ووُلد أقوام، وبادت مذاهب في الفكر وفي الأدب ونشأت مذاهب، وكانت حرب وكان سلام... فما دام سرور وما دام كدر، وما دام نفع وما دام ضرر.

كان عالَمنا صغيراً ولكنا كنا نراه -على صغره- كبيراً. لم يكُن عندنا إلاّ القليل، ولكننا كنا راضين بقليلنا. كانت مسرّاتنا محدودة، ولكنا لم نكن نطمح إلى أكثر من تلك المسرّات. لقد كنا سعداء، ولكن لم ندرك (إلا الآن، بعدما فات الأوان) أننا كنا سعداء.

يحسب الإنسان أنه كلما زاد ماله واتسع اطّلاعه وعلَت منزلته كبرت سعادته، وينسى أن السعادة هي قِصَر المسافة بين ما تجده وما تتمناه؛ فمن كان يجد عشرة ويتمنى عشرين فسعادته تنقص عشرة، ومن كان معه ألف وهو يطلب ألفين فنقص سعادته ألف. فنحن نَحِنّ إلى أيام الطفولة ونتمنى عودتها ونأسى على فَقدها لأننا لم نكن نطلب فيها إلاّ القليل. ولست أريد أن ينشأ الشباب بلا طموح، فقد صدق شوقي لمّا قال:

شبابٌ قُنَّعٌ لا خَيرَ فيهمْ   وبُورِكَ في الشّبابِ الطامحينا

* * *



كان عالمنا بيتنا الصغير في الحارة الضيقة في حيّ في طرف دمشق، بلغ من ضيق الحارة أنه لو مشى فيها اثنان ومدّا أيديهما لنالا جانبَيها. والمسجد الصغير الذي كان أبي إمامه، فلما توفّاه الله ولّوني أنا الإمامة وأنا لم أكمل السابعة عشرة، فقالوا لي: لا بدّ للإمام من عمامة (وإن لم يكن قد اشترطها الشارع ولا أوجبها الدين) فأدرتُ على طربوشي عمامة فصرت شيخاً صغيراً. قالوا: ولا بدّ له من لحية. قلت: العمامة أتينا بها من عند البزّاز (أي بائع القماش) فمن أين آتي باللحية؟

فإذا أردنا تبديلاً ذهبنا إلى بيت خالتي أم المشايخ: الشيخ شريف والشيخ سهيل والشيخ طه وثابت. وهي الشقيقة الكبرى لمحب الدين الخطيب التي ربَّتْه وكانت له أماً بعد أن فقد أمه

طفلاً. كان بيت خالتي عند المدرسة البادرائية، بين الأموي وباب السلام. وكان مثلاً عجيباً للبيوت الشامية المتداخلة: يركب من جهة على بيت الجيران، له الطابق الأرضي وما فوقه للجيران، وهم يركبون ظهره من الجهة الأخرى فيكون السفل لهم وما فوقه له. ويدخل في بيت عمّي بيتُ جيرانه من الجهة الثالثة، فيكون له الوسط ولهم ما تحته وما فوقه! هندسة عجيبة. والبيوت متصلة السطوح، حتى إننا كنا نستطيع أن نقطع الحيّ كله من أوله إلى آخره من غير أن نضع أقدامنا على الأرض.

وكنا إذا أردنا نجعة أكبر وتبديلاً أكثر ذهبنا إلى بيت عمّي الأكبر الشيخ عبد القادر (الذي كان المرجع في علم الفلك الإسلامي) وكان منزله في العفيف في أوائل حيّ المهاجرين. وقد أنشأ هذا الحيَّ الأتراكُ للمهاجرين من أهل إقريطش (كريت) وما والاها لمّا غلبهم الكفار على أرضهم وانتزعوا منهم جزيرتهم، وكان موضع «المهاجرين» ممتلئاً بالمدارس، تقوم صفاً متصلاً على كتف نهر يزيد متجاورة لا يكاد يُحصى عددها، من الصالحية إلى السفح المطلّ على الوادي. فإذا رمينا بأبصارنا إلى بعيد وبلغناه بخيالنا تصوّرتُ مصر وفيها خالي محب الدين الخطيب، وإسطنبول وفيها عمّي الشيخ عبد الوهاب، يلاحق قضية لنا مع آل الصلاحي بقيت في المحاكم بين دمشق وإسطنبول ثلاثاً وثمانين سنة.

وكانت أمي رحمها الله تُلزِمني أن أكتب إلى أخيها رسالة، وكان ذلك سنة ١٣٣٥هـ لمّا بدأت أتعلم الكتابة وأنشئ الرسائل. تقول لي كل يوم، وربما كرّرت لي القول مرتين في اليوم: "يا

علي الله يرضى عليك، اكتب لي «مكتوباً» إلى خالك في مصر". ولم يكن يُرضيها أن تكون الرسالة من إنشائي أنا، فلم يكن يعجبها إنشائي، بل أن أختار لها ديباجة حلوة من كتاب «الإنشاء العصري»، وكان يشتمل على جميع أشكال الرسائل: رسائل الاستعطاف والاعتذار والتهنئة والتعزية، التي تُرسَل إلى الوزراء أو الرؤساء أو الأهل والأقارب أو الإخوان أو الأصدقاء.

وتقول لي: "اقرأ الديباجة حتى أسمعها"، لأنها رحمها الله لم تكن تقرأ أو تكتب، مع أن عمّتي (وهي أسَنّ منها بخمس عشرة سنة) كانت تكتب وتقرأ وتحفظ كثيراً من آيات الكتاب ومن أحكام الفقه، وكانت قد تعلّمته من رسالة لمحمود الحمزاوي، أشهر مُفتٍ في دمشق في القرن الماضي، اسمها «علم حال»، وهو كُتَيّب في أصول الدين وأصول الفقه وفي الحلال والحرام وفي الآداب والأخلاق وضعه لتلاميذ المدارس الابتدائية، ولم يكونوا يفهمون منه شيئاً، فكانوا يحفظونه غيباً ويردّدونه كما تردّد الببغاء ما يُلقى عليها! وكانت عمّتي مع أول فوج تَخرّج في مدارس البنات التي أُنشئت بهمّة الشيخ طاهر الجزائري في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وكان تاريخ شهادتها سنة ١٣٠٠هـ.

أقول (وأعود إلى الموضوع بعد أن خرجتُ عليه): إن أمي كانت ترتضي الديباجة فتكلّفني نقلها من الكتاب إلى الورق ثم إرسالها إلى أخيها، فمكرتُ يوماً فكتبتُ إليه: "السلام عليكم ورحمة الله، نحن بخير، والرسالة في الصفحة كذا من كتاب «الإنشاء العصري». أقول هذا توفيراً لوقتك ووقتي وتسهيلاً عليك وعليّ". فرَدّ عليّ مسروراً بما فعلت بكتاب لا يزال عندي، يثني

فيه على فعلي لأنني -كما قال- حفظت له وقته.

* * *

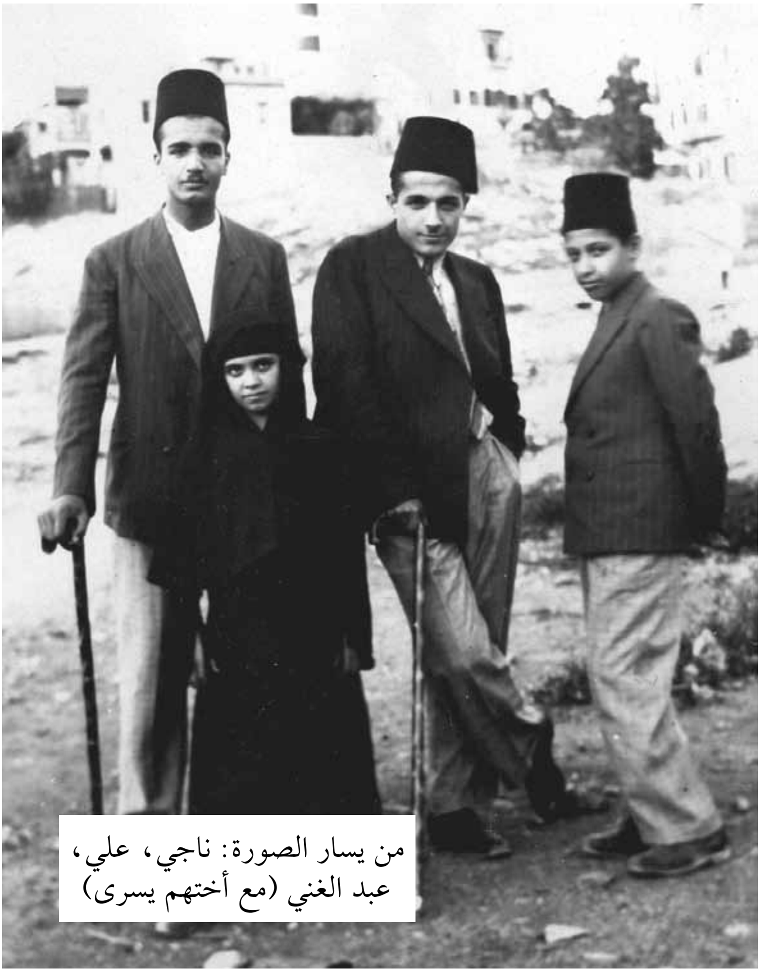
يا لله كم تبدّلَت الدنيا من تلك الأيام إلى الآن! ذهب عالَم وجاء عالم آخر. كنت أصدر سنة ١٣٤٨هـ رسائل متتابعة اسمها رسائل «في سبيل الإصلاح»، جعلتُ إحداها صورة أدبية خيالية لِما تكون عليه دمشق بعد تسعين عاماً وجعلت ذلك عنوانها، أفتدرون ما الذي كان من ذلك مما نراه الآن، لا بعد تسعين عاماً بل بعد ستين فقط؟ إن الذي تصورتُه بخيالي الجامح الذي لا يقف عند حدّ لم يبلغ ربع ما وقع الآن.

الدنيا التي عاش فيها أبي ووُلدتُ فيها أنا وأخي ناجي ما زالت تُنقص من أطرافها وتتغير معالمها حتى لم يكَد يبقى منها إلاّ أقلّ من القليل، وجاءت دنيا جديدة. فلو أن أبي بعثه الله من مرقده الآن لَما عرف كيف يمشي في دمشق ولا عرفه أحدٌ من أهل دمشق، ولغدا جاهلاً بها مجهولاً من أهلها، وقد كان علَماً من أعلام علمائها. ولرأى ولده سعيداً الذي تركه ابنَ ثلاثة أشهر صار في الخامسة والستين. ولقد غدونا كلنا -نحن الإخوة الأربعة وأختان لنا- كلنا صرنا أكبرَ سنّاً من أبينا ومن أمنا اللذين قضيا ولم يجاوز أكبرُهما الثالثةَ والأربعين. فهل رأيتم أو سمعتم بأولاد أسنّ من أبويهم؟

* * *

أنا إنما أنشأت هذا الفصل ليكون مقدّمة لكتاب من كتب أخي ناجي. وناجي وأخواه عبد الغني وسعيد كلهم أنبغ

مني، ولكني خطفتُ الأضواء منهم (كما يقولون في التعبير الحديث). دخلت حلبة المصارعة (وما الحياة إلا مصارعة) بطبل وزمر وضجّة وصخب؛ نشرتُ سنة ١٣٤٨هـ «رسائل في سبيل الإصلاح» فانتقدت فيها المشايخ وأساليبَهم في التدريس واختيارهم للكتب وبُعدَهم عن العلوم الجديدة، ثم أصدرتُ



من يسار الصورة: ناجي، علي، عبد الغني (مع أختهم يسرى)

السنة التي بعدها «رسائل سيف الإسلام» التي كانت تُطبع على نفقة طائفة من خيار التجار وتوزَّع بالمجان، هجمتُ فيها على الشبان الجاحدين كما هجمت في الرسائل الأولى على الشيوخ الجامدين، فوضعتُ نفسي بين حجرَي الرحى، وصرت كالواقف في الحرب بين الصفّين يتلقى السهام من الجانبَين.

نبّهت الناس إليّ فظلمتُ إخوتي الذين هم أنبغ مني؛ ذلك لتعلموا أن الشهرة ليست مقياس العظمة ولا المدار عليها في تقدير قِيَم الرجال. لقد عرفت الشهرة وذاع اسمي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، وتحت يدي الآن العدد الأول من مجلة «البعث» التي كنت أُصدِرها من نحو ستين سنة، قبل أن يولد حزب البعث وقبل أن يتخذ لنفسه هذا الاسم. في هذا العدد الذي صدر في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ قصيدة لشاعر لم يصرّح باسمه، ولكنْ وقّع في ذيل قصيدته باسم «أبو النضر». جاء فيها:

وَيلٌ لِمَن ملَكَ القويُّ قِيادَه ... وغدا يُبدّدُ مالَهُ وبلادَه
ويُذيقُهُ مُرَّ العذابِ وليسَ مَنْ ... يُنجيه من مَضَضٍ أذابَ فؤادَه
ما للقويِّ سوى الضعيفِ فريسةٌ ... والذئبُ يَلقى في الشياه مُرادَه
يعدو على الحَمَلِ البريءِ مُقادِعاً ... فيُريه منه البِشْرَ كي يَصطادَه
فِعلَ الفِرَنْجَةِ بالضّعيفِ منَ الشعو ... بِ، توَدُّهُ إذ تبتغي استعبادَه
يا شرقُ فاذكُرْ عهدَ عِزٍّ قدْ مضى ... كيما تُعيدَ إلى الوجودِ تِلادَه
أيامَ كانَ العِلمُ فيكَ ونورُهُ ... يَهدي ببازغِ شَمسِهِ رُوّادَه
أيامَ كنا للوجودِ أئمّةً ... ونُري الوجودَ ضَلالَهُ ورَشادَه
اُذكُرْ أُسودَ اللهِ مَنْ حكَموا الورى ... بسيوفِهِمْ يتسلّمونَ قِيادَه

وانظُــرْ ديارَهُــمُ تراهــا بَلْقَعاً　　والغربُ يُــؤوي ربعُها أجنادَه
ملَكوا أئمّتَها وســاموا شعبَها　　خســفاً وهدّوا ظالمينَ عمادَه
الضَّعفُ في شَرعِ الحياةِ جريمةٌ　　يا وَيلَ مَنْ ملَــكَ القويُّ قِيادَه

أترون هذه الأبيات؟ فلمن تحسبونها؟ إنها لطالب في الثانوية في السابعة عشرة من عمره، وأكثر طلاب الثانوية الآن في كثير من البلدان لا يستطيعون قراءة أمثالها بلا خطأ.

وفي عدد جمادى الأولى ١٣٥٢هـ من مجلة «الرسالة» قصيدة مترجَمة شعراً عن أندريه شينيه، الشاعر الفرنسي المولود في إسطنبول سنة ١٧٦٢، وهو شاعر معروف. وترجمة الشعر شعراً مع المحافظة الممكنة على المعنى من أصعب الصعاب. عنوان القصيدة «اللقاء العجيب»، هذه أبياتها تصوّر الشاعر العاشق وصاحبتَه تائهَين في الغاب، كُلٌّ يطلب الآخر ولا يجده ويبحث عنه ولا يصل إليه، فتقول هي:

أيها الغابُ، هل رأيتَ حبيبي　　قُربَ ماءِ الغديرِ عندَ الغروبِ؟
كمْ صباحٍ أتاكَ بلْ كمْ مســاءٍ　　عندَ همسِ الصَّبا وشدوِ الجنوبِ؟
سوفَ أُصغي لكلِّ صوتٍ بعيدٍ　　فلعلّي أحظــى بِهِ مِــنْ قريبِ

ويقول هو (وهو في الجهة الأخرى من الغاب، لا يراها ولا يعرف مكانها):

إيــهِ يا موجــةَ الغديرِ ســلاماً　　يا عروسَ الماءِ النّميرِ السَّكوبِ
اِحمِلي لي حبيبتي فهْيَ عندي　　زهرةُ الحبِّ، فَوقَ غُصنٍ رطيبِ
كمْ لثمتُ العشبَ الذي وطِئَتْهُ　　قدماها في الغاب دونَ رقيبِ

هي:

آهِ لــو يعلَمُ الحبيبُ بشــوقي وحنينـــي وحُرْقتي وشُــحوبي
هلْ أراهُ في الغابِ؟ إنّ خيالي لَيراهُ في ذا المــكانِ الرّحيبِ
ســوفَ أدعوهُ بابتسامٍ وعطفٍ فعســاهُ يكــونُ يومــاً مُجيبي

هو:

رَبِّ هبْ لي رُحماكَ صبراً جميلاً إنّما الصبــرُ جنّــةُ المَكْروبِ
هــلْ أتاهــا أنّي لَيخفِــقُ قلبي لِسَماعِ اسمِها الجميلِ الطَّروبِ؟
ســأنادي دوماً بصوتٍ حنونٍ علّها أن تُجيبَ صوتَ الحبيبِ

هي:

آهِ إنــي لمَحتُــه فأعِنّــي يا لساني في ذا اللقاءِ الرهيبِ
أهُنــا أنــتَ؟ إنّ ذا لَعجيــبٌ أنا وحدي في ذا المكانِ الرّحيبِ
لم أفكّــرْ فــي أن أراكَ ولكنْ جُزتُهُ نحــوَ بيتِــيَ المحبوبِ

هو:

أنا ألهو برؤيــةِ الموجِ وحدي وذُرى الزَّيْزَفونِ تجلو كُروبي
لم أفكّــرْ فــي أن أراكِ أمامي لم أفكّر في ذا «اللقاءِ العجيبِ»

* * *

هاتان المقطوعتان نُشرتا من نحو ستين سنة لطالب كان يومئذ في المدرسة الثانوية، هو أخي ناجي الطنطاوي. نظم بعدها ما لا يُحصى من المقطوعات ومن القصائد ولكنه لم يجمع منها شيئاً، ولولا أنني وجدت بعضه في مجموعة «الرسالة» ومجموعة مجلة «البعث» من قبلها لضاعتا فيما ضاع.

وناجي أحد الذين يجري الشعر على ألسنتهم كما يجري الماء، ينظمونه عفواً ويرتجلونه ارتجالاً. ولقد عرفت من الشعراء الكبار في هذا العصر مَن يرتجل، منهم الشاعر الكبير الشيخ عبد المحسن الكاظمي. قال له مرة الأستاذ خير الدين الزركلي في مصر: وجدت أبياتاً أحب أن تُجيزها. قال: هاتِ. فقرأ عليه أبياتاً من بحر الطويل وقافية الراء، فتدفّق الكاظمي بقصيدة من البحر والرويّ، فلما بلغ منها بضعة عشر بيتاً قال له خير الدين: لا لا، عفواً بل من البحر الكامل وقافية النون. قال له: هل تمتحنني يا خير الدين؟ وأجاز تلك الأبيات بقصيدة ارتجلها بلغَت أبياتها خمسة وأربعين بيتاً، تدفّق بها تدفّقاً من غير إعداد ولا تحضير، وحدّثني بها الأستاذ الزركلي رحمه الله والأستاذ أحمد عبيد.

وجُزتُ يوماً بأخي ناجي، وكان وحده في الدار يعالج شيئاً فيها. قلت: ماذا تصنع؟ قال: هذا القميص وجدتُه متوسّخاً فنزعته. قلت: هذا كلام موزون فأتمِم القصة. قال:

هذا القَميصُ معَ اللّباسِ وجَدتُه	متوسّـــخاً فنزَعتُـــه وخلَعتُـــه
ووجَدتُ قِدراً فارغاً فوضَعتُه	فيهـــا ومـــاءً صافيـــاً فنقَعتُـــه
ووضَعتُ «تَيْداً» فوقَهُ ومزَجتُه	وترَكتُـــهُ فـــي جوفِهـــا ونقَعتُه
وخرَجتُ منْ بيتي وقدْ أقفلتُه	ورأيتُ قُربي مسجداً فدخَلتُه
والفرضَ خلفَ إمامِـــهِ أدّيتُه	ومشَيتُ في سوقٍ هناكَ رأيتُه
متجـــوّلاً فيـــهِ وقـــدْ أحببتُـــه	ورجعتُ للبيـــتِ الذي خلّفتُه
وبدا القميصُ لناظري فأخذتُه	وبهمّـــةٍ وعزيمـــةٍ نظّفتُـــه

ومضى يكمل القصة على هذا النمط.

وما هذا بالشعر السامي ولا بالفن الرفيع، ولكنه -لسهولته ولقربه من الناشئة- يصلح أن يُتّخَذ لنظم الأشعار للأطفال كما يصلح للمسرحيات المنظومة.

* * *

وأخي ناجي شاعر وفقيه. ولا تَعجبوا أن يجمع رجل بين الفقه والفتوى والقضاء وبين الشعر منظوماً ومترجَماً عن لغة أخرى، فإن تاريخنا العلمي مترَع بأمثال هذه النماذج. وقد كان أبي فقيهاً، بل كان من صدور الفقهاء في الشام وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، وكان مع الفقه أستاذاً في الحساب يدرّسه لكبار الطلاب، فورثنا ذلك عنه نحن أبناءه الأربعة، فكنت أنا وناجي من المشتغلين بالفقه، وعبد الغني ومحمد سعيد من المهتمين بالحساب والعلوم.

أما عبد الغني فقد شهد له كبار أساتذته لما كان طالباً أنهم لم يروا فيمَن درّسوا من الطلاب في الشام أنبغ منه في الرياضيات. ولما أعلنوا عن بعثتين من الطلاب لدراسة الرياضيات والعلوم في باريس دخل المسابقة فكان الأول في الفرعين، فاختار الرياضيات، وكان ذلك سنة ١٩٣٧. وقضى سنتين في «السوربون»[١]، ثم قامت الحرب سنة ١٩٣٩ فحالت بينه وبين العودة فتأخر نيله الدكتوراه سنتين، وكان على كل حال أول من نالها في الرياضيات في سوريا. وأكثر أساتذة الرياضيات في الشام

(١) انظر مقالة «إلى أخي النازح إلى باريس» التي كتبها لأخيه عبد الغني، وهي في كتاب «صور وخواطر» (مجاهد).

من تلاميذه وممن تلقى العلم عنه، ولما بلغ سن التقاعد قدم المملكة فدرس في جامعة الملك عبد العزيز بجدة. ولما اهتم الناس بما دعوه «الرياضيات الحديثة» كان أوّلَ من درّسها وألّف فيها كتاباً هو المرجع فيها، وضّحها وعَبّدَ طريقها.

ومن الناس من آتاه الله القدرة على حل المعضلات وتوضيح الغامضات، وعبد الغني من هؤلاء، يمشي على طريق الغزالي من المتقدمين والشيخ عبد الوهاب خلاف والشيخ شلتوت من العصريين، يشرح أعقد القضايا فإذت هي واضحة سهلة قد انحلَّت عُقَدها وبان سبيلها.

وكانت لغته الأخرى هي الفرنسية التي تعلم بها في السوربون في باريس، فلما انصرف الناس إلى الإنكليزية درسها وحده حتى أتقنها إتقانه العربيةَ التي يكاد يُعَدّ من أساتذتها فهماً لها ومعرفة بها. ثم درس وحده الألمانية وصار يفهمهما ويعرف قواعدها، وهو أشد مني عزلة وابتعاداً عن الناس.

أما محمد سعيد فقد فاق المدرسة عقب المرحلة الابتدائية لأسباب صحية، فتركته يقرأ ما يريد، وجئته -ليتعوّد المطالعة ويألفها- بقصة عنترة، وهي تشتمل على أخبار الجاهلية كلها وفرسانها وأيامها، وإن لم تكن كتابَ تاريخ يُرجَع إليه ويُعتمَد عليه. ثم جئته بفتوح الشام (المنسوب للواقدي)، ثم صار يقرأ في كل موضوع، فلما بلغ الطلاب (الذين فارقهم لما ترك المدرسة) الشهادة الثانوية دخلها معهم، فكان من أوائل الناجين فيها، ثم تخرج في الجامعة من فرع الفيزياء وكان من أفاضل مدرّسيها

فهماً لها وتفهيماً لطلابها، مع اطلاع واسع على الفقه والحديث والتفسير والسيرة والتراجم، أي أن الله جمع له طرفاً من علوم الدنيا وطرفاً من علوم الدين.

❋ ❋ ❋

مشيت أنا وناجي في طريق واحد، ولكن القوافل شتى، فأنا في السابقة وهو في اللاحقة، المكان واحد ولكن الزمان متعدد. علمت في المدارس فجاء هو فعلّمَ فيها بعدي، ودخلت سلك القضاء ثم دخله على إثري، وكنت قاضياً في النَّبْك ثم في دُوما وكان قاضيهما بعدي، وجئت المملكة وجاءها كما جئتها.

لقد فتحت عليّ يا ناجي باب الذكريات، ولو دخلتُه لم أخرج منه ولبلغَت هذه المقدمة مئة صفحة، كانت فيها أيام لم تبق منها إلا ذكريات. وأين منا الآن تلك الأيم وأين من كان فيها من الأهل والإخوان والأصدقاء والخِلّان؟

لقد مضوا ونحن ناضون على آثارهم، فاللهم لك الحمد أن نَسَلْتَنا من أبوَين مسلمَين صالحَين وأن أنشأتنا في دار علم وتقى، ونسألك اللهم أن تجعل نهايتنا خيراً من بدايتنا وأن تختم لنا بالحسنى.

❋ ❋ ❋

كافور الإخشيدي*

أذيعت نحو سنة ١٩٥٥

لو سألت المثقفين من السامعين عن سيف الدولة الحمداني وعن كافور الإخشيدي لكان جواب الكثرة الكاثرة منهم بأن سيف الدولة هو الأمير المجاهد العظيم الكريم وأن كافور عبد ذميم بخيل شحيح، يرفعون سيف الدولة إلى ذروة البطولة ويهبطون بكافور إلى حضيض الهوان.

يظنون أن هذا هو الحق وأنه هو الصحيح، مع أن هذا الذي يقولونه باطل. إنه تزوير للتاريخ، زوَّرَه المتنبي في مدحه سيفَ الدولة وهجائه لكافور. ولقد كان سيف الدولة أميراً عربياً شجاعاً، نازل الروم وخاض معهم معارك كبيرة، وإن لم تكن من المعارك

* في كتاب «رجال من التاريخ» مقالة عنوانها «قراقوش المُفترَى عليه»، قال في أولها: "حدّثتكم من شهور حديثاً صحّحتُ فيه خطأً شائعاً وبرّأت فيه متّهَماً مظلوماً، حين رددت باطلَ المتنبي وبيّنت حقَّ المؤرخين في كافور، الملك العادل الذي صغّرَه المتنبي وهو عظيم". قلت: الحديث المُشار إليه في تلك المقالة هو هذا، وقد عثرت على مخطوطته مكتوبةً بخطّ الشيخ رحمه الله، فأدرجته استدراكاً في هذا الكتاب (مجاهد).

الكبرى الفاصلة، ولكنه كان ظالماً عابثاً بَطّاشاً سيّئ السيرة في الناس فاسد الطريقة في الحكم، أما كافور فكان من أعدل الملوك وأتقاهم وأحسنهم سيرة وأقومهم طريقة. هذا هو الحق الذي رواه المؤرخون الثقات، ولكن الناس تركوا حقائق التاريخ وأخذوا بأباطيل المتنبي!

هذه واقعة واحدة من هذه الوقائع التي تشبه القصص، فيها عظة وفيها عبرة، وفيها دلالة على سيرة كافور وعلى دينه وخلقه. وقد حدّث بهذه الواقعة أبو بكر المحلي الذي كان يتولى نفقاته.

قال أنه كان من عادة كافور أن يرفع مبلغاً من المال كل شهر يحفظه إلى يوم العيد، من ماله الخاص لا من أموال الدولة، فإذا كان يوم العيد وضع هذا المال في خُرْج[1]، ووضع الخرج على ظهر بغل من البغال القوية وسلّمه إلى أبي بكر هذا، ومعه قائمة فيها أسماء مئات ومئات من المستورين والمحتاجين، وأمره أن يأخذ معه مدير الشرطة ويدور على الأحياء. فإذا بلغ الحيّ دعا نقيبَه (أي شيخ الحارة) فسيَّرَه معه يدلّه على البيوت، فكلما بلغ بيت واحد ممّن دُوِّن اسمُه في القائمة قرع عليه الباب وأعطاه ما قَدّر له كافور من المال، بحسب حاجته وعدد أسرته، وقال: يسلّم عليك الأستاذ أبو المسك (وكان هذا لقب كافور الذي يُعرَف به) ويبارك لك ويقول لك: خذ هذا المال ووسِّعْ به على

(١) الخُرج حافظة جلدية كبيرة، وهي غالباً مزدوجة ذات عَدْلَين توضع على ظهر الدابة. وما تزال الكلمة مُستعمَلة في الشام بهذا المعنى إلى اليوم (مجاهد).

أهلك في هذا العيد.

فيأخذه ويدعو لكافور. ولا يزال ينتقل من حي إلى حي ومن دار إلى دار، يعطي كل من كتب كافور اسمَه في القائمة من رجل وامرأة، حتى يمضي أكثرُ الليل أو يطلع الفجر، لا يقف حتى ينفَدَ المال وتنتهي الأسماء.

* * *

وكان في مصر رجل صالح عابد معروف بالعلم وبأنه فقير لا يملك شيئاً، اسمه أبو عبد الله بن جابار. فجاء اسمه في القائمة في عيد من الأعياد. قال أبو بكر المحلي: فلما وصلنا إلى داره قرعنا عليه الباب، ففتح لنا، فسلّمنا، فردّ السلام وقال: ما حاجتكم؟

فقلنا له: الأستاذ أبو المسك كافور يُقرئك السلام.

قال: والي بلدنا؟

قلنا: نعم.

قال: حفظه الله. الله يعلم أني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات بما اللهُ سامعُه ومستجيبه إن شاء.

قلنا: قد بعث إليك بهذه الصُرَّة، وهو يسألك أن تأخذها لتنفق منها في هذا العيد المبارك.

قال: نحن رعيته ونحبُّه في الله، وما نريد أن تفسد هذه المحبة بالأخذ من دنياه.

فأصررنا عليه، فتضايق وبان على وجهه الضجر، فما أحببنا أن نحمله على ما يكره، فتركناه.

قال: فلما رجعت إلى الأمير (أي كافور) وكان قد تهيأ للذهاب إلى صلاة العيد وهو قائم ينتظرني، فلما رآني قال: إيه يا أبا بكر؟

قلت: أرجو أن يستجيب الله كل دعوة صالحة دُعيت لك في هذه الليلة المباركة، فلقد استبشرت القلوب بعطاياك وتهلّلت الوجوه، وانطلقت الألسنة بالثناء والدعاء.

قال: الحمد لله الذي جعلني سبباً لإيصال الخير إلى عباده.

وسألني عن الشيخ، فلما خبّرته بامتناعه قال: نعم، الحق معه، فإنها لم تَجْرِ بيننا معاملةٌ قبل هذا اليوم، ولكن ارجع إليه وحدَك واطرق بابه، فإذا خرج إليك وقال لك: ألم تكن عندنا قبل قليل، فلماذا رجعت إلينا؟ فلا تردّ عليه. سَمِّ اللهَ واقرأ عليه: ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتَشقَى، إلّا تذكرةً لِمَن يخشى، تنزيلاً مِمَّنْ خَلقَ الأرضَ والسَّماواتِ العُلى، الرحمنُ على العرش استوى، له ما في السّماواتِ وما في الأرضِ وما بينَهما وما تحت الثرى﴾. ثم قل له: يا ابن جابار، الأستاذ كافور يقول لك: إنه ما له من ذلك شيء، ومَن كافور العبد الأسود حتى يكون له مال؟ المال مال الله يا ابن جابار، ليس لأحد من الخلق شيء، فإذا رددتَ ما جاءك أفتدري على من تردّه يا ابن جابار؟ أنت ما سألت وما طلبت، وإنما هو الذي أرسل لك. أنت ما تفرّق بين السبب والمسبِّب؟

قال أبو بكر: فركبت وسرت، فطرقت بابه، فقال لي: ما الذي أرجعك إليّ؟ أما قلت لك إني لا أريد شيئاً؟

فلم أردّ عليه، بل قلت له مثلما أمرني كافور أن أقول، فبكى حتى ابتلّت لحيته وقال: أين الصرّة؟

قلت: هذه هي.

فمدّ يدَه فأخذها وقال: لقد علّمَنا الأستاذ كيف يكون التصوّف الحق.

فلما عدت إلى الأمير كافور وأخبرته بأنه أخذ المال سجد شكراً لله وقال: الحمد لله على فضله.

* * *

يا أيها السامعون: أرأيتم هذه الأخلاق وهذا التواضع وهذا الكرم وهذا الدين؟ هذا هو كافور الإخشيدي في نظر التاريخ الصحيح، فاعتبروا بهذه القصة ولا تصدّقوا ما قاله فيه المتنبي.

* * *

الواقدي

حديث أذيع يوم العيد سنة ١٩٦٠

يعرف العوام هذا الرجل بالكتاب المنسوب إليه المسمى «فتوح الشام»، أما الخواص فيعلمون أنه أكبر مؤرخ في القرن الثاني للهجرة وأكبر راوٍ للسيرة، وأنّ من بعض علمه كتاب «الطبقات» الذي ألّفَه كاتبُه[١] ابن سعد.

هذا العالم العظيم الذي ولي القضاء في بغداد وكانت له المنزلة الكبرى عند الخلفاء والأمراء كان في شبابه حَنّاطاً (تاجر حنطة). ذلك أنه نشأ في الحجاز، فأخذ عن علمائها ومحدّثيها وحفظ من الأحاديث آلافاً مؤلَّفة وجمع أخبار النبي ﷺ وسيرته. ولم يكن يكتفي برواية أخبار الغزوة من الغزوات، بل كان يذهب بنفسه إلى مكان الحادثة وإلى ساحة المعركة، فيطبّق ما سمع على ما يرى. ولما استكمل الطلب لم يمدّ يده إلى الناس ليعيش ولا طرق أبوابَ السلاطين ليُعطى، لأن العالم الذي يَذِلّ لأرباب الأموال وأصحاب السلطان ليأخذ منهم لا يستطيع أن يعظهم ويأمرهم وينهاهم، لأن عزّة الواعظ لا تجتمع مع ذلّة السؤال.

---

(١) أي كاتب الواقدي (مجاهد).

لذلك كان علماؤنا الأولون بين رجلين: رجل له أمواله يستغني بها ويعطي منها، كعثمان والزبير وعبد الرحمن من الصحابة وأبي حنيفة وابن المبارك والليث بن سعد من العلماء، ورجل كان يصبر على الضيق ويقنع بما عنده ولا يطلب غيره، كأبي ذر وأبي هريرة وسلمان، والفضيل وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري.

اشتغل الواقدي بالتجارة، واتسعت تجارته وكثرت أموال الناس في يديه، فجعل يضارب ويشتري ويبيع حتى جاوز عملُه رأسَ ماله، فأفلس كما يفلس كل تاجر يوسع عمله أكثرَ مما يحتمله مالُه. وضاقت به الدنيا وبلغ عجزه مئةَ ألف! من أين يأتي بمئة ألف يوفي بها ديونَه ويردّ بها على الناس أموالهم؟ ليس له إلا أن يقصد بغداد.

* * *

وكان في بغداد البرامكة، وكان البرامكة يعطون العطايا التي لا تُصدَّق أخبارُها. وقد اعتاد الناس أن يسمّوا ذلك منهم كرماً، مع أن فعل البرامكة وما كانوا يعطونه إذا أعطى مثلَه رجلٌ من ماله سُمي بلسان الشرع ولسان العقل مبذّراً وسفيهاً واستوجب الحَجْر من القاضي، فكيف وهم يعطون من أموال الأمة التي ائتُمِنوا عليها؟ يعطون أكثرَها للشعراء المَدّاحين الكذابين وللمغنّين وأمثالهم من الفاسدين المفسدين، ويَحْرمون منها كثيراً من المستحقين من أهل الصلاح والدين!

وليس الكلام عن البرامكة. إن عندي بحثاً أكتبه عنهم

وسيرى الناس فيه رأيي فيهم[1]، الكلام اليوم عن الواقدي. ولم يكن من شأنه الاتصال بالأمراء، ولكن الحاجة دعته إلى ذلك، ومتى احتاج العالمُ وقَلَّ المال في يده والصبرُ في نفسه طرقَ أبوابَ الأغنياء والملوك، ومتى طرق العالمُ أبوابَ الملوك أو الأغنياء ذلَّتْ نفسه ولم يعد يُنتفَع بعلمه!

واسمعوا الواقديّ نفسَه يحدثكم حديث اتصاله بالبرامكة بلفظة من لسانه، قال:

كنتُ حنّاطاً بالمدينة، في يدي مئة ألف درهم للناس أضارب بها، فتَلِفَت الدراهم، فشخصت إلى العراق وقصدتُ الوزير يحيى بن خالد، فجلست في دهليزه وآنستُ الخدم والحُجّاب وسألتهم أن يوصلوني إليه، فقالوا: إذا قُدِّم الطعامُ إليه لم يُحجَب عنه أحد، ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت.

فلما حضر طعامُه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة، فسألني: من أنت وما قصتك؟ فأخبرته. فلما رُفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوتُ منه لأقبّل رأسه، فاشمأزّ من ذلك، فلما صرتُ إلى الموضع الذي يُركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك: استعنْ بها على أمرك، وعُدْ إلينا في غد.

فأخذته وانصرفت، وعدت في اليوم الثاني فجلست معه

(١) انظر مقالة «البرامكة» في كتاب «رجال من التاريخ». وقد ظهر الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٥٨ (قبل إذاعة هذا الحديث بسنتين) ولم تكن المقالة فيه، ثم أضافها جدي إليه في طبعة تالية (مجاهد).

على المائدة، وأنشأ يسألني كما سألني في اليوم الأول، فلما رُفع الطعام دنوت منه لأقبّل رأسه، فاشمأزّ منه، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار فقال: الوزير يقرأ عليك السلام ويقول: استعنْ بهذا على أمرك وعُدْ إلينا في غد.

فأخذته وانصرفت، وعدت في اليوم الثالث فأُعطيتُ مثلَما أُعطيت في اليوم الأول والثاني. فلما كان في اليوم الرابع أُعطيتُ الكيسَ كما أعطيت قبل ذلك، وتركني بعد ذلك أقبل رأسه وقال: إنما منعتك ذلك لأنه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا، فالآن قد لحقك بعضُ النفع مني. يا غلام: أعطه الدار الفلانية. يا غلام: افرشها الفرشَ الفلاني. يا غلام: أعطه مئتَي ألف درهم، يقضي دينَه بمئة ألف ويصلح شأنه بمئة ألف.

ثم قال لي: الزَمْني وكن في داري. فقلت: أعزّ الله الوزير، لو أذنتَ لي بالشخوص إلى المدينة لأقضي للناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي. فقال: قد فعلت.

وأمر بتجهيزي، فشخصت إلى المدينة فقضيت ديني، ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته(١).

* * *

ولبث في بغداد بقيةَ عمره ينشر العلم ويحدّث ويقضي

(١) تجدون هذه القصة في مقالة «البرامكة» في كتاب «رجال من التاريخ»، وأصلها في المجلد الثالث من «تاريخ بغداد» (مجاهد).

بين الناس، وكانت له عند البرامكة أرفعُ المنازل، فلما ذهبوا وزال سلطانهم (وكل حيّ إلى ممات وكل سلطان إلى ذهاب، لا يدوم إلّا الحيّ القيوم) اتصل بالخلفاء من بعدهم، وكانت له عند المأمون منزلة أعلى من منزلته عند البرامكة.

وكانت داره مدرسة عالية: مكتبة حافلة وتلاميذ يُعَدّون بالمئات، وكانت ملجأ العلماء ومجمع الباحثين، وكان المرجعَ في السيرة وأخبارها وفي التاريخ. ولمّا انتقل من جانب بغداد الغربي (الكرخ) إلى الجانب الشرقي (الرُّصافة) حملت كتبَه مئة وعشرون دابة!

قال ابن سعد: كان الواقدي يقول: ما من أحد إلّا وكتبه أكثر من حفظه، وأنا حفظي أكثر من كتبي. وكان -مع سعة علمه وكثرة حفظه- لا يحفظ القرآن!

قال المأمون للواقدي: أريد أن تصلي الجمعة غداً بالناس. فامتنع، فقال المأمون: لا بدّ من ذلك. قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أحفظ سورة الجمعة! قال: فأنا أحفّظك. قال: فافعل. فجعل المأمون يلقّنه سورة الجمعة حتى يبلغ النصف منها، فإذا حفظه ابتدأ بالنصف الثاني، فإذا حفظ النصف الثاني نسي الأول! فأُتعب المأمون ونعس فقال لعلي بن صالح: يا عليّ، حفِّظْه أنت. قال عليّ: ففعلت ونام المأمون، فجعلت أحفّظه النصف الأول فيحفظه، فإذا حفّظته النصف الثاني نسي الأول، وإذا حفّظته النصف الأول نسي الثاني، وإذا حفّظته الثاني نسي الأول!

فاستيقظ المأمون فقال له: ما فعلت؟ فأخبرته، فقال: هذا

رجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل. اذهب فَصَلِّ بهم واقرأ أي سورة شئت.

هذا العالم العظيم لا يحفظ القرآن، وإن كان يعرف أحكامه وحلاله وحرامه، ونجد آلافاً يحفظون القرآن كله، يرددونه كل يوم، يقرؤون الختمة في يوم أو يومين، ولكنهم لا يفقهون مما يقرؤون شيئاً. أليس هذا من العجائب؟

* * *

وكان مع كثرة ما يرد عليه من المال مبسوطَ الكف كريماً لا يُمسك شيئاً، وكان يستدين لينفق على أصحابه وتلاميذه. وكثرت ديونه مرة وضاق بها، فاضطر إلى رفع أمره إلى المأمون. وكتب إليه رقعة يذكر فيها غلبة الدَّين وغَمَّه بذلك، فوقّع المأمون على ظهرها: فيك خلّتان، السخاء والحياء. فأما السخاء فهو الذي أطلق ما ملكت، وأما الحياء فهو الذي منعك من إطلاعنا ما أنت عليه، وقد أمرنا بكذا وكذا، فإن كنا أصبنا إرادتك في بسط يدك فإن خزائن الله مفتوحة. وأنت كنتَ حدثتني (وأنت على قضاء الرشيد) عن محمد بن اسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال للزبير: يا زبير، إن باب الرزق مفتوح بباب العرش، يُنزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن قلَّلَ قُلِّلَ له ومن كَثَّرَ كُثِّرَ له(١).

قال الواقدي: وكنتُ قد أُنسيت هذا الحديث، فكانت تذكرته

(١) ضعيف أو موضوع، قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: لا يصح (مجاهد).

إيّاي أحبَّ إليّ من جائزته، وكانت الجائزة مئة ألف درهم، فكان الحديث أحبَّ إليه من المئة ألف.

* * *

وجاءه مرة عيدٌ (كعيدنا اليوم) أيام كان مع يحيى البرمكي، فنظر فلم يجد معه شيئاً من المال، وكانت أسرته كبيرة وأصحابه وزوّاره كثيرين، وازداد الطلب عليه واشتدّ الضيق به، واستحيا أن يكتب إلى يحيى، ففكر فلم يجد إلا صديقاً له من التجار، فمضى إليه يستقرض منه.

وكان هذا التاجر في مثل ضيق الواقدي وليس عنده إلا كيس مختوم فيه ألف ومئتا درهم كان قد ادّخره لوقت حاجة، وكان يريد أن يفتحه فينفق منه على نفسه وعلى عياله في هذا العيد. فلما جاءه الواقدي بنفسه أخذ الكيس كما هو فدفعه إليه بخَتمه.

ورجع الواقدي إلى منزله وهَمَّ بأن يفتح الكيس، وإذا البابُ يُطرَق، فنظر فإذا صديق له من جِلّة بني هاشم وأكابرهم، ضاق ما في يده واضطر إلى ما ينفقه في العيد، فجاءه يستقرض منه وهو لا يدري أنه محتاج وأنه قد استقرض من التاجر. فدخل الواقدي إلى زوجته فأخبرها، فقالت: وماذا عزمت أن تفعل؟ قال: أقاسمه ما في الكيس، فآخذ نصفه وأعطيه نصفه. قالت: أعوذ بالله! مثلك يصنع هذا؟ إن هذا التاجر وهو -رجل سوقي- أعطاك الكيس كله لمّا قصدته، ويقصدك رجل من آل محمد ﷺ فتعطيه نصفه؟ لا، بل أعطِه الكيس كله ونحن نصبر. فأخرج الكيس فدفعه إليه.

وكان الهاشمي صديق التاجر، وكان غنياً، فلما بقي التاجر

بلا مال فكر أن يقترض منه، ولم يعلم أنه في ضيق وحاجة، فذهب إليه فسأله أن يقرضه شيئاً يستعين به على نفقات العيد، فأخرج الكيس فدفعه إليه. فلما رآه التاجر ورأى أنه كيسه بذاته سأله عن القصة، فأخبره، فاقتسم الثلاثةُ ما في الكيس.

* * *

يا أيها السامعون: لا أحب أن أعلق على هذه القصة، ولكن أحب أن تنظروا أثرَها في نفوسكم: هل فيكم أحدٌ لم يَعجب منها ويَرِقَّ لها قلبه؟ إنها تُروَى بعد ألف ومئتَي سنة فتكون مبعثَ إكبار لهذه النفوس الخيّرة وهذا النبل وهذا الفضل، وثوابُ الله أكبر من ثناء الناس. وها قد أقبل العيد، وكل واحد منكم يستطيع أن يصنع فيه صنيعاً مثل هذا أو قريباً منه فيكون مثل هؤلاء، فإنّ العيد إنْ لم تكن فيه فرحة القلب لم يكن إلا رقماً على التقويم، ولا يشعر أحدٌ بفرحة القلب إلّا إنْ أدخل الفرحة إلى قلوب الناس.

* * *

البطل صلاح الدين

نشرت سنة ١٩٣٨*

لئن حاقت بفلسطين اليومَ الشدائدُ وانتابتها المِحَنُ وعظمت فيها البليّة لقد شهدت فلسطين أياماً أشد هولاً وأعظم بلاءً، فما ذَلَّت فلسطين ولا استكانت، ولكن عَلَت وعزَّت وانتصرت.

أيامَ سارت أوربا كلها لتواجه هذه البقعة الإسلامية الصغيرة، وساقت إليها الخميسَ العرمرم الذي كان أوله في عكا وآخره في القسطنطينية، واشتد الضيق واستحكمت حلقاته، فلما استحكمت بعث الله الفرج على يد رجل واحد حارب الصليبيين، فكان أشدَّ منهم للحرب مراساً وكان له الظفر عليهم، فلما ظفر عفا، فكان أكرم منهم كرماً وأعظم مروءة ونبلاً، وكان له في كل مكرمة

* نُشرت هذه المقالة في العدد الثالث من مجلة «العالم الإسلامي» التي أصدرتها جمعية الشبان المسلمين في بغداد، وكان رئيس تحريرها هو الأستاذ محمد بهجة الأثري. وفي «كتاب رجال من التاريخ» مقالة عن صلاح الدين عنوانها «فاتح القدس» أصلها حديث قدّمَه في إذاعة دمشق بعد كتابة هذه المقالة بنحو عشرين سنة، وبين المقالتين اختلاف كبير (مجاهد).

قِدْحها المعلّى[1]، ومن كل مَحْمَدة له النصيب الأوفى، فانصرفوا وفي نفوسهم حسرة منه، يبغضونه لأنه طردهم وهدم بحقِّه صرحَ باطلهم بعدما ظنوا أنه قد استقر وعلا، ولكنهم يحبونه أيضاً لأنهم رأوا فيه طرازاً من العظماء لم يكونوا يعرفونه إلا على السماع من رجال الأدب وأصحاب الفلسفة والأخلاق.

ذلك هو البطل العظيم صلاح الدين.

* * *

ذلك الذي كان أحدَ رجلين هما في العظماء كالشمس والقمر في النجوم. وإنّ في السماء لَنجوماً لا عداد لها، ولكل نجم نور وفي كلٍّ هدى، ولكن في السماء شمساً واحدة وقمراً فرداً، جَسَّمَ الله في هذين الرجلين فضائل الجنس البشري ومزايا الإسلام وجعل حياتَيهما القصيرتين «مختصراً» جامعاً لكتاب المجد الإنساني، فيه فصول الكتاب كلها ولكنها موجزةٌ الإيجازَ الجامع المانع، هما عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي.

أما عمر فقد أنشأ هذا البنيان الضخم الذي وُضعت أسسه في مكة والمدينة ودمشق والبصرة والكوفة، وامتدت أروقته وأظلَّت شرفاته مصر والمغرب والأندلس والأفغان والهند، فلولا عمر ما قام البنيان ولا نهض. وأما صلاح الدين فقد درأ عنه النار التي

(١) يلفظها بعضهم خطأً بفتح القاف والدال. والقدَح هو الكوب الذي يُشرَب به، وليس هو المقصودَ بهذا التعبير؛ المراد بالقِدْح المعلّى الحظ الحسن والنصيب الوافر، وأصل القِدْح سهم المَيسِر (مجاهد).

أوشكت أن تأكله ورَدَّ عنه الوحوش الذين جاؤوا يهدمونه ويعيثون فيه فساداً، فلولا صلاح الدين ما بقي البنيان ولا عاش.

هذه خلاصة أعمال عمر وصلاح الدين في كلمة واحدة، على أنهما جاءا بعد عظيمَين هما حفرا الأساس وهما وضعا أصول الدعائم وقواعد الأساطين: أبو بكر ونور الدين. ولئن خفي الأساسُ فلم يظهر ظهورَ القِباب والعَمَد فلا جرم، فإنه الأساس. فلولا أبو بكر العظيم ما عاش الإسلام ولاكتسحت سيول الردّة أعلامَه وشاراته، ولولا أنْ فتح نور الدين الطريق ما سار صلاح الدين ولا وصل.

* * *

وبعد، فما هي البطولة وما حَدُّها؟ ما العظمة وما تعريفها؟

إن كانت البطولة في سعة النفس وجلال المواهب، أو كانت في عظم الأثر وخلود الأعمال، أو كانت في نفع البشر وخدمة بني الإنسان، فعمر وصلاح الدين أكبر الأبطال، لأنهما استكملا البطولة كلها وجمعاها من جوانبها. ولقد كان كل واحد منهما قائداً كأعظم القوّاد، يدير المعارك ويرسم الخطط ويصطاد الظفر ولو كان معلقاً بالثريا، وكان القيّمَ على الخزينة، يصرف الأموال بالحق ويجمعها من طريق الحق، وكان القاضي والوالي والسياسي، وكان مسلماً صادق الإسلام، يقوم لله ويقعد لله ويحارب لله ويسالم لله، قد أسقط نفسه وشهواتها من حسابه. وكان -بعد هذا كله- إنساناً كامل الإنسانية، يألم لآلام الناس ويعطف على البائسين من أي لون كانوا وأي دين.

جُمعت الدنيا لعمر فأعرض عنها واكتفى بقرص من الخبز وشيء من الزيت، ثم مسح على بطنه وقال: الحمد لله، بُعداً لمن أدخله بطنه النار. وسَعت الدنيا إلى صلاح الدين حتى كان سيد الملوك ومالكهم ومُعتقهم وآخذ الدنيا ومعطيها، ومات وليس في خزائنه إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرياً ودينار ذهبي واحد. هذه تركة سيد الأرض في عصره، صلاح الدين!

ولم يكن يدري ما الخوف ولا يجد إلى قلبه سبيلاً، فكان يَثبت في الساعات التي يتزلزل فيها فؤاد البطل الصنديد. ولقد كان يناوئ العدو حول عكا فتوالى المدد على أعدائه، وهو يبصر المراكب تطلع من البحر حتى عَدَّ من العصر إلى الليل سبعين مركباً، وما ازداد إلا ثباتاً وقوة وثقة بنصر الله، ذلك بأنه علم أن النصر من عند الله، فمَن انطوت نفسه على الإيمان الخالص لم يُبالِ أزادَ أعداؤه أم نقصوا.

وسمع الحديث وتلقى العلم وهو بين الصفَّين، بين حجَري الرحى وبين فكَّي الأسد، في الموقف الذي يطيش فيه لب الحليم، وهذا ما لم يُسمَع عن غيره أبداً. حدّث القاضي ابن شداد[1] أنه رافق السلطان في جولة بين المعسكرات الإسلامية، وكان من دأب السلطان أنه يدور عليها بنفسه يتفقدها دائماً، فسارا على الساحل، وكان البحر هائجاً غضبان تعلو أمواجه كالجبال،

---

(١) قاضي عسكر صلاح الدين ومرافقُه ومؤرّخه. له «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، الكتاب الذي يُعتبَر المرجعَ الأهم والأوثق في حياة ومعارك صلاح الدين (مجاهد).

وكان فكر ابن شداد متعلقاً بخوف البحر والابتعاد عنه إيثاراً للسلامة، فالتفت إليه السلطان وقال له: أتدري ماذا خطر على بالي؟ قال: لا. قال: فكرت في أن أتبع الصليبيين في البحر بعد أن أطردهم من الشام، فأحاربهم في بلادهم وأدعوهم إلى الله.

هذا هو فرق ما بين صلاح الدين وغيره من الناس، وهذا هو الإيمان الذي لا يقوم له في الدنيا شيء!

* * *

ولم تشغله تلك المعارك المكفهرة وذلك النضال الطويل عن عبادته والاتصال بربه، فكان ينزل حيثما أدركته الصلاة فيصلي ويقوم من الليل. لم يدع صلاة الليل أبداً، فإذا نام عنها نهض في السَّحَر فاداها، ولقد صلى في مرض موته قائماً، ولم تكن الحروب وأهوالها لتمنعه عن الصوم، وكان يختار إمامه من القراء المجوّدين ويتخذ حاشيته من أهل العلم والدين، ويحرص على سماع العلم، فلا يسمع بعالم إلا استدعاه فبالغ في إكرامه وجلس بين يديه هو وأولاده فسمع منه، فإن كان العالم ممّن لا يأتي إلى أبواب السلاطين أخذ أولاده ومشى إليه بنفسه. وقد مشى إلى الحافظ الأصفهاني في الإسكندرية فأخذ عنه في داره.

وكان إذا اشتدت عليه الأمور لجأ إلى الله، فدعا ساجداً ودموعه تسيل على لحيته وبساطه حتى يكشف الله الغمة، فمِن أين يدخل الخوف نفساً على صلة بالله دائمة، قد أَترعت بالإيمان به والاطمئنان إليه؟ ومن أين يصل الزهو والكبر إلى قلب يقف أبداً بين يدي الله ذليلاً خاشعاً؟ ومن أين يبلغ حب الدنيا فؤاداً ذاق

حلاوة الإيمان ولم يقنع بما دون الجنة ونعيمها الدائم؟

وكان شديداً في دين الله قوياً في الحق، وكان ابنَ الحرب البكر وفتاها وبطلها، ولكنه كان رفيقاً يعفو إذا قدر وتأخذه الرحمة بالضعفاء، وأخباره مع الفرنجة يروونها هم والعجب بالغٌ منهم والدهشة آخذة بنفوسهم، لا يكادون يصدقون ما رأوا منه لولا أنهم رأوه عياناً ولم يسمعوه سماعاً. وكان -بعد هذا كله- يهتم بكل صغيرة وكبيرة ويباشرها بنفسه، ولقد مر بطفل يقرأ لأبيه فصلاً من كتاب، فوقف يستمع إليه فرأى فيه ذكاء، فوقف عليه قطعة أرض لينفق ريعها في العلم.

* * *

لقد طمعت أن أدوّن سيرة صلاح الدين، فقرأت أخباره، فهالَتْني وملأت نفسي إكباراً لصاحبها واعترافاً بالعجز عن تصويرها وعرضها. ومَن ذا الذي يضع الشمس في صفحة من ورق؟ فيا أيها القراء: ارجعوا إلى سيرة صلاح الدين فاقرؤوها وأقرئوها أبناءكم تَسكُبوا البطولة في نفوسهم وقلوبهم. رحمة الله على أولئك الأبطال.

* * *

مأساة الحسين

نشرت سنة ١٩٥٦

ليس في تاريخ البشر حادثة قتل كان لها من الأثر في التاريخ والخلود في الأذهان وفي القلوب وعلى الألسنة ما كان لمقتل الحسين. وقد مَرَّ على هذه الحادثة ١٣١٥ سنة[١] ولا يزال ملايين من الناس يقيمون يوم ذكراها المناحات، يبكون ويندبون ويلطمون صدورهم وكأن أعزّ عزيز عليهم قد مات اليوم، بل إنه لو مات أبو الواحد منهم أو ابنه لتجلّد واحتمل ولما فعل هذا ولا بعضَه.

وليس السبب الحادثة لذاتها، فقد قُتل قبل الحسين مَن كان أكبرَ منه سناً وأسبق في الإسلام سابقة وأبقى في نشره وتأييده أثراً وذكراً، عليّ أبوه، وعثمان من قبله وعمر من قبلهما، فما كان لمقتلهم جميعاً جزء من ألف من الأثر الذي كان لمقتل الحسين.

ليست الحادثة في ذاتها التي صنعت هذا كله، بل ما حاق بها من ظروف، فلقد كانت معركة ليس فيها تكافؤ في القوى: حفنة من الرجال في مقابلة جيش ضخم، وهذا وحدَه يثير العطف

---

(١) وقعت في العاشر من محرم سنة ٦١ للهجرة.

على الفئة القليلة والنقمة على الفئة الكبيرة، فكيف إذا كان نصف هذه الحفنة من النساء والأطفال؟ فكيف إذا كانت الأسرة التي سيقت إلى هذه المجزرة هي أسرة النبي ﷺ، أسرة محمد نفسه؟

والسبب الثاني هو الأحزاب العلوية المعارضة التي استغلت هذه الحادثة واتخذت منها دعاية ضد الأمويين الحاكمين، بلغ من قوتها أن انقرضت الدولة الأموية وذهب سلطانها وانقرض من بعدها عشرات، عشرات حقاً من الدول، وتبدلت الدنيا ووُلد بعد هذه الحادثة ملايين الملايين من البشر وماتوا، ولا تزال للمأساة قوتها وشدتها الأولى.

بل هي قد صارت موضوع المأساة القومية الكبرى لطوائف من الأدباء وصارت باباً من أبواب الشعر كالمديح والرثاء والغزل عند الأولين، فلا يأتي أديب إلا جرّب قلمه في توسيعها ولا شاعر إلا أطلق خياله في تبشيعها، حتى لم تبقَ صورة من صور الاستشهاد تستدرّ العيون وتُفيض المدامع إلا أضفيت على الحسين رضي الله عنه وصحبه، ولم تبقَ صورة من صور البغي والظلم تثير النقمة وتهيج الغضب إلا أضيفت إلى الآخرين، ونظمت في ذلك آلاف، آلاف حقاً من القصائد.

وجاوز هذا السيل حدود الأدب ودخل التاريخ، حتى صار من يريد الوقوف على النص التاريخي الحقيقي لهذه الحادثة لا يكاد يجد إليه سبيلاً لكثرة ما زيد فيها من أخبار، بعضها ظاهر التقليد يدركه القارئ بلا تعب، وبعضها مقلَّد تقليداً محكماً يتعب أكبر الخبراء في التفريق بينه وبين الخبر الأصيل، حتى لم يَسْلم من ذلك المصدران الكبيران لتاريخنا، طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري.

والناس اليوم (حتى من يُعَدّ من أساتذة التاريخ) يظنون أن كل ما في الطبري صحيح، ويكتفون عند توثيق الخبر بذكر المصدر أن يقولوا: "الطبري صفحة كذا"، مع أن الطبري يسمّي رواته ليُسقط التبعة عن نفسه، ويفترض في القارئ أن يعرف صادق الرواة من كاذبهم أو يرجع في ذلك إلى كتب الرجال إن لم يكن عارفاً.

وقصة مقتل الحسين يرويها الطبري باختصار عن رواة مختلفين، ثم يقف عند راوٍ واحد هو أبو مخنف فيروي عنه جُلَّ القصة مفصّلاً. وأبو مخنف راوٍ لا يوثَق به ولا تُقبَل روايته(١). أما أوثق مصدر تاريخي للحادثة فهو «الإصابة» للحافظ المحدث الثقة المحقّق ابن حجر العسقلاني، وهو يقول فيها أنه صُنِّفَت إلى عهده تصانيفُ كثيرة في مقتل الحسين، ولكنّ ما صَحَّ عنده هو الذي ذكره في الإصابة.

وأنا أعذر من يسمع هذه القصص وهذه الأشعار إذا انهمر دمعه وفاض حزنه لأنّ فيها ما يُبكي الحجر، فيها أوصاف لو كان الموصوفُ بها أبناء جنكيز خان لاستثارت من سامعيها الأحزان، فكيف والموصوف أبناء رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ ولكن هل هذه الصورة صحيحة؟ هذه هي المسألة.

هاكم خلاصة أدوار هذه القضية، قرأت أكثر من ألف صفحة

---

(١) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: "أخباري متروك"، وقال في «ميزان الاعتدال» "تالف لا يوثَق به". وأكثرُ علماء الرجال على أنه كذاب لا يوثَق به ولا يُروَى عنه (مجاهد).

حتى محصتها وتحققت منها.

* * *

لما أحس معاوية بالوفاة شرع بأخذ البيعة لابنه يزيد، ودافع عمّا ذهب إليه بأنه أراد أن يجنب الناس حرباً أهلية كالتي كانت، وأن الأكابر من أصحاب رسول الله قد ذهبوا ولم يبقَ إلا ولده وأولادهم، وولده أحب إليه (كذا قال). وأخذ الناس بالترغيب والترهيب والدأب الطويل، فبايعوا يزيد إلا أربعة من الأعلام أبَوا أن يبايعوا، منهم الحسين وابن الزبير.

ولم تكن بيعة بالمعنى الدقيق لأن الخليفة لم يزل حياً، ولكنها موافَقة على ترشيح يزيد للخلافة. فلما مات معاوية كان يزيد هو المرشح الوحيد. ولم يكن مانع شرعي ولا عرفي من أن يرشّح غيرُه نفسَه لها، والناس ينتخبون من شاؤوا ولا يكون المرشح خليفة إلا إذا تم الانتخاب، أي البيعة.

ولا بد من أن نذكر أن معاوية كان أوصى ابنه يزيد بإكرام الحسين وألّا يعرض له بِشَرّ. وأن ولاته: والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ووالي مكة عمرو بن سعيد بن العاص لم يسيئا إليه ولم يُكرهاه على البيعة ولم يواجهاه بالقوة، وإنما واجها بها ابن الزبير لما أحسا أنه عزم على الثورة، فحاولت الحكومة عندئذ إجباره على البيعة بأمر يزيد.

والبيعة انتخاب لا يُجبَر عليها أحد. هذا هو العرف الديمقراطي اليوم وهو العرف الإسلامي بالأمس، وقد تأخر عليّ عن بيعة أبي بكر ستة أشهر فلم يجبره أحد عليها، وامتنع سعد

ابن عبادة وظل ممتنعاً حتى مات. فلا إكراهَ على البيعة، ولا يضرّ مخالفة نفر من الناس وامتناعهم، ولا يُشترَط في انتخاب الخليفة أن يُجمع الناس عليه، ولا يمكن أن يجمع الناس فلا يشذّ أحد، وهذا كله مشروط بألّا يعمد المخالف إلى العصيان العلني وإلى الإخلال بالأمن (كما يقال بلغة هذه الأيام).

وطلعت من الكوفة الشرارة التي أنشبت هذا الحريق الهائل، فقد عقد «الحزب العلوي» مؤتمراً كبيراً في الكوفة في دار سليمان ابن صرد[1] وقرروا مبايعة الحسين، وكتبوا له كتاباً يبلغونه فيه هذه القرار، ثم توالت الكتب إليه من أشراف الناس ورؤسائهم بأن يقدم عليهم. فلما أبطأ قدومه عقدوا اجتماعاً آخر، وأرسلوا إليه كتاباً أشبه ببرقية مستعجَلة هذا نصه: "بسم الله، لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين، أما بعد، فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك، فالعجل العجل، والسلام".

إلى هنا لا نجد من بني أمية ما يُنتقَد، فإن عاملهم على مكة (حيث كان الحسين) لم يعرض له بسوء، بل هو حذّرَه بصفته الشخصية (كما يقال اليوم) من السير إلى العراق، ووعده إن أقام بالحماية والإكرام. وعامِلهم على الكوفة، الصحابي الجليل النعمان بن بشير الأنصاري، لم يعرض للحزب العلوي، ولعله اعتبر أن «المرحلة الانتخابية» لم تنتهِ في الواقع، ولأن حرية الكلام والاجتماع من الحريات التي صانها الإسلام وحماها، ولكنه حذّرهم من الإخلال بالأمن. وقد اتهمه بعض غلاة الحزب

---

(١) صحابي روى له البخاري ومسلم ١٥ حديثاً.

الأموي بالضعف فقال: "لأن أكون ضعيفاً في طاعة الله خيرٌ لي من أن أكون قوياً في معصية الله".

وإلى هنا لا نجد أيضاً ما ننقده على بني أمية، ولدينا تصريحات رسمية متعددة صدرت في هذه الفترة باحترام الحسين والحرص على سلامته وكرامته. ولكن الوضع تبدل كله منذ تبيّنَ عزمُ الحسين على التوجه إلى العراق، فقد عزلت حكومة يزيد النعمان بن بشير عن ولاية الكوفة وضمَّتها إلى عُبَيد الله بن زياد، الذي قضى على الحركة في البصرة وهي في المهد، فمضى إلى الكوفة مسرعاً، وكان أصحابه يقصرون عنه من سرعته ويتخلفون واحداً بعد واحد حتى وصل الكوفة وحده. وكان واضعاً لثامه، فكان الناس يحسبونه الحسين ويحيّونه يقولون: مرحباً بأبي عبد الله، مرحباً بابن بنت رسول الله! حتى دخل القصر.

وكان الحسين قد أرسل ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، فأخذ له البيعة وكتب إليه أن يقدم. وهنا نجد أكبر رجالات الإسلام وأوثقهم صلة بالحسين، عبد الله بن عمر وأبا سعيد الخدري وعبد الله بن مطيع وأمثالهم، ينصحونه بألّا يفارق الحرم وألّا يثق بأهل الكوفة الذين قتلوا أباه وخذلوا أخاه.

وكتب يزيد إلى ابن عباس، وكان كبير الهاشميين وعلم الأعلام، كتاباً فيه قصيدة مؤثرة (وكان يزيد شاعراً) يخاطب فيها حسيناً ويناشده الله والرحم ألّا يعيد الخلاف بين الأسرتين ولا يفرّق الجماعة، فبذل ابن عباس معه الجهد وكاد يلاحيه، فلم يسمع منه وأصر على الخروج.

ويظهر أن الأمويين كانوا يريدون السلام ويخشون أن يمسّ الحسينَ مكروه، خوفاً من انتفاضة الناس عليهم لمنزلة الحسين منهم. وقد كتب مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد أمير مكة إلى ابن زياد يحذّرانه من أن يمس الحسين.

* * *

نعود إلى الكوفة.

دخل ابن زياد الكوفة وهي تغلي كما تغلي القِدر على النار، والناس أكثرهم قد بايع للحسين، فعمد إلى الحيلة والمكر حتى وقف على رؤوس المؤامرة، فقبض على بعضهم وأعلن «قانون الطوارئ»، فسارع مسلم بن عقيل إلى العمل وبيّتَ الثورة. فاعتقل ابن زياد زعماء القبائل وكلّفَ كلاً منهم تحويل جماعته عن مسلم، فانصرف الناس عن مسلم ولم يبقَ معه أحد من الذين كتبوا للحسين ودعَوه وأغرَوا مسلماً بالخروج وإعلان الثورة! فاختبأ في دار امرأة، فوشى به ابنها، فأخذه ابن زياد وحكم عليه بالموت بعد محاكمة صورية ظالمة. وأوصى قبل موته بأن يُرسَل كتابه إلى الحسين بإعلامه بما كان ليرجع إلى الحجاز.

وأعدَّ ابن زياد حملة انضوى تحت لوائها الذين بايعوا الحسين أنفسُهم وساروا إلى قتاله! وسارت طليعة ابن زياد بقيادة الحر بن يزيد لمنع الحسين من الوصول إلى الكوفة. والثابت أنه لم يكن مع الحرّ أمر بقتال الحسين، وإنما كانت مهمته منعه من بلوغ الكوفة.

ووصل كتاب مسلم إلى الحسين، ولقيه بُكير الأسدي فأبلغه

الخبر، وجاءه «كتاب رسمي» من الحر قائد الطليعة، فأخبره بما كان وطلب إليه التوقف والرجوع. وكان الحسين قد عزم على الرجوع، ولكن أولاد عمه عقيل، إخوة مسلم، بكوا وهاجوا وأبَوا إلّا الأخذ بثأر أخيهم أو أن يموتوا مثله. فمال الحسين إلى رأيهم.

فإذا صحَّت هذه الرواية كان موقف الحسين هذا موقفاً غريباً لا يمكن تعليله، لأن البيعة قد تمت ليزيد، سواء أكان أهلاً لها أم لم يكن، وانتهت مرحلة الانتخاب، والذين بايعوه قد انصرفوا عنه ونقضوا بيعته ولم يبقَ مبرر للحرب. ثم إنه لا يمكن رد الجيش القوي الذي تمده الدولة بمالها وسلطانها بهذه الحفنة من الرجال والنساء والأطفال، فما تعليل إقدام الحسين رضي الله عنه على مجزرة مؤكدة؟

ووصل الجيش يقوده عمر بن سعد (الذي كان أبوه بطل القادسية). وعرض عليه الحسين إحدى ثلاث: إما أن يتركوه يعود من حيث أتى (وهذا يدل على أنه عدل عن رأيه في القتال، أو أن رواية ميله إلى رأي أبناء عقيل وإيثاره الحرب كانت رواية كاذبة) وإما أن يدَعوه ينزل على حكم يزيد، وإما أن يخلّوا له الطريق إلى الثغر (الجبهة) فيذهب لجهاد الروم.

وكان طلباً عادلاً وكانت الخلال الثلاث مشروعة معقولة، فقبل ابن سعد بأن ينزل على حكم يزيد وحمد الله على أن انتهى هذا الموقف الصعب، لأنه لم يكن يريد (ولا يريد ابن زياد ولا يزيد) قتال الحسين. وكادت تُطوَى هذه الصفحة لولا أن رجلاً خبيثاً فتحها مرة ثانية فأعاد الأزمة على أشدها وسبّب تلك

المأساة، هو الشِّمْر بن ذي الجُوشَن، جلف من أجلاف العرب من هوازن، فقد ألَّبَ ابن زياد وحمّسَه وقال له: إن قبولك بنزول الحسين على حكم يزيد حِطّةٌ بك، فلا ترضَ إلا بأن ينزل على حكمك ويستسلم لك. فمال إلى ذلك وأمره باعتقال الحسين.

وأنا -على استفظاعي للحادثة وكراهيتي لمن شارك في هذه الجريمة- لم أجد في النصوص التي وقفت عليها (النصوص التاريخية لا القصص الأدبية) ما يدل على أنه كان في النية قتل الحسين، وإنما كان القصد حمله على الاستسلام. وفي سبيل هذا القصد ضيَّقوا عليه ومنعوه الماء وعاملوه معاملة لا يمكن أن يحتملها صعلوك من الصعاليك، فضلاً عن السيد الكريم الذي انتهى إليه الشرف، الحسين! فدافع عن نفسه، وكانت المجزرة التي انتهت إلى المأساة الخالدة.

وقد روع قتلُه ابن زياد وفزع منه، ولكنه لمّا رأى الناس سكتوا ورأى أنصاره ومن كان قد بايعه لم يحركوا ساكناً تشدد وتجلد. أما يزيد فكان حزنه حقيقياً، وقد ثبت أن نساءه أقمنَ مَناحة في «الدار الخضراء» (حاضرة الخلافة الأموية) على الحسين، ووقف يزيد وأسرته من نساء الحسين وأولاده موقف المواساة الكريمة، وقال لأهله: لو كنت حاضراً لحميته ولو بهلاك بعض ولدي، ولكنْ نفد القضاء، فاطلبوا ما شئتم، ولعن عبيد الله بن زياد.

* * *

هذه هي القصة التي لا تزال تُبكي الملايين، هذا هو الواقع وما عداه خيالات وزيادات.

المسؤول الأول هو الشِّمْر متولي الجريمة، ثم ابن زياد الذي وافق عليها، ثم عمر بن سعد الذي كان قائد الجيش المعتدي. أما يزيد فلم يكن شريكاً أصلياً في مقتل الحسين، وإن كان لا يخلو من المسؤولية.

على أنها مهما عظمت المصيبة فإن مَرَّ الأيام يكسر شِرَّتَها ويَفُلّ حِدَّتَها، وقد تُفجَع الأم بوحيدها فتصدّع الصدمة فؤادها ثم تسلو، وقد يصاب الوالد بولده فيزعزع الخطبُ قلبَه ثم يتعزى. وللجرائم أمد، فإذا تقادمت نُسِيَت وسكت الطلب عن المجرم. وللبكاء حد، فإذا بلغه المصاب مسح دمعه. وقديماً قال الشاعر:

إلى الحَوْلِ ثم اسمُ السلام عليكما
ومَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذَرْ

أفلا يكفي البكاء ألفاً وثلاثمئة حَوْل؟ أوَ ليس فيما جَدَّ من مصائب على الإسلام وما دهتنا به الأيام من الخطوب الجسام ما يكفكف الدمع عن المسيل ويمسك الأكفَّ عن اللطم؟ وإن كان في أولئكم الناس ظالم ومظلوم فحسابهم على الله، ما عليكم من حسابهم من شيء، ﴿تلك أمَّةٌ قد خَلَتْ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عمّا كانوا يعملون﴾.

* * *

ابن الجوزي*

أنا قديم التعظيم لابن الجوزي قديم الحب له، وقد كان كتابه في سيرة عمر بن عبد العزيز[1] من أوائل ما قرأت من الكتب، وخلّف في نفسي أثراً لا يزول وكان من أسباب الرشاد لي والحمد لله. ولَرُبَّ كلمة يسمعها الناشئ أو كتاب يقرؤه أو إنسان يصحبه يكون سببَ دخوله الجنةَ أو دخوله النار، ويكون بداية سَيره في طريق الخير أو في طريق الشر. فلينتبه الشبّان لما يقرؤون ولِمَن يصحبون، ولينتبه -قبل ذلك- آباؤهم فيختاروا لهم المدارس التي تعلّمهم ما ينفعهم وتثبّت عليهم إيمانهم وأخلاقهم، ولا يكونُ ذلك إلا إن كان القائمون عليها والمدرّسون فيها من أهل الدين والتقوى والعمل بما يعلّمونه فيها.

رأيت ابن الجوزي في هذه السيرة مؤرخاً جامعاً واسع

---

* استخرجت هذه الترجمة من مقدمة كتاب «صيد الخاطر» الذي اشتغل به الأخوان علي وناجي الطنطاوي وأصدرا أول طبعة متقَنة له سنة ١٩٦٠، حققه ناجي الطنطاوي وراجعه علي الطنطاوي، وقدّم له بمقدمة وافية عرَّفَ فيها بالمؤلف والكتاب. وهذه الطبعة من أجود طبعات هذا الكتاب العظيم (مجاهد).

(١) الذي نشره خالي الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٣٣١هـ.

الرواية، ثم قرأت له «تلبيس إبليس» فوجدت فيه محدثاً فقيهاً ناقداً بصيراً، يزن الناس بميزان السنّة الصحيحة، فيرفع مَن يَرْجح في هذا الميزان ويخفض من يكون مرجوحاً، لا يبالي في الحق كبيراً ولا صغيراً ولا يخدعه عن حقيقة المرء سعةُ جاهه وشهرتُه بالصلاح، ولقد كان هذا الكتاب أول ما نبهني إلى انحرافات بعض الصوفية عن طريق السنة.

ثم قرأت له كتاب «الأذكياء» الذي جمع فيه من أخبار أذكياء الملوك والقضاة والأطباء كل مُعجِب مُطرِب، وكتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» وفيه من النوادر والطرائف ما يضحك الحزين. وعجبت من كثرة الموضوعات التي ألّفَ فيها، ثم رأيت كتاب «عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فأكثر» لجميل العظم، وقد ذكر ابن الجوزي وعَدَّ من مؤلفاته مئة وتسعة وعشرين مؤلَّفاً، فازداد عجبي منه وإعجابي به.

وقرأت ترجمته في «البداية والنهاية» فرأيته يصفه بأنه: أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار، نحواً من ثلاثمئة مصنَّف، وكتب بيده نحواً من مئتَي مجلّد، وله في العلوم كلها اليد الطولى والمشاركات في سائر أنواعها، من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه، وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كله ما يضيق هذا المكان عن تعدادها وحصر أفرادها، منها كتابه المشهور في التفسير، «زاد المسير»، وله تفسير أبسط منه (أي أوسع) لكنه ليس بمشهور، وله جامع المسانيد، استوعب غالبَ مسند أحمد وصحيحَي البخاري

ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب «المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم» في عشرين مجلداً، وقد أوردنا (يقول ابن كثير) في كتابنا هذا كثيراً من حوادثه وتراجمه.

* * *

وقال ابن خلكان أنه كان علّامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنّفَ في فنون كثيرة، منها «زاد المسير في التفسير»، أربعة أجزاء، أتى فيه بأشياء غريبة، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله «المنتظم» في التاريخ، وهو كبير، وله «الموضوعات» في أربعة أجزاء، ذكر فيها كل حديث موضوع، وله «تلقيح فُهوم الأثر» على وضع كتاب «المعارف» لابن قتيبة (أي على طريقته ومنهاجه)، وله «لقط المنافع» في الطب. وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعَدّ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً. والناس يُغالون في ذلك حتى يقولوا أنه جُمعت الكراريس التي كتبها وحُسبت مدة عمره وقُسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل. ويقال إنها جُمعت بُرايَةُ أقلامه التي كتب بها حديثَ رسول الله ﷺ فحصل منها شيء كثير، أوصى أن يُسخن به الماء الذي يُغسل به بعد موته، ففُعل ذلك فكفَت.

ويقول ابن الجوزي نفسه في «لفته الكبد»: وقد علمتَ -يا بني- أنّي صنفت مئة كتاب، فمنها التفسير الكبير عشرون مجلداً، والتاريخ عشرون مجلداً، وتهذيب المسند عشرون مجلداً، وباقي الكتب ما بين كبار وصغار، يكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر.

وقد عابوا عليه أشياء، منها كثرة أغاليطه في تصانيفه. وعذره في هذا واضح، وهو أنه كان مُكْثراً من التصنيف، فيصنّف الكتاب ولا يعتبره بل يشتغل بغيره، ولربما كتب في الوقت الواحد تصانيف عديدة، ولولا ذلك لم تجتمع له هذه المصنفات الكثيرة. وقد ينقل من التصانيف في علم من غير أن يكون متقناً لذلك العلم من جهة الشيوخ والبحث، ولهذا نُقل عنه أنه قال: "أنا مرتِّب ولست بمصنِّف".

وكان إذا رأى تصنيفاً وأعجبه صنَّف مثله في الحال وإن لم يكن قد تقدّم له في ذلك الفن عمل، لقوة فهمه وحدّة ذهنه، فربما صنف لأجل ذلك الشيءَ ونقيضَه بحسب ما يتفق له من الوقوف على تصانيف من تقدّمه.

* * *

أما منزلته في الوعظ فما أعرف من يدانيه فيها، ولقد قرأت سِيَر عشرات من أساتذة الوعظ، فما رأيت مَن أوتي من قوة العارضة وحسن التصرف في فنون القول وشدة التأثير في الناس ما أوتيه ابن الجوزي.

ولم يكن الوعظ في صدر الإسلام صناعة ولا كان في الناس من ينقطع إليه ويُعرَف به، ولم تكن تُعقَد له مجالس يُنصَب للوعّاظ فيها الكراسي ويجتمع فيها الآلاف من الناس، بل كان الرجل يَلقى العالم فيسأله الموعظة، فيعظه بكلمة تخرج من القلب، لا يعمد فيها إلى تجويد عبارة ولا إلى تحسين لفظ. ثم نشأت طبقة اتخذت الوعظ حرفة وعقدت له المجالس، وخلطت

فيه السنّةَ الصحيحة بالإسرائيليات والروايةَ بالخطابيات، وكان هؤلاء الوُعّاظ يُعرَفون بـ«القُصّاص». فما كان عصر ابن الجوزي حتى صار الوعظ فناً له قواعده وله أصوله، واتسعت مجالسه وارتفعت منزلة أهله، حتى روَوا أنه حضر مجلسَ ابن الجوزي مئةُ ألف. ولست أدري كيف كانوا يسمعون صوته ويفهمون عنه!

فلما كانت خلافة المستضيء قَوِيَ اتصال ابن الجوزي به وصنّفَ له الكتاب الذي سماه «المصباح المضيء في دولة المستضيء»، ولما خُطب له بمصر وانقطع حكم العبيديين (الذين يُدعَون زوراً بالفاطميين) ألّف كتاب «النصر على مصر»، وحضر عنده وقرأه عليه. ثم أذن له أن يجلس للوعظ في «باب بدر» في البلاط وأعطاه مالاً. وقد حضر ابن جبير مجلساً من مجالس وعظه لمّا قدم بغداد سنة ٥٨٠، ثم وصفه فقال: "ما كنا نحسب أن متكلماً في الدنيا يُعطى من امتلاك النفوس والتلاعب بها ما أُعطِي هذا الرجل".

وهذا وصف لمجلس من مجالسه كتبه ابن الجوزي بقلمه، قال: وتكلمت يوم الخميس خامس رجب من هذه السنة (أي سنة ٥٦٩) في قصر الخليفة بعد العصر، وحضر السلطان، وأخذ الناس أماكنهم من بعد صلاة الفجر، وأُكريت دكاكين فكان موضع الرجل بقيراط[١]، حتى إنه اكتُري دكان لثمانية عشر رجلاً بثمانية عشر قيراطاً، ثم جاء رجل فأعطاهم ستة قراريط حتى

---

(١) أي أن الناس دفعوا أجرة جلوسهم لسماع الوعظ، كما يدفع الناس ثمن «تذاكر» المسارح ودور السينما في هذه الأيام (مجاهد).

جلس معهم! وكان الناس يقفون يوم مجلسي من باب بدر[1] إلى باب النوبي كأنه العيد.

وقال أيضاً: وتكلمت يوم عاشوراء سنة اثنتين وسبعين بباب بدر، وامتلأ المكان من السَّحَر، وطلع الفجر وليس لأحد طريق، فرجع الناس، وامتلأ الطريق بالناس قياماً يتأسفون على فوت الحضور. وكان يوم المجلس تُغلَق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام، فإذا جئت بعد العصر فُتح لي، وزاحم معي من يمكنه أن يزاحم، حتى قال أمير المؤمنين: "ما هذا الرجل آدمي، لما يقدر عليه من الكلام".

* * *

وأعانه على ذلك أنه كان -كما قال الموفق- لطيف الصوت، رخيم النغمة، موزون الحركات، حلو الشمائل، لذيذ المفاكهة. قال: وقد حضر مجلسَ وعظه الخلفاءُ والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقلُّ ما كان يجتمع فيه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مئة ألف[2]، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً.

وكان يسمع وعظَه مرةً الخليفةُ المستضيء العبّاسي، فالتفت إلى ناحيته وهو في الوعظ وقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمتُ خفت منك، وإن سكتُّ خفت عليك. وإنّ قول القائل لك: "اتق

---

(١) من أبواب قصر الخليفة.
(٢) يعني تقديراً لا تحقيقاً.

الله" خيرٌ من قوله لكم: "إنكم أهل بيت مغفور لكم". وكان عمر بن الخطاب يقول: "إذا بلغني عن عامل أنه ظلم فلم أغيِّرْه فأنا ظالم"، ويضرب بطنه عام الرمادة ويقول: "قرقر أو لا تقرقر، والله لا ذاق عمرُ سمناً ولا سميناً حتى يُخصب الناس". فبكى المستضيء وتصدق بمال كثير، وأطلق المحبوسين وكسا خلقاً من الفقراء.

وكان سرّ نجاحه في قوة بديهته وسرعة بادرته وحضور ذهنه ونوادر أجوبته، مع كثرة مَحفوظه وسعة روايته. ومن أندر الأجوبة أنه وقع النزاع على عهده بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي، ورضوا فيما بينهم بما يجيب به الشيخ أبو الفرج، فأقاموا له رجلاً وسط المجلس فسأله عن ذلك، فقال على الفور: "أفضلهما مَن كانت ابنتُه تحتَه". ونزل في الحال حتى لا يُراجَع، فقالت الشيعة: يريد علياً، لأن بنت النبي ﷺ تحته. وقال أهل السنة: يريد أبا بكر، لأن ابنته تحت النبي ﷺ. قال ابن خَلِّكان: ولو جاء هذا الجواب بعد الفكر التامّ وإمعان النظر لكان في غاية الحسن، فكيف وهو على البديهة؟

ومن أجوبته أن رجلاً سأله: أيهما أفضل، أسبّح أو أستغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور. وسُئل عمّن أوصى وهو في النزع فقال: هذا رجل طيّنَ سطحه في كانون. ومن قوله: "شهوات الدنيا أنموذجٌ يُعرَض ولا يُقبَض"، أي أنها أنموذج لِلّذات في الآخرة، يراها المرء معروضة في الدنيا ليختار منها ما يريد اقتناءه فيها، يقدّم ثمنَها عملاً صالحاً يشتريها من أسواق الجنة.

* * *

وابن الجوزي عربي قرشي تَيْمي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق. وقد جاء لقبه من جد اسمه جعفر لُقِّبَ بـ«الجَوْزي» نسبةً إلى مشرعة الجوز، وهي فُرْضَة[1] نهر البصرة. وقيل: بل نسبةً إلى جَوْزَة كانت في داره بواسط، لم يكن بواسط جوزة غيرها، ثم توارث أبناؤه هذا اللقب. وجعفر هذا هو ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق.

وكان أهله تجّاراً بالنحاس، فلم يشتغل بالعلم غيرُه. قال في «لفتة الكبد»: واعلم -يا بُنَيّ- أننا من أولاد أبي بكر الصديق، ثم تشاغل سلفُنا بالتجارة والبيع والشراء، فما كان من المتأخرين مَن رُزق همّةً في طلب العلم غيري.

وقد صرّح في مواضع من «صيد الخاطر» بأن أباه تُوفِّيَ وهو صغير، وكان موسراً وخلّف أموالاً كثيرة، فما أعطوه منها إلا عشرين ديناراً ودارين، وقالوا له: هذا نصيبك من إرث أبيك! فاشترى بذلك كتباً. وأن أمه أهملته وانصرفت عنه[2]. وذكر ابن كثير أن عمته رعته وأخذته -لمّا أدرك- إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ، فاعتنى به وأسمعه الحديثَ وحفّظه القرآن.

وكان مولده في بغداد، وقال: لا أحقق تاريخ مولدي، غيرَ أنه مات والدي سنة أربع عشرة، وقالت الوالدة: كان لك من العمر ثلاث سنين.

---

(١) الفُرْضة المرفأ.

(٢) قال ابن رجب: لما مات أبوه كفلته أمه وعمته.

وقد اتفق كل من ترجم له على أنه لم يكن في صغره يألف الصبيان أو يلعب لعبهم وأنه نشأ على العفاف والصلاح. قال في «لفتة الكبد»: أذكر نفسي ولي همّة عالية وأنا في المكتب ابن ست سنين وأنا قرين الصبيان الكبار، قد رُزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط، ولا ضحكت ضحكاً عالياً، حتى إني -ولي سبع سنين أو نحوها- أحضرُ رحبة الجامع فأطلب المحدّث يتحدث، فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت وأكتبه. ولقد رفق بي شيخنا ابن ناصر، وكان يحملني إلى الشيوخ، فأسمعني «المسند» وغيره من الكتب الكبار، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فنلت به معرفة الحديث والنقل. ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر، وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حُجْزَةً من الناس (أي مبتعداً عنهم) فأتشاغل بالعلم.

ثم صحب أبا الحسن ابن الزاغوني ولازمه. قال ابن الجوزي: كان له في كل فن من العلم حظ وافر، ووعظَ مدةً طويلة، وصحبته زماناً فسمعت منه الحديث وعلّقت عنه من الفقه والوعظ، وكانت له حلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ثم يعظ بعد الصلاة، ويجلس يوم السبت أيضاً. وشهد ابن ناصر لابن الزاغوني أنه كان فقيه الوقت (أي في المذهب الحنبلي) وأنه كان مشهوراً بالصلاح والديانة والورع والصيانة. وتوفي ابن الزاغوني حين بلغ ابن الجوزي سنّ الحلم، فطلب ابن الجوزي خَلْفَتَه (أي أن يحل محله) فلم يُعطَ ذلك لصغره وأعطيت الخلفة لأبي علي الرذاني، فذهب ابن الجوزي إلى الوزير فألقى

بين يديه فصلاً في المواعظ، فأذن له بالوعظ في جامع المنصور.

قال: فتكلمت فيه، فحضر مجلسي أولَ يوم جماعةٌ من أصحابنا الكبار من الفقهاء، ثم تكلمت في مسجدِ معروف الكرخي وفي باب البصرة ونهر المعلّى، فاتصلت المجالس واشتدّ الزحام، وقوي اشتغالي بفنون العلم، وانقطعَت مجالس أبي علي الرذاني.

وقرأ -بعد ابن الزاغوني- الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري والقاضي أبي يعلى. وتتبع مشايخ الحديث والفقه، قال: لم أقنع بفن واحد، بل كنت أسمع الفقه والحديث وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ ولا غريباً يقدم إلا وأحضره وأتخير الفضائل. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نَفَسي من العدو لئلا أُسبَق، وكنت أصبح وليس لي مأكل وأمسي وليس لي مأكل، وما أذلني الله لمخلوق قط، ولو شرحت أحوالي لطال الشرح.

* * *

تحدث ابن الجوزي عن نفسه في كتابه «صيد الخاطر» فبيّنَ أنه نشأ في النعيم ورُبِّيَ على الدلال، وأنه قد حُبِّبَ إليه العلم من زمن الطفولة، ولم يرغب في فن واحد من فنونه بل رغب في كل فن، وأنه يتردد أبداً بين الزهد والعبادة وبين العلم والبحث، وأن مِن لِدَاته وأصحابه مَن أنفق عمره في اكتساب الدنيا ثم لم يَنَلْ منها ما ناله هو، وأنّ عيشَه ألينُ من عيشهم وجاهَه أعلى من جاههم.

وبيّنَ كيف كان -في زمن الطلب- يأخذ معه أرغفة يابسة فيقعد على نهر عيسى، لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلا

عند الماء، كلما أكل لقمة شرب عليها شربة، وأنه وجد -مع ذلك- من لذة العلم وحلاوة الإيمان ما يخاف على نفسه العُجْب إنْ شرحه. وبيّن أنه سلك في أول أمره طريق الزهّاد، وأنه برع في الوعظ حتى اتصل بهذه البراعة بالسلطان، ففقد بصحبته ما كان يجد في قلبه من النور.

وقال في «لفتة الكبد» يخاطب ولده: "وما ذلَّ أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعّاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً". وكانت لحيته قصيرة جداً، وقد ذكروا أنه شرب حب البلاذر فسقطت لحيته! وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات، وصنّفَ كتاباً في جواز الخضاب بالسواد.

قال ابن كثير: وكان فيه بهاءٌ وترفُّعٌ وإعجاب بنفسه وسُمُوٌّ بها أكثرَ من مقامها، وذلك ظاهر في كلامه، في نثره ونظمه. وقال ابن رجب: ممّا عيبَ عليه ما يوجد في كلامه من الثناء على نفسه والترفّع والتعاظم وكثرة الدعاوى، ولا ريب أنه كان عنده من ذلك طرف، سامحه الله.

* * *

وقد ابتُلي ابن الجوزي في آخر عمره. وتفصيل ذلك أن الوزير ابن يونس الحنبلي كان قد عقد مجلساً للركن عبد السلام الجيلي[1] وأحرق كتبه، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جَدِّه وسلّمها لابن الجوزي.

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني.

فلما ولي الوزارةَ ابنُ القصّاب (وكان رافضياً خبيثاً) سعى في القبض على ابن يونس وتتبّع أصحابه، فقال له الركن: أين أنت عن ابن الجوزي؟ فإنه ناصبي ومن أولاد أبي بكر، وهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وقد أعطاه مدرسة جدي وأُحرقت كتبي بمشورته.

فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر (وكان الناصر له ميل إلى الشيعة ولم يكن له ميل آخرَ أيامه إلى الشيخ أبي الفرج، بل قد قيل أنه كان يقصد أذاه، وقيل أن الشيخ ربما كان يعرّض في مجالسه بذمّ الناصر) فأمر الخليفة بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأغلظ عليه وختم على كتبه وداره وشتّت عياله. فلما كان في أول الليل حُمل في سفينة وليس معه إلا عَدوّه الركن فأُحدِرَ إلى واسط، وكان ناظرها شيعياً، فقال له الركن: مكّنّي من عدوّي لأرميه في المطمورة[1]، فزبَره وقال: يا زنديق، أرميه بقولك؟ هات خط الخليفة. والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي ومالي في خدمته!

---

(١) هذه المفردة كثيرة الدوران في كتب ذلك العصر. وهي الحفرة تُحفَر في الأرض، وكانوا يستعملونها ليخبئوا فيها الكنوز والأموال (يوم لم تكن في الدنيا مصارف تودَع فيها الأموال) أو ليحبسوا فيها من أرادوا حبسه من الناس. والذي يبدو من وصف المطامير في كتب الأدب والتاريخ أنها كانت حُبوساً تحت الأرض لها أبواب محكمة، ظاهرة على سطح الأرض أو خفيّة، ولا ريب أنها كانت كحبوس اليوم السيئة السمعة في بلاد الظالمين، حيث لا يصلها ضياء ولا يتجدد فيها هواء، وربما تركوا المحبوس فيها حتى يموت (مجاهد).

قال ابن القادسي: لما حضروا واسط جُمع الناس وادعى الركن على الشيخ أنه تصرف في وقف المدرسة واقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادّعاه، وأنكر الشيخُ وصدق وبَرّ. ثم أُفرد للشيخ دار بدَرْب الديوان وأُفرد له من يخدمه. وبقي الشيخ محبوساً بواسط في تلك الدار وعلى بابها بوّاب، وكان بعض الناس يدخلون عليه ويستمعون منه فيُملي عليهم، وكان يرسل أشعاراً كثيرة إلى بغداد.

وأقام بها خمس سنين، يخدم نفسه بنفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من خروج إلى حمّام ولا غيره، وقد قارب الثمانين! ويُقال أنه بقي خمسةَ أيام في السفينة حتى وصل إلى واسط لم يأكل فيها طعاماً. وذُكر عنه أنه قال: قرأت بواسط مدةَ مقامي بها كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف[1].

وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين[2]، ثم أُفرج عنه وقدم إلى بغداد، فخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقّيه وفرح به أهل بغداد فرحاً زائداً، ونودي له بالجلوس يوم السبت، فصلى الناس الجمعة وعبروا يأخذون مكانات موضعَ المجلس عند تربة أم الخليفة[3]، ثم جلس الشيخ بكرةَ السبت وعبَرَ الخلقُ

---

(١) أي على بعده عنه.

(٢) أي سنة ٥٩٥هـ.

(٣) بمعنى أنهم راحوا يحجزون مقاعد لهم من يوم الجمعة ليسمعوا موعظته يوم السبت (مجاهد).

وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الرُّبَط، وامتلأت البرّية حتى ما كان يصل صوتُ الشيخ إلى آخرهم.

وأعاد الخليفة الشيخ إلى بغداد وخلع عليه، ثم لم يزل على عادته الأولى في الوعظ ونشر العلم وكتابته إلى أن مات.

* * *

قال سبطه أبو المظفر: جلس جدي يوم السبت سابع شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمئة تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتاً قال في أولها:

اللهَ أسأل أن يطوّل مدتي وأنالَ بالإنعام ما في نيَّتي

قال: ثم نزل عن المنبر فمرض خمسة أيام وتُوفِّي. وكانت وفاته ليلة الجمعة ١٢ رمضان سنة ٥٩٧، بين العشاءين، وعمره نحو التسعين. وغسل وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغُلِّقت الأسواق، وحُملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، وكان الشهر تموز[١] فأفطر بعض من حضر لشدة الحر وكثرة الزحام، وما وصل إلى حفرته إلا وقت صلاة الجمعة والمؤذن ينادي للصلاة، ودُفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل، وأوصى بأن تُكتَب على قبره هذه الأبيات:

---

(١) يعرفونه في مصر والخليج باسمه الأعجمي، يوليو. وتَمّوز هو اسمه العربي القديم والشائع في بلاد الشام والعراق إلى اليوم، وهو من أكثر شهور السنة حرارة (مجاهد).

يا كثيرَ العفو عَمَّنْ كَثُرَ الـذنْبُ لديـه
جاءك المذنب يرجو الصفحَ عن جُرم يدَيه
أنـا ضيفٌ، وجـزاءُ الضيف إحسـانٌ إليه

قال سبط ابن الجوزي: ومن العجائب أنّا كنا جلوساً عند قبره بعد انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشطّ وخلفه تابوت، فعجبنا وقلنا: ترى من مات في الدار؟ وإذا بها والدة محيي الدين، وعهدي بها في ليلة الجمعة التي مات فيها جدّي في عافية تامة قائمة ليس بها مرض، فكان بين موتها وموته يوم وليلة، وعدّ الناس ذلك من كراماته لأنه كان محباً لها لا يصبر على البعد عنها، عليهما رحمة الله.

* * *

وكان له من الأولاد ثلاثة ذكور وثلاث إناث: أكبر أولاده عبد العزيز، وقد مات شاباً في حياة أبيه سنة ٥٥٤، والثاني أبو القاسم علي الذي ألّفَ له «لفتة الكبد في نصيحة الولد» ورجا أن ينبغ في العلم وأن يَخلفه، فما أراد الله ذلك، وقد كان عاقّاً له وكان مع خصومه أيام المحنة وتسلط على كتبه فباعها بأبخس الأثمان.

والثالث محيي الدين يوسف، وكان أصغر أولاده، وُلد سنة ٥٨٠ وقرأ القرآن بالقراءات العشر على ابن الباقلاني وسمع الحديث من أبيه، وكان كثير المحفوظ قوي المشاركة في العلوم، اشتغل بالفقه والخلاف والأصول فبرع في ذلك وزاد في الشهرة على أبيه، ووعظ من صغره على طريقة أبيه، وعلا أمرُه وعَظُم

شأنه وولي الولايات الجليلة، ثم عُزل عن جميع ذلك فانقطع في داره يفتي ويدرّس. وكان سفيرَ الخليفة إلى ملوك الأطراف، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم[1] وقُتل معه[2].

وهو الذي بني المدرسة الجَوزيّة في دمشق[3]، وإلى هذه المدرسة يُنسَب ابن قيّم الجوزية العالم المعروف، لأن أباه كان قَيِّماً عليها. وبعض الناس يخلطون بينه وبين ابن الجوزي، حتى إنه طُبع في مصر من قديم كتاب «أخبار النساء» لابن الجوزي فنسبوه إلى ابن قيّم الجوزية، مع أن بين وفاة هذا ووفاة ذاك ستين سنة، وهذا دمشقي وذاك بغدادي!

وكان من بناته رابعة أم أبي المظفَّر بن قُزُغْلي، المشهور بسبط ابن الجوزي، صاحب التاريخ الكبير المعروف بـ«مرآة الزمان»، رحم الله الجميع.

* * *

(١) أي وزير البلاط.

(٢) عندما اجتاح التتار بغدادَ واستباحوها سنة ٦٥٦هـ، ووَهِمَ ابن خَلِّكان في «الوَفَيات» فأرّخَ وفاته بسنة ثلاث وستين (مجاهد).

(٣) وهي على يمين الداخل إلى دار العَظْم في البزوريّة، وكان فيها على أيامنا مدرسة الإسعاف الخيري، ثم جُدِّدَت وصار أسفلها دكاكين.

رسائل

أعلام التاريخ

بين يدي الأعلام

كنت في شتاء ١٩٥٩ أشتغل بنشر سلسلة «أعلام التاريخ» التي تكلّمت فيها عن رجال، منهم من عرف الناس سيرته مُجمَلة ففصّلتها كعبد الرحمن بن عوف، ومن سمع الناس باسمه ولم يعرفه أكثرهم كالقاضي شُرَيك، صاحب المناقب التي قلّما حوى تاريخ قضاء أمّة مثلها، وعبد الله بن المبارك، المليونير الزاهد والفقيه المحارب العابد. ومنهم من لم يسمع به في بلدنا إلّا نفر قليل كأحمد بن عرفان، الذي كان عالماً عابداً وكان زعيماً مجاهداً، والذي نازل في الهند الإنكليز والسيخ معاً وأقام دولة تحكم بالإسلام عجز العدو عنها، فقضى عليها الجَهَلة من المسلمين العوامّ.

ومنهم الرجل الذي أرجو أن يقرأ سيرته كل عالِم وطالب علم، الذي أخلص حياته للعلم وفرغ من شهوتَي بطنه وفَرجه وبلغ أرفع منصب علمي على أيامه، وهو أنه صار مدير الجامعة الكبرى، أي شيخ «دار الحديث الأشرفية»، التي كان من أوائل شيوخها ابن الصلاح وأبو شامة ومن أواخرهم الشيخ بدر الدين الحسني والشيخ عبد الحكيم الأفغاني. وهو صاحب «المجموع»، أكبر مرجع في فقه الشافعية. أما عرفتموه؟ إنه النووي.

وما كنت أكتب عنهم مكدّساً الروايات التاريخية بعضها فوق بعض، كجدار فيه الحجارة الكبار لكن بلا مِلاط يمسكها ولا هندسة تنظمها. بل كنت في تأليف هذه السلسلة أمشي على طريقتي في كتابي «رجال من التاريخ»: أجمع أقوال المؤرّخين ثم أحقّقها، ثم أختار مشهداً من حياته أجعله مدخلاً إلى الكتابة عنه، فيكون ما أكتبه عنه وسطاً بين القصّة الأدبية والسيرة التاريخية.

(الذكريات: ٦/١٩)

عبد الله بن المبارك

ما أكثرَ أدعياءَ الزهد وما أقلَّ الزاهدين! وليس الزهد في الدنيا أن تتركها وتنفض يديك منها وتأوي إلى مغارة مظلمة أو دَير منقطع، وليس ذلك من الإسلام، ولو أن كل مسلم فعل هذا أو اتبع ما خَطّ الغزالي[١] في بعض صفحات «الإحياء» لمَا بقيت على الأرض أمّة تدعو إلى الله وتجاهد لإعلاء كلمته وتكون خيرَ أمة أخرجت للناس، تسود الأرض بحقّها وتمحق الباطل بقوتها وتحقق أماني البشر في العدل والخير، ولكنّ الزهد ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحبه. ومَن أزهدُ من رسول الله؟

كان الصحابة عبيداً لله سادة في الدنيا، وكانوا أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، وكان منهم من آثَرَ القناعة والرضا بالقليل وهو راض عن الله، ليس في نفسه طمع في الغنى وليس في قلبه حسرة على فواته، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ، ومنهم من كان له المال الوفير، ولكن المال كان في يده لا في قلبه، وكان اعتماده على الله لا على المال، وكان يجمعه بكَدٍّ وينفقه عن رضا، لا يستخفّه الفرح بما أتاه منه ولا يهدّه الأسى على ما فاته.

---

(١) الغزالي من أعظم علماء الملّة وليس له في تفكيره مثيل، ولكنه لمّا سلك مسالك الصوفية جاء في كتابه «الأحياء» بما أُنكِر عليه.

وهذا هو الزهد. لَرُبَّ غنيٍّ مُفرطِ الغنى (كعثمان وعبد الرحمن والزبير) كان أزهدَ في الدنيا من كثيرين ممّن يلبسون مرقَّعات الصوف ويكتفون بالخبز والملح وينامون على التراب، وقلوبهم متعلقة بالدنيا وأنظارهم شرهة إلى ما في أيدي الأغنياء.

والإسلامُ لا يمنع الغِنَى ولا يحرّم جمع المال إنْ أدّى صاحبُه زكاتَه، وما نُسِبَ إلى أبي ذر كان وَهْماً منه، خالفه فيه من الصحابة مَن هو أعلم منه علماً وأقدم إسلاماً ولم يأخذ به أئمة الفقهاء[١].

وأنا محدّثكم عن زاهد عرف حقيقة الزهد، فكان ظاهرُه ظاهرَ أبناء الدنيا وقلبُه قلبَ من لا يغفل عن الله. وكان يخفي صلاحه، وأكثرُ المتزهّدين يحرصون على إظهار الصلاح، ويهرب من السلطان، والناسُ يتزاحمون على بابه، ويحرص على اتّباع السنة، ويتمسك الناس بالبدع والمحدثات، ويستصغر نفسه، ويتكبر الناس ويزهون بأنفسهم.

وكان -مع ذلك كله- محدّثاً فقيهاً عالماً ولم يكن من العبّاد الجاهلين، وربما لَبَّسَ إبليس على العابد الجاهل أو عبثت به الشياطين، فإن رأى عابداً فقيهاً خنس وأبلس.

* * *

يبدأ هذا الحديث في الرّقَّة. ولم تكن الرقة كما هي اليوم، قرية

---

(١) فلينتبه لذلك شبّان المسلمين ولا يغترّوا بما يقرؤونه لبعض كُتّاب العصر عن أبي ذر واشتراكيته التي يزعمونها، فالمسألة كما ذكرت.

منقطعة[1]، بل كانت مدينة زاهرة فيها القصور وفيها المَغاني[2]، وكانت منزل هارون الرشيد، أعظم ملوك الدنيا في عصره، يفرّ إليها من الدنيا كلما حَنَّ إلى حياة الصحراء، حياة العرب الأُوَل بطهرها وصفائها، فتلحقه إليها الدنيا بعظمتها وجلالها[3].

وكان قد وصل موكب الخليفة، فخرج الناس لاستقباله، ثم حَفّوا بقصره تطلعاً إلى رؤية وجهه وأملاً بنيل عطاياه. وكانت معه نساؤه وجواريه، وكُنّ يستشرفنَ من خِصاص النوافذ، يَرَيْنَ هذا الحشد وهذا الازدحام فيشعرنَ بالزهو والعظمة والاغتباط.

ونظرنَ يوماً فإذا الناس ينفضّون من حول القصر ويسرعون إلى مدخل البلدة، يتطلعون إلى الطريق كأنهم يرقبون مَن يطلُع عليهم. فعجبنَ وسألن: من هذا القادمُ الذي نسي الناس لمَقدمه الخليفة وموكبه وعطاياه؟ قالوا: هو عالم من خراسان. قلنَ: عالم؟ وماذا يكون هذا العالم؟ وماذا يبتغي الناس منه؟ قالوا: يسألونه عن أمور دينهم. قلن: هذا والله المُلْك، لا ملك هارون الرشيد الذي لا يجمع الناس عليه إلا بالدراهم أو بالعصا.

---

(١) لعلها كانت كذلك حينما كتب جدي رحمه الله هذه الرسالة قبل نحو ستة عقود، وهي اليوم مدينة كبيرة يبلغ سكانها قريباً من ربع مليون، ويبدو أنها نهضت نهضة جديدة بعد بناء سَدّ الفرات (سد الطبقة) الذي فُرغ من إنشائه سنة ١٩٧٣ (مجاهد).

(٢) أي «الفلل» بالتعبير الحديث، واحدها مَغْنَى (مجاهد).

(٣) اتخذها هارون الرشيد عاصمةً لدولته ومستقراً له لأكثر من ثلاثَ عشرةَ سنة (١٨٠-١٩٣)، فأمضى أكثرَ أيامه في تلك السنين فيها وأقلَّها في بغداد (مجاهد).

وكان ذلك العالم الخراساني هو عبد الله بن المبارك، أحد أعاجيب الدنيا.

* * *

لقد كان في عصر تدوين الحديث، وكانت مجالس التحديث منتشرة في كل بقعة من ديار الإسلام، وكان المحدّثون فيه وفي العصر الذي يليه متوافرين، وكان في هذا العصر عدد من أئمة الحديث لم يجتمع مثلهم في عصرٍ غيره، فتعالوا نسأل عنه في جماعة المحدثين.

هذا أحمد بن حنبل، ناصر السنّة الصابر في المحنة، شيخ المحدّثين وصاحب المسند، فاسألوه عنه يَقُلْ لكم إنه لم يكن في زمانه أحدٌ أشدَّ طلباً للحديث منه. وهذا النَّسائي(١)، أحد المؤلفين الستة الذين كُتب لأسمائهم الذكر ولكتبهم البقاء، يخبركم أنه لم يكن في عصره أجلّ منه.

وهذا عبد الرحمن بن مهدي(٢)، أتعرفونه؟ هو الذي قال فيه الشافعي: لم أعرف له نظيراً في الدنيا. كان عبد الرحمن يشهد أن الأئمة أربعة، يعني أئمة الحديث: سفيان الثوري(٣) ومالك بن أنس وحماد بن زيد وابن المبارك. ويقول: لم يكن أعلمُ بالحديث من سفيان، ولا أحسنُ عقلاً من مالك، ولا أقشفُ من شعبة بن

---

(١) صاحب السنن، المتوفى سنة ٣٠٣.

(٢) من كبار حُفّاظ الحديث، توفي سنة ١٩٨.

(٣) كان سيد أهل زمانه في العلم والتقوى، توفي سنة ١٦١.

الحجاج[1]، ولا أنصحُ لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك. ثم فَضّلَ ابنَ المبارك على سفيان فقال: كان ابن المبارك أعلم من سفيان الثوري. فقيل له: إن الناس يخالفونك. قال: إن الناس لم يجرّبوا؛ ما رأيت مثل ابن المبارك.

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له، فاجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا: جالستَ سفيان الثوري وسمعت منه وسمعت من عبد الله، فأيُّهما أرجح؟ فقال: ما تقولون؟! لو أن سفيان جهدَ جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر. وقال علي بن المَديني[2]: عبد الله بن المبارك أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي. وكان يحيى بن آدم[3] يقول: كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيِسْتُ منه. وقال سفيان: إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثةَ أيام!

وجاء رجل فسأل سفيان عن مسألة، فقال له: من أين أنت؟

---

(١) شعبة، من علماء الجرح والتعديل، قال أحمد: هو أمّة وحدَه في معرفة الرجال. وكان مع ذلك عالماً بالأدب والشعر، شهد له بذلك الأصمعي، توفي سنة ١٦٠.

(٢) علي بن عبد الله المديني، محدث مؤرخ، كان حافظ عصره، توفي سنة ٢٣٤.

(٣) محدّث فقيه، توفي سنة ٢٠٣، له كتاب «الخراج»، وهو أحد الكتب الثلاثة التي تُعَدّ أعظمَ المراجع في بحث المالية في الإسلام؛ هذا الكتاب و«الخراج» لأبي يوسف و«الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام.

قال: من أهل المشرق. قال: أوَ ليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد الله؟ قال: هو عبد الله بن المبارك. قال: هو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم، وأهل المغرب.

وشهد له بمثل ذلك الفُضَيل بن عياض[1]. وقال ابن عُيَيْنة[2]: نظرت في أمر الصحابة وأمر عبد الله بن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلّا بصحبتهم النبي ﷺ وغزوهم معه. وشهد له بمثل ذلك يحيى بن مَعين[3]، إمام أهل الجرح والتعديل.

* * *

أرأيتم منزلته بين أهل الحديث؟ إنه لو لم تكن إلّا هذه لَكَفته، ولكنّ له غيرها. إنّ المحدثين رجالُ صحيفة وكتاب ومجلس وسماع[4]، ولكن ابن المبارك كان -مع ذلك- رجلَ منازلة وضِراب وفروسية وصراع. فتعالوا نسأل عنه في مجال الأبطال: في الثغور.

إن الثغور -أيها القراء- هي المدن المكشوفة على الحدود التي يمكن أن يتسلل منها العدو، وقد أقامت فيها الدولة مخافرَ دائمةً فيها الجند، تحمي تلك الثغور، هي «العواصم»، ولكن

---

(١) من أكابر المحدّثين والزهّاد الصالحين، كان شيخَ الشافعي، توفي سنة ١٨٧.

(٢) سفيان بن عيينة، محدّث الحرم المكي، حافظ ثقة، قال الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨.

(٣) الذي شهد له أحمد فقال: هو أعلمنا بالرجال، توفي سنة ٢٣٣.

(٤) سماع الحديث لا سماع الغناء.

القوة التي كانت تحميها حقيقةً وتردّ عنها العدو هي قوى المتطوعين الذين يخرجون من أنفسهم، يبيعونها من الله ويبذلونها في سبيله ليكون لهم ثواب المجاهدين. فكان كل ثغر باباً مفتوحاً إلى الجنة ومدرسة دائمة للبطولة ومجالاً للأبطال.

وكان ابن المبارك يحجّ سنة ويغزو مرابطاً في الثغر سنة، فكان المجاهدون إذا سمعوا بوصوله تسابقوا إلى استقباله، وحَفّوا به يتعلمون منه العلم ويكرمون فيه البطل. ولقد كان أحد الأبطال الذين تشتد بوجودهم قلوب الرجال. وكانوا إذا احتدم الخطب وادْلَهَمّت المعركة وعبست لجؤوا إليه وإلى أمثاله من المجاهدين، الذين لا يخافون موتاً ولا يرهبون عدواً لأنهم كانوا يخافون الله، ولا يجتمع في قلبٍ واحدٍ الخوفُ من الله والخوف من الموت في سبيله. وهاكم أحدَ العلماء المرابطين يخبركم خبره ويُسمعكم حديثه.

حدّث عَبْدَة المَرْوَزي[1] عنه أنه كان معه في سرية في بلاد

(١) حاشية مهمّة: يتداول بعض الوعّاظ خبراً يزعم أن عبدة المروزي تنصّر ولحق بالروم، وهو وَهْمٌ وَهِمَه أولَ مرة ابنُ كثير في «البداية والنهاية» ثم تابعه عليه غيرُه بلا تمحيص، فأحببت أن أوضح المسألة وأدفع عن رجلٍ صالح، عسى أن أكون ممّن نصر مسلماً في موطن يُنتهَك فيه من عِرضه وتُستحَلّ حرمته، فيهيّئ الله لي من ينصرني في موطن أرجو فيه نصرته.

روى ابن كثير الخبر في حوادث سنة ٢٧٨، قال: وفيها توفى عبدة بن عبد الرحيم قبّحه الله. ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلما كان في بعض الغزوات =

الروم، وكانت قد خرجت للاستطلاع والكشف لا للحرب والقتال، ففاجأتها قوةٌ ضخمة من الروم وأحاطت بها. واضطُرَّت السرية للدفاع، فاصطفّ العسكران، وبرز إلى الميدان فارس من الروم فجال بين الصفين ودعا إلى المبارزة (على عادتهم في تلك

= والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصّر وتصعد إليّ. فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلّا وهو عندها، فاغتمّوا لذلك غماً شديداً وشَقّ عليهم مشقّة عظيمة. فلما كان بعد مدة مرّوا عليه وهو مع تلك المرأة في الحصن، فقالوا: يا فلان، ما فعل قرآنك؟ ما فعلت صلاتك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ فقال: اعلموا أني أُنسيت القرآن كله إلا قوله: ﴿ربَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وقد صار لي فيهم مال وولد. انتهى.

وأصل القصة عند ابن الجوزي الذي تسرّع ابنُ كثير -غفر الله له- في النقل عنه فحذف أحدَ أطرافها، فقلبَها بالكلّية؛ قال في «المنتظم»: كان عبدة من أهل الدين والجهاد. ثم روى عنه بسنده قال: خرجنا في سريّة إلى أرض الروم، فصحبَنا شابٌّ لم يكن فينا أقرأَ للقرآن منه ولا أفقهَ ولا أفرَضَ، صائم النهار قائم الليل، فمررنا بحصن، فمال عن العسكر ونزل بقرب الحصن، فنظر إلى امرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها، فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟ قالت: حين تنصّر يُفتَح لك الباب وأنا لك. ففعل فأُدخل الحصن. قال: فقضينا غَزاتنا في أشد ما نكون من الغَمّ، كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صُلبه. ثم عدنا في سرية أخرى بعد حين، فمررنا به ينظر من فوق الحصن مع النصارى، فقلنا: يا فلان، ما فعلت قراءتك؟ ما فعل علمك؟ ما فعلت صلواتك وصيامك؟ قال: اعلموا أني نسيت

الأيام) فبرز إليه فارس معروف من فرسان المسلمين، فما هي إلا جولات حتى قتله الرومي. وعاد يدعو إلى المبارزة، فخرج إليه آخر فقتله، وثالث فقتله، فتأخر عنه المسلمون، فصال وجال وراح يفخر ويتحدى.

فبرز له رجل منّا، متلثّم لا يَبين منه إلّا عيناه، ولم نعرف مَن هو، فخفنا عليه أن يُلحقه الرومي بالثلاثة الذين قتلهم، وإذا هو يصاوله ساعة ولا يقدر أحدٌ منهما على صاحبه، وقد تعلقت بهما أنظار أهل العسكرين، وكل منهما يهتف لصاحبه ويشجعه ويدفعه، وهما يُبديان من الكَرّ والفَرّ وفنون القتال ما لم يَرَ الناس مثله، ثم طعن الفارس الملثم الروميَّ فصرعه وألقاه قتيلاً. وكبّر المسلمون وانخذل الروم، وازدحمنا عليه لمّا رجع وهو يتوارى منا لئلا نعرفه، ولا يخبرنا عن نفسه، فأسرعت إليه فأخذت بلثامه فأزحته عن وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك.

* * *

أرأيتم منزلتَه بين المقاتلين؟ لو لم تكن له إلا هذه لكفته، ولكنّ له غيرها. ذلك أن المجاهدين المقاتلين كالعلماء

= القرآن كله، ما أذكر منه إلّا هذه الآية: ﴿رُبَما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. ذَرْهُمْ يأكلوا ويتمتّعوا ويُلْهِهِمُ الأملُ فسوف يعلمون﴾. انتهى كلام ابن الجوزي.

فظهر أن الذي افتُتن بالمرأة فتنصّر ولحق بالقوم ليس عبدة، إنما هو شاب من الجيش، وقد أثبت هذه القصةَ أيضاً وبرّأ عبدة من تهمة الردة ابنُ عساكر في تاريخه والذهبيُّ في «تاريخ الإسلام» (مجاهد).

المحدّثين، ما فيهم إلّا مَن هو فقير مفلس أو مُكْتَفٍ مستور، ولكنّ هذا المحدث المجاهد كان غنياً واسع الغنى، ولم ينَلْ غناه إرثاً من أبيه، فأبوه -كما ستعلمون- لم يكن من أرباب الأموال، ولم ينله من عطايا السلطان، فما له صلة بالسلاطين، بل ناله بكدّه وجِدّه، فقد كان تاجراً من أكبر تجار عصره، وكانت له قوافل تسير ببضاعته من خراسان إلى العراق والشام.

لقد اجتمعت له المزايا الثلاث: السيادة في العلم، والشجاعة في الحرب، والسعة من المال. ولكن هذه الثلاث لم تكن مزاياه كلها؛ إنّ له غيرها. ذلك أن التجّار، ولو كانوا علماء وكانوا شجعاناً، لا يريدون إلّا النفع العاجل والربح القريب، أما هذا التاجر فكان أعقل من أن يكتفي بالربح القليل عن الربح الكثير ولو مع التأجيل، فلم يكن يبيع بربح خمسة في المئة ولا عشرة، ما كان يرضى ربحاً أقل من أن تصير مئتُه الواحدةُ سبعين ألفاً، على الأقل، وربما صارت المئة في هذه التجارة مئة وأربعين ألفاً[(١)].

تدرون ما هذه التجارة؟ هي التجارة مع الله يا أيها القراء، تجارة الصدقات، وما كان يتاجر ويشتغل إلّا من أجلها. وكان قد خصص مئة ألف في كل سنة عطايا وهدايا للعلماء والمجاهدين، وكان للكثير منهم رواتب دائمة من صندوق هذا التاجر العالم.

ولقد عوتب فيما يفرّق من المال في البلدان ولا يفعل ذلك

---

(١) من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله كمَثَل حَبَّةٍ أنْبَتَتْ سبعَ سنابلَ، في كل سُنبلة مئةُ حبّة، والله يضاعف لمن يشاء﴾ (مجاهد).

في أهل بلده، فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، فاحتاجوا بحاجة الناس إليهم، فإنْ تركناهم ضاع علمهم، وإن أعنّاهم بَثّوا العلم.

وكان يقول للفُضَيل بن عياض: لولا أنت ولولا أصحابك ما تاجرت.

* * *

وأخبار عطاياه لا تكاد تصدَّق، منها أنه كان إذا خرج إلى الحج اجتمع عليه إخوانه من أهل مَرْو فيقولون: نصحبك يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: نعم. ثم يأمرهم أن يجيئوا بنفقاتهم التي أعدوها لحجهم، فيأخذها منهم فيجعلها في صندوق ويقفله عليها، ثم يكتري لهم الدواب ويطعمهم أطيب الطعام ويقدم إليهم أنفس الحلويات، حتى يصلوا بغداد فينزلهم فيها، ثم يُخرجهم منها على أكمل حال حتى يصلوا إلى المدينة، فيقول لكل رجل منهم: أما وصّاك عيالك أن تشتري لهم من طُرَف المدينة؟ فيقول: بلى. فيقول له: وبِمَ وصَّوك؟ فيقول: بكذا. فيشتريه له. ثم إذا قدموا مكة قال لهم مثل ذلك واشترى لهم ما يريدون.

ثم يعود بهم، حتى إذا اقتربوا من مَرْو أرسل مَن يجيء إلى دار كل واحد منهم فيصلحها ويجصّصها ويرمّمها ويزيّنها، فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة ودعاهم، فأطعمهم ووزّع عليهم الثياب الجديدة، ثم دعا بالصندوق ففتحه، وردّ على كل واحد منهم ما كان دفعه إليه من النفقة.

وحدّث خادمه أن آخر وليمة من هذه الولائم كان فيها

خمسة وعشرون خِواناً[1] عليها الفالوذَج.

وكان يخرج في الجهاد إلى المصّيصة[2] فصحبه مرة جماعة من الصوفية تطوّعوا للجهاد، فقال لهم: أنتم لكم نفوس تحتشمون من أن ينفق عليكم أحد. ثم دعا بطست فغطاه بمنديل وقال: يلقي كل رجل منكم ما معه من المال تحت المنديل. فجعل الرجل منهم يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين، فلما بلغ المصّيصة قال: هذه بلاد نفير، فلنقسم ما بقي. فيعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول له: يا أبا عبد الرحمن، إنما أعطيت أنا عشرين درهماً. فيقول له: وهل تنكر أن يبارك الله للغازي في ماله؟

وجاءه رجل فسأله أن يقضي دَيناً عليه، فكتب بذلك إلى وكيل له، فلما ورد الكتاب على الوكيل سأله: كم الدَّين الذي عليك؟ قال: سبعمئة درهم. فنظر الوكيل في الكتاب فإذا هو أمر له بسبعة آلاف، فكتب إليه: إنك قد كتبت سبعة آلاف وإنما هي

---

(١) بكسر الخاء وضمّها، مؤنثة وتذكَّر. وهي بمعنى المِنضَدة أو الطاولة في عصرنا الحاضر (والطاولة لفظة دخيلة، أظن أن أصلها إيطالي)، كانوا يضعون عليها الأكل، ويبدو -من وصفها في كتب الأدب- أن قوائمها قصيرة، فيتحلقون حولها قعوداً على الأرض. قال الشاعر:

أكَبَّ على الخِوانِ وكان خِفّاً ... فلمّا قام أثقله القيامُ

وفائدة أخرى: لا يقال للخوان والطاولة مائدةً إلا إذا وُضع عليها الطعام. وهذه لطيفة لغوية يغفل عنها كثير من الكتّاب (مجاهد).

(٢) كانت ثغراً مشهوراً من ثغور الروم، ويبدو أن موقعها قريب من مدينة أضنة التركية، ضبطها ياقوت بفتح الميم والبكري بكسرها (مجاهد).

سبعمئة، وقد ذهبت الغلّات ولم يبقَ منها إلّا القليل. فكتب إليه ابن المبارك: والعمر قد ذهبت أيامه ولم يبقَ منها إلّا القليل، أعطِه ما سبق به قلمي.

وكان كلما ورد الرقة في طريقه إلى الثغر ينزل في خان. وكانت الخانات هي فنادق تلك الأيام، فكان يتردد عليه شاب يخدمه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث. فقدم عبد الله الرقة مرة فلم يَرَ ذلك الشاب، وكان مستعجلاً فمضى إلى الثغر، فلما عاد إلى الرقة سأل عنه، فقالوا: إنه محبوس لدَين ركبه. فلم يزل يستقصي حتى دُلّ على صاحب الدين، فدعا به ليلاً ودفع إليه عشرة آلاف درهم، وأمره أن يُخرج الشاب من الحبس، وحلّفه ألّا يخبر بذلك أحداً ما دام عبد الله حياً.

وخرج الشاب، فقيل له: إن ابن المبارك كان هنا وقد سافر. فركب فلحقه، فقال له: يا فتى، أين كنت؟ إني لم أرَك في الخان؟ قال: نعم يا أبا عبد الرحمن، كنت محبوساً بدَين. قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى دَيني، ولم أعلم به حتى أُخرجت من الحبس. قال: يا فتى، احمد الله على ما وفق إليه من قضاء دينك. ولم يخبر الرجل أحداً بذلك حتى مات عبد الله.

وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر كان معه (ديكٌ أو نحوه)، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك. ثم سار أصحابُه أمامَه وهو وراءهم، فإذا بنت قد خرجت من دار قريبة من المزبلة، فأخذت الطائر الميت فلَفَّتْه وأسرعت به إلى الدار. فجاء يسألها عن أمرها وأخْذِها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا، ليس لنا شيء إلّا هذا الإزار، وليس لنا قُوتٌ إلا ما يُلقَى على هذه

المزبلة، وقد حَلَّت لنا الميتة منذ أيام. وكان أبونا له مال، فظُلم وأُخِذ ماله وقُتل. فأمر ابن المبارك برَدّ الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. قال: عُدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا هذا العام. ورجع.

* * *

كان -كما رأيتم- محدّثاً من أكبر المحدثين ومجاهداً من أشجع المجاهدين وتاجراً غنياً من أكرم التجار الأغنياء الموسرين. وهذه مزايا قلّما اجتمعت في رجل، وكان له غيرها؛ كانت له المزيّة التي يندر أن تلقاها في موسر غني، هي الزهد.

لقد كان -مع هذا كله- زاهداً في الدنيا، لا يباليها ولا يحرص عليها. كان يجمع المال لا ليخزّنه ويركمه في الصناديق، ولا ليشتري به لذات تفنى وأمجاداً هي كالأوهام، لا تُشبع جائعاً ولا تدفئ مقروراً، ولا ليتركه للورثة فيأكلوا ثمرته ويكون عليه هو حسابه، ولكنْ ليشتري به الحسنات ويقدّمه بين يديه إلى آخرته.

وكانت تُحمَل سفرته على عجلة أو بعير، فيها الدجاج المشوي والفالوذَج واللحم والحلوى، يطعم الناس منها وهو صائم، فيفطر حين يفطر على القليل. وصَحِبَهُ قوم من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص وهو صائم. وكان يكثر الخلوة بنفسه والجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه[1]؟

---

(١) أي أنه يشتغل بكتب الحديث.

وهذه واحدة من اللذات التي ينالها الزهّاد والأتقياء والمؤمنون. إنها أروَح على النفس وأمتع للقلب ممّا يَلقى أبناء الدنيا من مُتَع يحسبونها كل شيء ويأسَون على الزهّاد إنْ حُرموا منها، وما يلقاه هؤلاء لو ذاقه الملوك لقاتلوهم عليه بالسيوف.

وكان لا يبالي ما خسر من الراحة والمال في دنياه لتَسْلم له آخرته، وقد استعار مرة قلماً بأرض الشام فنسيه، فلم يذكره حتى وصل إلى بلده في خراسان، فخشي أن يسأله الله عنه، فسافر مرة أخرى إلى الشام حتى أعاده إلى صاحبه[1]. وكان يقول: رَدُّ درهم من شبهة أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بمئة ألف درهم ومئة ألف درهم ومئة ألف درهم ومئة ألف درهم ومئة ألف درهم.

وكانت له -بعد ذلك- خِلال أخرى ومزايا. كان مربّياً يحسن الوعظ ويعرف كيف يأمر الناس بالمعروف، فلا يَثقل عليهم أمرُه، وينهاهم عن المنكر، فلا يُزعجهم نهيه. عطس عنده رجل فلم يحمد الله، فقال له ابن المبارك: إيش يقول إذا عطس؟ قال: يقول الحمد لله. قال: يرحمك الله.

* * *

ذكروا له العبّاد يوماً، فقال: لقد ذكرتم قوماً يُستشفى بذكرهم، ولكن إنْ فعل الناس جميعهم ذلك فمَن لسنن رسول الله ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز؟

---

(١) هذا ورع منه، ولم يوجب الشرع عليه أن يسافر تلك السفرة في مثل ذلك القلم.

وحَقٌّ ما قال ابن المبارك، ولقد كان أهل الصدر الأول خيرَ القرون، وما عرفنا منهم مَن ترك الدنيا وحبس نفسه للعبادة، بل كانوا يخالطون الناس ويطلبون العلم ويشتغلون بالدنيا، وهم كانوا سادة العبّاد.

وقيل له عن جماعة من أهل العلم يأخذون من الناس الزكوات. فقال: وما نصنع؟ إنْ منعناهم وقفوا عن طلب العلم، وإن رخّصنا لهم حصّلوه، وتحصيل العلم أفضل.

وسأله شاب: أيُّهما أفضل له، يقرأ القرآن أو يتعلم الفقه؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك؟ قال: نعم. قال: فعليك بطلب العلم.

* * *

وكان آيةً في الحفظ وفي استمساك الذاكرة؛ سئل: هل تحفظ الحديث حفظاً؟ قال: ما تحفّظت حديثاً، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه، فما اشتهيته علق بقلبي فحفظته.

وحدّث صديق له قال: كنا غلماناً في الكُتّاب، فمررت أنا وابن المبارك برجل يخطب، فخطب خطبة طويلة، فلما فرغ قال ابن المبارك: قد حفظتها. فسمعه رجل من القوم فقال: هاتها. فأعادها عليهم ابن المبارك، وقد حفظها.

وروى نُعَيم بن حَمّاد[١] أنه سمع عبد الله بن المبارك يقول:

---

(١) المَروزيّ الحافظ صاحب التصانيف، توفي سنة ٢٢٨.

قال لي أبي: لئن وجدت كتبك لأحرِّقَنّها. فقلت له: وما عليّ من ذلك وهي في صدري؟

أمّا سعة حفظه للحديث فهاكم عليه شاهداً واحداً. حضر ابن المبارك عند حمّاد بن زيد مسلّماً عليه، فقال أصحاب الحديث لحمّاد: يا أبا إسماعيل، تسأل أبا عبد الرحمن (يعنون ابنَ المبارك) أن يحدّثنا؟ فقال: يا أبا عبد الرحمن، تحدثهم؟ فإنهم قد سألوني. قال: سبحان الله يا أبا إسماعيل، أحدّث وأنت حاضر؟ قال: أقسمت لتفعلَنّ. قال ابن المبارك: خذوا؛ حدثنا أبو إسماعيل حمّاد بن زيد... وحدثهم مجلساً كاملاً، ما حدّث فيه إلا عن حماد، فبلغ منهم العجب.

* * *

وكان في عزة نفسه مَلِكاً تعنو له الملوك، وكذلك يكون العالم إذا لم يُذِلّ هو العلمَ فيَذِلّ بذلّه، وإذا ابتغى بعلمه وجه الله والدار الآخرة لم يبتغِ به الدنيا ومتعها.

جاءه والي مَرْو في منزله ومعه كاتبه ومعه الدّواة والقرطاس فسأله عن حديث. ونحن نكبر اليوم أن يجيء والٍ فيسأل عن حديث ونراه شيئاً عجباً وأمراً نادراً فنشجّعه عليه، ولكن ابن المبارك رأى فيه ما لم نَرَ، فأعرض عنه وأكرم حديثَ رسول الله ﷺ أن يحدّث به من لا يطلبه لله، أو من يجيء بطلبه للفخر والمباهاة ومعه كاتبه، رمز سلطانه. فلم يردّ عليه، فعاد فسأله عن الحديث، فلم يردّ، وعاد الثالثة، ثم قال لكاتبه: اطوِ قرطاسك، ما أرى أبا عبد الرحمن يرانا أهلاً لأن يحدّثنا.

فلما قام قام معه ابن المبارك إلى الباب يشيعه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، لم ترَنا أهلاً لأن تحدثنا وتمشي معنا؟ فقال: أحببت أن أذلّ لك بدني ولا أذل لك حديث رسول الله.

* * *

لعلكم تسألون -بعد هذا كله- عن منبت هذه الدوحة المباركة التي آتت أكلها من أصناف الثمَر أضعافاً. إنّ منبتها -أيها القراء- في بستان في خراسان.

وكان ناطور البستان مولى تركياً صالحاً اسمه مبارك، فجاء صاحب البستان يوماً فأمره أن يقطف له رمّانة حلوة، فذهب فجاءه برمانة، فذاقها فإذا هي حامضة، فقال له: إنها حامضة، فجئني برمانة حلوة. فجاءه بأخرى، فذاقها فإذا هي حامضة، فصاح به: أقول لك أني أريدها حلوة. فقطف له الثالثة، فذاقها فوجدها حامضة. فقال له: ويلك! أحمار أنت؟ ما تعرف الحلو من الحامض؟ قال: وكيف أعرف وأنا لم أذقه؟ قال: لك في البستان كذا سنة ولم تذقه؟ قال: لأنك ما أذنت لي بالأكل منه.

فعجب منه وحقق فإذا هو قد صدق، فأكرمه وعظّمه وجعل يستشيره في أمره، وكانت لصاحب البستان بنت كَثُرَ خُطّابها، فسأله: يا مبارك، مَن ترى نزوج هذه البنت؟ قال: أهل الجاهلية كانوا يزوّجون للحب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمّة للدين.

فأعجبه عقله، وذهب فأخبر به أمها وقال لها: لا أرى لها زوجاً غيره. فتزوجها، فجاءت بعبد الله.

فكان نَسَبُه إلى الصدق والصلاح إن انتسب الناس إلى الأمراء والعظماء وكرام الآباء، وكان حَسَبه العلم والتُّقى إنْ كان حَسَب الناس الإمارة والسلطان، وكان فخرُه بنفسه وعظمتُه بأعماله ومجدُه يبدأ به لا ينتهي عنده.

رحمة الله ورضوانه عليه، وعلى هؤلاء العلماء الذين جمع الله لهم سعادة الدارين وعزّ الحياتين إن شاء الله.

* * *

القاضي شَرِيك

إذا أردت أن تعرف ما أخلاقُ أمة وما مبلغُها من الحضارة وما مكانتها بين الأمم فاسأل عن حال قضائها وعن مكانة قُضاتها بين الناس، فالقضاء هو معيار الأخلاق في الأمم، والقضاء هو مقياس حضارة الشعوب. لا أعني حضارة العلم المادي الذي يضرّ كما ينفع وحضارة الآلة التي تقتل كما تُصلح، ولكن الحضارة التي يكون بمثلها البشرُ بشراً ويمتازون بها عن حيوانات الحظيرة ووحوش الغاب.

والقضاء هو محاولة تحقيق العدالة الإلهية بالوسائل البشرية. ولولا القضاء لما كان علم ولا كانت تجارة ولا كانت صناعة، ولأكلَ القويُّ الضعيفَ وعدا بعضُ الناس على بعض، وتحكّمت الشهوات والمطامع والأهواء وعاد الناس إلى حياة الهمجية الأولى.

والقضاء الكامل هو الذي اجتمعت له خصال؛ بعضها في القاضي، وبعضٌ في المُتقاضِين، وبعضٌ في الناس، وبعض في الدولة.

أما الذي في الدولة فهو أن تحسن الاختيار، فلا تختار في القضاء إلّا قوياً في دينه وخلقه قوياً في علمه وفهمه، لا جاهلاً ولا غبياً ولا مطعوناً عليه ولا مشكوكاً فيه، وأن تضمن له بعد ذلك الحرية، فلا يكون لأحد عليه في حكمه سلطان، إلّا أن

يخطئ فيكون من يصلح خطأه، أو يميل فيكون من يعدّل ميله. وأن تُنفذ حكمه وتُمضي قضاءه، فإن الإمضاء تتمة القضاء، ولا خير في حكم لا ينفذ وأمر لا يطاع، وأن تكفل للقاضي معيشة أمثاله أو أعلى منها قليلاً، حتى لا تُذلّه الحاجة ولا يحرّكه الطمع.

وأما الذي في الناس فهو أن يُعينُوا القضاة على إحقاق الحق، فلا يشهد شاهدٌ زوراً ولا يخبر مخبرٌ كذباً، ولا يدافع محام عن مبطل، ولا يقعد أحد عن نصرة مُحِقّ، فإن لم يكن هذا كله في الناس لم ينفع مع فقده صحّةُ القانون ولا صلاح القاضي.

وأما الذي في المتقاضين فهو أن يكون لهم من أخلاقهم وسلائقهم وعاداتهم وأوضاعهم وازعٌ من الظلم والعدوان والاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل، فإن القضاء -مهما بلغ من السموّ والعلاء والاستقامة والقوة- لا يخرج عن كونه حكم بشر له الظاهر، ليس له إدراك البواطن ولا الشقّ عن القلوب.

وأما الذي في القاضي فهو أن يكون عالماً، فلا يقضي بالجهل، وأن يكون أميناً، فلا يحكم إلا بالعدل، وأن يكون فقيه النفس، ينفذ إلى روح القانون ويدرك مقاصده، لا فقيه الذاكرة، يقف بفكره عند حدود الألفاظ ويحبس نفسه في سور العبارة. وأن يكون قويّ الفراسة ثاقب الفكر، يميز بحسه المُحِقَّ من المبطل والمظلومَ من الظالم. وأن يكون بعد ذلك (بل أن يكون قبل ذلك كله) متين الدين، لا يحكم بغير ما أنزل الله ولو حِيزت له الدنيا، لأن لذات الدنيا كلها لا تخفف عذاب لحظة واحدة في الآخرة. وأن يكون قوي الخلق ثابت القلب، لا تغريه مغريات المال ولا

تغويه مغويات الجمال، ولا يقبل رشوة الدرهم والدينار ولا رشوة المودّة والجاه.

ولقد جمع قضاؤنا هذا كله فكان الأعجوبة في تاريخ القضاء، لا يشبهه قضاء إلا ما يُحكى عن قضاء بريطانيا اليوم، والحق أحق أن يقال، والله أعلم بحقيقة الحال[(١)].

والغريب أنه كان لقضاتنا هذه الحرية وهذه الاستقامة وهذا الجلال، على فساد أسلوب الحكم على عهد أكثر خلفاء بني أمية وبني العباس، وأنها كانت تُضرَب الأعناق وتصادَر الأموال في نزوة من أمير أو غضبة من سلطان، وأنه ليس للقاضي قوة مادية، ما له إلّا منزلته الروحية وهيبته في نفوس الملوك وفي قلوب الرعية.

والأمثلة على ذلك تملأ التاريخ والشواهد تفوق الحصر، من أعلام القضاء، كشُرَيح وإياس وأبي يوسف وابن أبي دُؤاد والمنذر ابن سعيد[(٢)]، إلى مَن لا يعرف الناس أسماءهم من القضاة ولا يدرون بهم. وهذا طرف من سيرة قاض واحد من مئات القضاة، قاض عالم محدّث كان من طبقة الثَّوري وابن عُيَينة وابن المبارك، وأولئك الأئمة العلماء العاملين رحمة الله عليهم أجمعين.

* * *

(١) من شاء فليقرأ المحاضرة الممتعة النافعة الطويلة، «القضاء في الإسلام»، وهي في كتاب «فِكَر ومباحث» (مجاهد).

(٢) في كتاب «رجال من التاريخ» مقالات عن بعض هؤلاء القضاة (مجاهد).

لمّا أذِنَ الله للعرب أن يتبوؤوا في الأرض مكان السيادة والقيادة وحَّدَهم بمحمد ﷺ بعد أن كانوا مختلفين، وهداهم به بعد أن كانوا ضالّين، وأخرجهم تحت رايته ليفتحوا الأرض بعد أن كانوا مُنزَوين في بواديهم منعزلين وراء رمالهم وصحاريهم. وكان فيمن لبّى الدعوة وبذل النفس للدفاع عنها قبيلة كريمة من مَذْحِج من اليمن، هي النَّخَع، فشهدت القادسيةَ مع سعد، وكان لها فيها بلاء حسن وأثر ظاهر، ولمّا انتهت تلك المعركة التي فتح الله بها باب الشرق كله للخير والحق أقامت في الكوفة، تسد تلك الثغرة وتكون ردءاً للإسلام فيها، فأنجبت طائفةً من العلماء بلغوا الغاية في الفقه وكانوا من ينابيع العلم ومن أركانه وأعلامه، منهم الثلاثة العِظام: عَلْقَمة النَّخَعي، والأسْوَد النَّخَعي، وإبراهيم النَّخَعي.

ومشى نفر من تلك القبيلة مع الجيش الفاتح، فقطعوا فارس كلها وخُراسان وبلغوا المشرق الأقصى، فأقاموا فيه، وكان منهم الحارث بن أوس، جَدّ القاضي الذي أحدثكم عنه. فأقام في بُخارى، وفيها وُلد حفيده هذا، فما أدرك سنّ التمييز حتى رأى نفسه غريباً بلسانه وبأصله في ذلك البلد البعيد، ولم يكن قد بقي من أهله إلّا ابن عم له كان يَتَّجِر، فأخذه معه إلى نهر صَرْصَر، وهي قرية في سواد بغداد كان فيها عم له في جماعة من قبيلته، فأَنِسَ بِلِدَاته[1] ومَن كان في سنّه، وكان يصحبهم إلى معلم لهم يقرؤون عليه. وكان ذلك المعلم صادق الفراسة، فعُني به وجعل يلقنه القرآن حتى تعلق به قلبه، وجعل يحبب إليه العلم ويدفعه

(١) اللدات للصبيان كالأتراب للبنات.

إلى السفر في طلبه، وكان جمهرة قومه في الكوفة، فقال لعمه: يا عماه، الذي تنفقه عليّ هنا أَنفِقْه عليّ في الكوفة، أروي بها السنّة وأطلب العلم وأعرف قومي.

فأجابه، فرحل إليها، فما أقام بها إلّا قليلاً حتى مات عمه وانقطع ما كان يمده به، فجعل يضرب اللبِن ويبيعه ليجمع ما يأكل به وما يشتري الدفاتر والطروس ليكتب فيها العلم والحديث. وجعل يدور على المحدّثين الكبار كأبي إسحاق السبيعي ومنصور ابن المعتمر وسِماك بن حَرب وعاصم الأحول وأمثالهم، وهي أسماء، أمّا أكثرُ القراء فيمرون بها لا يجدون فيها أكثر من حروف وألفاظ، وأما من كان مشتغلاً بالحديث عارفاً برجاله واقفاً على طرق الرواية فإنه يعلم أن هؤلاء وأمثالهم كانوا أوعية العلم وكانوا حَمَلة أمانته، ولولاهم ما وصلت إلينا سُنّة نبيّنا ولا عرفنا شرع ربنا.

وجعل يكتب ويحفظ ويروي، وأنفق في ذلك السنين الطوال، حتى بلغ في الحديث مبلغاً جعل عبد الله بن المبارك يشهد له بأنه أعلم به من سفيان الثَّوري، وكان ابن المبارك من تلاميذه، وكان من تلاميذه وَكيع بن الجرّاح شيخ الشافعي، وعبد الرحمن بن مهدي وأبو نعيم وبشر بن الوليد، ورجال من هذه الطبقة.

أدمن ثَنْيَ الركب في مجالس التحديث، وصرّم الليالي الطوال في المراجعة، وحفظ الألوف المؤلفة من الأحاديث، وكان من ملازمته لابن إسحاق الهمداني أنْ صلّى معه الفجر سبعمئة مرة. بعد ذلك تصدّر للتحديث والرواية، ولبث على ذلك

عمراً يَقنَع من دنياه بعيَش العالم، ينأى بنفسه عن أبواب السلاطين وعن موائد المُثْرين، حتى أكل أكلة واحدة ذات يوم فحوّلته عن وجهته وسلكت به غير طريقه!

* * *

خلا قضاء الكوفة فنشأت أزمة في الدولة، أزمة من نوع عجيب لا يُعرَف إلّا في تاريخنا، هي أزمة يكون مثلُها كلما خلا منصب من مناصب القضاء؛ يهرب العلماء من المنصب ويأبَونه، فيُضطر الخليفة إلى إكراههم على العمل، وربما أوذوا في سبيل ذلك، كما أوذي أبو حنيفة وضُرب لأنه لم يرضَ أن يتولى القضاء. فماذا صنع الخليفة؟

لقد دعا المهديُّ بسفيان الثوري حتى أُدخل عليه، فسلّم تسليم العامة ولم يسلم عليه بالخلافة ولم يُؤَدِّ التحية الرسمية، فاحتملها المهدي وقال له مازحاً: تفرّ ههنا وههنا وتظن أننا لا نقدر عليك؟ قد قدرنا. ألا تخاف أن نحكم فيك بهوانا؟ قال: إنْ تحكم فيَّ يَحكمْ فيك مَلِكٌ عادل يفرق بين الحق والباطل. قال أحد حاشية السوء: أتدَع هذا الجاهل يواجهك بهذا؟ ألا أضرب عنقه؟ قال المهدي: اخرس ويلك! وهل يريد هذا وأمثاله إلّا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة.

فأخذ العهد (أي مرسوم التعيين) فألقاه في دجلة واختفى، ففتّشوا عنه في كل مكان فلم يجدوه. فدعا شَريك بن عبد الله فقال له: اختَرْ إحدى ثلاث، أن تأكل عندي أكلة، أو أن تؤدّب ولدي، أو أن تلي القضاء. لا بد من واحدة. فلما رأى منه الجِدّ قال:

الأكلة أهونها. فدعاه إلى الغداء. وكان على المائدة لون طريف هو المُخّ (صَفار البيض) بمُصفًّى السكّر ودهن العنبر. فقال الطباخ لمّا رآه قد أكل منه: لا يفلح الشيخ بعدها.

وكذلك كان! فعلّم أولادَهم وولي القضاء لهم، وتكلم فيه الصالحون، وهجاه الشاعر بقوله:

تحـرّزَ سـفيـانٌ وفَـرَّ بـديـنـه
وأمسى شَريكٌ مرصداً للدّراهم

* * *

وما اطمأنّ شريك إلى الولاية ولا سُرَّ بها، ولقد كان يتهرّب منها ويفر بدينه، حتى اضطُرّ الخليفة أن يوكل به الشرطة ليحرسوه. لا يحرسونه من الأعداء ولا من الخصوم، بل يحرسونه لئلا يهرب! فهل سمعتم أن قاضياً كان يؤتى به إلى المحكمة موقوفاً؟!

وجعل إخوانُه يلومونه فيقول: أُكرهتُ على القضاء. فيقولون له: هل أكرهت على أخذ الرزق[1]؟ ويظهر أن المنصب طاب له (كما يروي الخطيب البغدادي) فقعد من نفسه، فلما بلغ سفيان[2] أنه قعد من نفسه من غير إكراه جاءه في مجلسٍ فتراءى له، فلمّا

---

(١) أي على قبض الراتب.

(٢) سفيان الثّوري، كان عالم عصره في الحديث وكان المُشار إليه في التقى والزهادة. أراده المنصور على القضاء فأبى وهرب إلى الحجاز، وطلبه المهدي ليوليه القضاء فاختفى، توفي سنة ١٦١.

رآه قام إليه فأعظمه وأكرمه، وكان بينهما حوار طريف، فيه تأنيب وفيه نصح وفيه أدب الموعظة ولطف الإشارة.

قال شَريك: يا أبا عبد الله، هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: ما هي؟ قال: مسألة. قال: أوَليس عندك من العلم ما يجزئك؟ قال: أحببت أن أذكّرك بها. قال: قل.

قال: ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل، ففتح الرجل الباب فاحتملها ففجر بها، من تَحُدُّ منهما؟ قال: أَحُدّه دونها لأنها مغصوبة مكرهة. قال: فإذا جاءت من الغد فتزينت وتبخترت وجلست على ذلك الباب، ففتح الرجل الباب فرآها، فاحتملها ففجر بها. من تَحُدّ منهما؟ قال: أَحُدُّهما جميعاً لأنها جاءت من نفسها، وقد عرفَت الخبر أمس.

قال: أنت عذرك حيث كان الشُّرَط يحفظونك، فاليوم أيُّ عذر لك؟ ثم انصرف ولم يكلمه(١).

* * *

(١) هذا الموقف من سفيان وأمثاله إنما كان الدافع إليه الورع وخوف الزلل في القضاء، ولأن الصالحين للقضاء يومئذ كثر، فإن لم يُجِبْ واحدٌ أجاب غيره وسَلِم هو. وليس تولي القضاء ذنباً ولا هو كالمَثَل الذي ضربه له سفيان، والقول الحق في حكم توليه ما قاله الحنفية، وهو أنه يكون واجباً ويكون مستحباً ويكون مباحاً ويكون مكروهاً ويكون حراماً. أي أنها تعتريه الأحكام الخمسة، فيكون حراماً إن طلبه مَن لا يصلح له، ومكروهاً إن كان يصلح له وغيرُه أصلح منه، ومباحاً إن كان صالحاً وغيره يصلح له، ومستحباً إن كان هو أصلحَ=

وكان للقضاء منغّصات، هي التكاليف الاجتماعية التي لا يكاد ينجو منها القاضي. من ذلك أن الخَيْزُران، جارية المهدي وأم موسى الهادي وهارون الرشيد، قَدِمت الكوفة في طريقها إلى الحج، فخرج القاضي شريك يستقبلها. ولا أدري: أخرج من نفسه، أم كانت العادة المتَّبَعة أن يكون القاضي في استقبال أمثالها؟ ولعله خرج من نفسه، فأبطأت، فأقام ثلاثاً ينتظرها في قرية شاهي، ويبس خُبزه فجعل يبُلّه بالماء ويأكله.

ولا يحسَبَنّ القُرّاء أنه إن انتظرها ثلاثاً أو عظّمها ظاهراً حاباها في قضاء أو جاراها في حكومة. ولقد مَثَل وكيلُها أمامه فأقام عليه الحق حتى جعله عبرة للناس. وأنا أنقل هنا الخبر بطوله لتروا منه كيف أن القضاء لم يصرف الرجل عن علمه، وإنْ ضَعُفت روايته واضطرب حفظه لاشتغاله في القضاء، ولم يقلبه عن إخوانه أو يجعله يبدّل معهم أو يغيّر، وأن الدنيا لم تَغُرّه بمغرياتها ولم تغره في لذاتها، وأنه لا يزال بثوبه الواحد لا يملك غيره.

قال عمر بن الهياج: كنت من صَحابة شَريك، فأتيته يوماً وهو في منزله باكراً، فخرج إليّ في فَرو ليس تحته قميص، عليه

= له من غيره، وواجباً إن لم يكن يصلح له غيره.

ذلك أن القضاء ضرورة لا بد منها، ولذلك جوّزوا أخذ الولاية من الغاصب للحكم في ديار الإسلام (ولو كان غيرَ مسلم) ما دام يعيّن القاضي ويتركه يقضي بالشرع لا يتدخل فيه، لأن تعطيل القضاء مَضَرّةٌ أكبرُ من تلقّي الولاية عليه من ظالم أو كافر، والقاعدة أنه يُرتكَب أخف الضررين وأهون الشرين.

كساء. فقلت له: ألا تقوم إلى مجلس الحكم؟ قال: غسلت ثيابي أمس فلم تجفّ، فأنا أنتظر جفوفها. اجلس. فجلست، فجعلنا نتذاكر باب «العبد يتزوج بغير إذن مواليه»، فقال: ما تحفظ فيه؟ ما تقول فيه؟

وكانت الخَيزُران قد وجّهت رجلاً في الطِّراز إلى الكوفة[1]، وجاء الوالي عيسى بن موسى الأمرُ بألّا يُتعرَّض له، فكان ذلك الرجل حُرَّ التصرف لا يُعصَى له أمر ولا سلطانَ للأمير عليه. فخرج علينا ذلك اليومَ من زقاق يفضي إلى النَّخَع[2] ومعه جماعة من أصحابه عليه جُبّة خَزّ وطَيْلَسان[3]، على بِرْذَونٍ[4] فارِهٍ، وإذا رجلٌ مكتوف بين يديه، فلما مَرَّ ببيت القاضي صاح الرجل: واغَوْثاه، أنا بالله ثم بالقاضي!

ففتح شَريك الباب وخرج، فدعا به، فإذا ظهره مكشوف وآثار الضرب فيه. فأقعده إلى جنبه وقال له: ما شأنك؟ قال: أنا رجل أطرز وأعمل الوَشْي[5]، هذه صناعتي، وكِراء مثلي مئةٌ في

---

(١) الطراز: التطريز، أي ليطرّز لها ثياباً في الكوفة.

(٢) أي إلى حي قبيلة النخع التي منها القاضي، وكان لكل قبيلة في الكوفة والبصرة حي خاص بها.

(٣) الطيلسان شالٌ أو وِشاح يوضَع على الكتف، ولا يزال شائعاً إلى اليوم إلا أنه لا يسمى بهذا الاسم (مجاهد).

(٤) البرذون هو البغل، والفرق بينهما أن البغل ابن سلالة عربية أصيلة والبرذون يأتي من سلالات أعجمية، ومنه نوع مشهور في الشام يستعملونه لجَرّ الطنابر يسمّونه كدِيش (مجاهد).

(٥) وَشْيُ الثوب هو نَقشه وزخرفته بالألوان، وقد يُسمَّى نَمْنَمَة (مجاهد).

الشهر، أخذني هذا منذ أربعة أشهر قسراً وحبسني وألزمني بالعمل له بِقُوْتي[1]، لا يعطيني أجراً، ولي عيال قد ضاعوا، فهربت منه فلحقني فضربني وكتّفني.

فقال شَريك للوكيل: قم فاجلس مع خصمك. قال: أصلحك الله يا أبا عبد الله، هذا من خدم السيدة، وهذا أمرُها، فاحبسه حتى يشتغل لها. قال: ويلك! قم فاجلس معه كما يقال لك. فقام فجلس معه. قال: ما هذه الآثار التي تظهر بظهر هذا الرجل؟ من أثّرها فيه؟ قال: أصلح الله القاضي، إنما ضربته أسواطاً بيدي، وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة. احبسه حتى يشتغل، هذا أمر السيدة.

فألقى شريك رداءه، وقام فدخل داره وأخرج سوطاً وضرب بيده إلى مجامع ثوب الوكيل، وقال للرجل: اذهب إلى أهلك، وجعل يضرب الوكيل. فهَمّ أعوانه بأن يخلّصوه، فقال: مَنْ ها هنا من شباب الحيّ؟ فجاءه جماعة، فقال: مَن وقف من هؤلاء فاذهبوا به إلى الحبس. فهربوا جميعاً وتركوه، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه، فتركه فانصرف وهو يهدده بانتقام السيدة. فألقى السوط من يده وعاد إلى ما كنّا فيه من المذاكرة، كأنه لم يصنع شيئاً، وقال لي: يا أبا حفص، ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه؟

وأراد الوكيل أن يركب بِرذَونه فاستعصى عليه، ولم يكن معه مَن يمسك له الركاب، فجعل يضرب البرذون، فصاح به

---

(١) أي أنه يطعمه ويسقيه فحسب ولا يعطيه مالاً مقابل عمله (مجاهد).

شَريك: ارفق به ويلك، فإنه أطوع لله منك. فمضى ماشياً، فقال لي شريك: خُذْ فيما كنا فيه. قلت: ما لنا ولهذا الآن؟ قد فعلتَ والله فَعْلة ستكون لها عاقبة مكروهة. مَنْ ضرب وكيل الخيزران فكأنه ضربها، ومن ضربها فكأنما ضرب الخليفة.

قال: أعِزَّ أمر الله يعزَّك، خُذْ فيما كنا فيه. فعدنا نتذاكر في مسألة «العبد يتزوج بغير إذن مواليه».

وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى أمير الكوفة(١) فدخل عليه شاكياً باكياً وكشف له عن ظهره، فارتاع الوالي وغضب وقال: من فعل بك هذا؟ قال: شَريك. قال: لا والله، ما أتعرض لشريك. قال: سأشكوك إلى السيدة. قال: لا أتعرض لشريك. فمضى الوكيل إلى بغداد فما رجع.

* * *

كان موسى وهو أمير الكوفة ومن كبار أمراء البيت العباسي وله سلطان الإمارة وسلطان النسب، كان مع ذلك كله يتجنب أن يكون بينه وبين القاضي خلاف، ويبتعد عن طريقه ولا يعارضه في شيء، ولم يَنْجُ مع هذا كله من الخلاف. لم يختلفا لأن الأمير عرض له في قضائه بين الناس، ولا لأنه دخل مؤيداً لمُدَّعٍ أو مُدّعَىً عليه، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه.

أراد الأمير أن يوسّع داره، وكان إلى جنبها بستانُ نخلٍ

(١) أبوه عيسى بن موسى بن محمد العباسي، ابن أخي السفاح، وكان وَلِيَّ عهده، وكان والي الكوفة قبل ابنه موسى.

لأخوة ورثوه من أبيهم، وكانوا خمسة إخوة وأختاً واحدة، فاشترى منهم جميعاً إلا الأخت فإنها أَبَتْ أن تبيع، فزادها في الثمن وضاعفه لها أضعافاً وهي تُصِرّ على الإباء، فغاظه أن يُفسد عليه أمرَه حمقُ تلك المرأة، وأراد أن يَضطرّها إلى البيع، وكان بينها وبين حصص إخوتها التي باعوها سياج، فبعث غلمانه ليلاً فأزالوه.

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اختلط بنخل إخوتها، ولم تعد تعرف أرضها من الأرض التي باعوها للأمير، فأقبلت تبكي وتلطم ولا تدري ماذا تفعل! وذهبت تكلم الأمير، فلم يسمع منها وقال لها: خذي ثمن الأرض أضعافاً. فقالت: لا أبيعها.

وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد، فما وجدت فيهم مسعفاً ولا معيناً، فقال لها واحدٌ من جيرانها: أنا أدلّك على مَن يخلّص لك حقك. فاستبشرت وابتهجت وقالت: ومن هو؟ قال: القاضي، اذهب إليه فنادي: أنا بالله ثم بالقاضي، وقُصّي عليه قصتك. فذهبت تسأل الناس: أين قصر القاضي؟ فيضحكون منها ويقولون لها: ومتى كان للقاضي قصر؟ اطلبيه في المسجد أو في داره.

ودلّوها على داره، فرأت داراً صغيرة من اللبِن والطين، ما على بابها حرس وليس حولها جند، فقالت في نفسها: أين هذا من قصر الأمير؟ وهَمَّت بالرجوع. ثم أحبت أن تجرب، فقرعت الباب تسأل عنه، فقالت لها امرأته: هو في مجلس الحكم في المسجد.

فدخلت إلى المسجد تسأل: أين القاضي؟ فأشاروا إليه،

فرأت رجلاً قاعداً على الأرض مستنداً إلى سارية ليس تحته سرير، ولا يقوم على رأسه الحرس والعبيد، وليس معه إلّا كاتبه وغلامه، فنظرت إليه من بعيد متعجبة منه؛ أهذا الذي يأخذ لها حقها من الأمير؟ أهذه الدنيا الصغيرة الهزيلة تَقوَى على دنيا الأمير بعظمتها وغناها وقوّتها؟

لم تَدْرِ أنه إذا كان مع الأمير سحر السلطان والغنى والجند والأعوان فإن مع هذا الرجل القاعد على الأرض المستند إلى السارية عصا الشرع التي تَلْقَف هذا السحر كله. ودنت منه فصاحت كما علمها الرجل: أنا بالله ثم بالقاضي.

قال: من ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى. قال: فيمَ؟ وما دعواك؟ قالت: كان لي بستان نخل ورثته عن أبي، فقاسمت إخوتي وجعلت بيني وبينهم سياجاً، فاشترى الأمير من إخوتي جميعاً، وساومني ورغّبَني فلم أبعه، فلما كان في هذه الليلة بعث غلمانه فاقتلعوا السياج، فأصبحت لا أعرف من نخلي شيئاً واختلط بنخل إخوتي.

فقال القاضي لغلامه: يا غلام، طينة.

وكان من أصول المحاكمات يومئذ أنّ مذكرة التبليغ يختمها القاضي بخاتمه على طينة (تقوم مقام الشمع الأحمر اليوم) ويبعث بها إلى المدّعَى عليه مع المدعي نفسه. فختم لها وأعطاها الورقة وقال لها: امضي بها إلى بابه حتى يحضر معك.

وذهبت بها إلى الأمير تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى، تذكر سطوة الأمير وقوته فترتد، ثم تذكر هيبة القاضي وقضاءه فتُقدم،

حتى بلغت الباب، فتقاعست وأبطأت، ثم أقبلت تريد الدخول، فصاح بها الحاجب: مكانَك يا امرأة، ماذا تريدين؟ قالت: الأمير. فضحك وقال: ما أنت والأميرُ حتى تجيئيه بلا طلب ولا موعد؟ ارجعي.

فخافت ورجعت، ثم تحسست بطاقة القاضي بيدها ومَدّتها إليه على تردد وقالت: إن معي هذه. قال: وما هذه يا امرأة؟ قالت: بطاقة القاضي للأمير. فوثب وقال: تقولين أنها بطاقة القاضي؟ هاتيها لأراها. فلما رآها قال: ويحك! ولِمَ لَمْ تقولي من أول الأمر أن معك بطاقة القاضي؟ ادخلي.

فدخلت حتى وصلت إلى الأمير فدفعتها إليه، فلما قرأها أمرَ بدعوة صاحب الشرطة، فلمّا جاءه قال: امضِ إلى القاضي شَريك فقل له: يا سبحان الله، ما رأيت أعجب من أمرك! امرأة ادّعت دعوى لم تصحّ أعديتها عليّ؟ قال مدير الشرطة: إن الأمير لو أرسلني للقاء الأسد في غابة لما هبت ولا ترددت، ولكني لا أجرؤ على أداء هذه الرسالة إلى القاضي، فإن رأى الأمير أن يعفيني فليتفضل. قال: امضِ بها ويلك.

فأمر مدير الشرطة غلمانه أن يحملوا له فراشاً ووسادة إلى حبس القاضي، وذهب فأبلغه الرسالة. فقال القاضي لغلامه: يتدخل في أمر القضاء؟ خذ بيده فضعه في السجن. فقال: قد عرفت والله أنك تفعل بي هذا، فقدمت ما يصلحني إلى الحبس. ومضى الغلام يسحب مدير الشرطة حتى وضعه في حبس القاضي. وبلغ الأميرَ الخبر، فوجّه الحاجبَ إليه فقال له: يقول لك الأمير: هذا رسول. أيُّ شيء عليه حتى تحبسه؟ فقال القاضي: وأنت

أيضاً؟ يا غلام، ألحقه بصاحبه. فذهب به إلى الحبس.

فلما صلى الأمير العصر بعث إلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شَريك، فقال لهم: امضوا إليه وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه قد استخفّ بي وأني لست كالعامة. فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد العصر، فدخلوا فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامُهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غَثَرة[1] من الناس فكلمتموني؟ مَن ها هنا من فتيان الحي؟ فاجتمع إليه نفر منهم، فقال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس، لا يبيتون والله إلا فيه. قالوا: أجادٌّ أنت؟ قال: نعم، حتى لا تعودوا برسالة ظالم.

فحبسهم، وبلغ ذلك الأميرَ، فلم يحتمل هذا التحدي ونفَدَ صبره، فركب بنفسه ليلاً إلى الحبس ففتح بابه وأخرجهم جميعاً. فلما كان الغد وجلس شَريك للقضاء جاء السجّان فأخبره، فدعا بالقِمَطْر[2] فختمه ووجّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحقني بثِقَلي[3] إلى بغداد. والله ما طلبنا هذا منهم، ولكنْ أكرهونا عليه، وقد ضمنوا لنا الإعزاز فيه إذا تقلدناه لهم.

وركب دابته، ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه إلى بغداد. وأسرع الناس يخبرون الأمير، فركب بنفسه فلحقه، وجعل يمشي معه يقول له: يا أبا عبد الله، تثبَّتْ، انظر، دَعْ أعواني...

(١) الغثرة: الجماعة من غوغاء الناس.
(٢) القِمَطْر هو حقيبة السجلات.
(٣) أي أثاث داري ومتاعي.

أفتحبس إخوانك؟ إخوانك تحبسهم؟ قال: نعم، لأنهم مشوا لك في أمر لم يَجُزْ لهم المشي فيه، ولست براجع حتى يُرَدّوا جميعاً إلى الحبس، وإلّا مضيت إلى أمير المؤمنين فاستعفيته مما قلدني.

فأمر موسى بردّهم جميعاً إلى الحبس، وهو واقف مكانه، حتى جاءه السجّان فقال: قد رجعوا إلى الحبس. فقال القاضي لغلامه: خذ بلجامه فقُدْه إلى مجلس الحكم. فسِيقَ الأميرُ مخفوراً أمام القاضي، يَمُرّ في الشوارع فيراه الناس كلهم، حتى وصل المسجد، فجلس القاضي مجلس القضاء وأمر فنودي على باب المسجد: المرأة المتظلمة مِن هذا. فجاءت، فأجلسها معه، فقال الأمير: أنا قد حضرت، أفلا تطلق مَن حبستهم؟ قال: أمّا الآن فنعم. وأمر بإخراجهم من السجن.

ثم قال للأمير: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟ قال: صدقَت. قال: أتعيد سياجها وتَرُدّ ما أخذتَه منها؟ قال: نعم. قال للمرأة: بقي لك شيء تدّعينه؟ قالت: نعم، بيت حارس البستان ومتاعه. قال: ما تقول؟ قال: أردّ ذلك كله. قال: بقي لك شيء؟ قالت: لا، وجزاك الله خيراً. قال: قومي.

ثم وثب فأخذ بيد موسى وأجلسه في مجلسه وقال له: السلام عليك أيها الأمير، أتأمر بشيء؟ فضحك وقال: بأي شيء آمر بعدما صنعتَ ما صنعت؟ قال: ذاك حق الشرع، وهذا حق الأدب!

* * *

تسألون: من أين جاءت هذه الهيبة له في نفوس الحكام وهذه

المنزلة في الناس؟ جاءته من أنه كان لا يجلس في مجلس الحكم حتى يأكل ويشرب في داره، ثم يأتي المسجد فيصلي ركعتين، ثم يُخرج رقعة من قِمَطْره فينظر فيها، ثم يدعو بالخصوم. فقيل لابنه: نحب أن نعلم ما في هذه الرقعة، فهل تخرجها إلينا؟ قال: نعم. وأخرجها إليهم ذات يوم، فإذا فيها: "يا شَريكُ بنَ عبد الله، إذا وقف الخصوم بين يديك فاذكر موقفك بين يدي الله واذكر مرورك على الصراط".

من هنا -يا أيها القراء- جاءته هذه المنزلة وهذه الهيبة. إنّ مَن تصور هيبة الله لم يَهَبْ فيه أحداً، ومن خاف الله خافه كل شيء.

* * *

وكان شَريك يتشيّع. والتشيع لعليّ إن اقتصر على مجرد التفضيل ولم يتعدَّ إلى سبِّ أحدٍ من الصحابة أو التابعين أو الأئمة المتّبَعين ولم يكن فيه مخالفة في العقائد لما كان عليه سلف هذه الأمة لم يكن فيه كبيرُ بأس. وقد جَرّ عليه تشيُّعه متاعبَ وعُزل من أجله من القضاء مرة، ثم أعيد إليه.

وخبر ذلك أنه كان يبلغ المهدي شيء من تشيعه، فلما كَثُرَ ذلك قال له المهدي يوماً: ما ينبغي أن تُقلَّد الحكم بين المسلمين. قال: ولِمَ؟ قال: لخلافك على الجماعة وقولك بالإمامة. قال: أما الجماعة فمِن الجماعة أخذت ديني، فكيف أخالفهم وهم أصل ديني؟ وأما الإمامة فما أعرف إلّا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وأما تقليدي الحكمَ بين المسلمين فهذا شيء أنتم فعلتموه، فإن كان

خطأ فاستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه.

فقال له: ما تقول في عليّ بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه جدك العباس وابنه عبد الله. قال: وما قالا فيه؟ قال: أما العباس فمات وعليٌّ عنده أفضل الصحابة، وأما عبد الله فإنه كان يَضرب بين يديه بسيفين، فلو كانت إمامته على جور لكان أولَ من يقعد عنها لعلمه بدين الله وفقهه في أحكام الله. فسكت المهدي وأطرق ولم يَجد جواباً حاضراً.

* * *

رُفعت إليه دعوى على وكيل مؤنسة[1]، فأجلسه مع خصمه، فجعل يستطيل عليه، فقال له شَريك: كُفَّ لا أبا لك. قال: أتقول لي هذا وأنا وكيل مؤنسة؟ فأمر به فصُفع عشر صفعات عقوبةً له على انتهاكه حرمة مجلس القضاء. فانصرف فشكاه إلى مؤنسة، فشكته إلى المهدي، فعزله.

ولمّا ورد الأمر بعزله جاءه أمير الكوفة موسى يخبره به، ولم يستطع أن يكتم فرحه وشماتته، فقال له: ما صنع أمير المؤمنين بأحدٍ ما صنع بك، عزلك من القضاء! فقال له شريك: هم أمراء المؤمنين، يعزلون القضاة ويخلعون وُلاة العهود[2]. فقال موسى: ما ظننت أنه مجنون هكذا، لا يبالي ما يتكلم به!

على أن المهديّ أعاده بعد ذلك إلى القضاء، ولعله تبين

(١) جاريةٌ مغنّية من جواري المهدي.

(٢) وكان أبوه عيسى بن موسى وليَّ العهد، فأجبروه على خلع نفسه.

له -لمّا زال عنه الغضب- أنه لا يجد للقضاء مثله، وبقي إلى آخر خلافة المهدي، ثم ترك القضاء في خلافة الهادي. ومات أيام هارون الرشيد، سنة ١٧٧، عن اثنتين وثمانين سنة، وكان الرشيد في الحيرة، فجاء ليصلي عليه بنفسه فوجدهم قد صلوا عليه فرجع.

* * *

وبعد، فهذه صورة قدّمناها للمحاكمات الإسلامية، وهذا شاهد على أن القاضي المسلم الذي كان يقعد على بساط المسجد، يستند إلى سارية، ليس معه إلّا غلام يحمل قِمَطره، لا قاعةَ ولا قوسَ ولا زُخرف ولا نقوش ولا دَرَك ولا شرطة، هذا القاضي كان يحكم على الأمراء والملوك ويقيم الحق على الكبير والصغير، ويقول: حكمت، فلا يجد من يقول له: أبيت أو عصيت. لأنه لم يكن هو الذي يحكم، بل الشرع، ولم يكن هو الذي يقول، ولكن القرآن، فمن هنا جاءت لقضائنا هذه المنزلة وهذه المكانة. إنه لم يكن تنفيذَ قانون ولكن تطبيقَ شرع، ولم يكن قضاءَ بشر ولكن حكم الله.

يا سادة: إذا أردتم أن تعود لنا تلك الأمجاد فأعيدوا لنا ذلك القضاء.

* * *

أحمد بن عرفان الشهيد

حكم المسلمون الهندَ أكثر من ألف سنة، وخلّفوا فيها من المآثر والأمجاد ومن الآثار الباقية على الأرض وفي النفوس ما لم يَفرُغ التاريخ بعدُ من رواية أخباره.

والفضل في ذلك لمحمد بن القاسم، القائد العربي الشاب الذي وضع أساس هذا الصرح، ومحمود الغزنوي الذي رفع دعائمه وشاد أركانه، وشهاب الدين الغوري الذي أتمَّه وأكمله، ولقطب الدين وخلفائه من المماليك الذين ثبَّتوا البناء ورعَوه وحفظوه، ولبابر وأحفاده الذين رفعوا ذُراه وجدّدوه ووسّعوه.

* * *

في الهنود اليوم مئة وعشرون مليوناً من المسلمين، ثمانون في باكستان وأربعون في الهند[1]، ولو أن الملوك المسلمين الذين حكموا الهند تلك القرون العشرة عُنوا بنشر الإسلام والدعوة إليه،

---

(١) كان ذلك يوم نشر الشيخ هذه الرسالة سنة ١٩٦٠، وكانت باكستان وبنغلادِش دولة واحدة (في صِغَري كنا نعرف بنغلادش باسم «باكستان الشرقية»)، وبقيت كذلك حتى انفصلت وصارت دولة مستقلة سنة ١٩٧١). ويبلغ مسلمو القارة الهندية اليوم نصف مليار، يمثّلون نحو ثلث مسلمي الدنيا ويتوزعون بالتساوي تقريباً بين البلدان الثلاثة (مجاهد).

وأدَّوا الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم كما وضعها في أعناق المسلمين جميعاً حين جعلهم خلائف الأرض ودعاهم إلى العمل لإعلاء كلمة الله، لو أنهم صنعوا ذلك لكانت الهند كلها اليوم مسلمة.

ولو أنهم أقاموا لمن دخل في الإسلام مَن يعلّمهم أحكام دينهم لكان المسلمون اليوم في الهند على خيرٍ من الحال التي نراهم عليها. ولكن أولئك الملوك قصروا في الأمرَين وتركوا الواجبَين، إلّا نفراً منهم كانوا صالحين مصلحين، كالملك محمد والملك فيروز من آل تُغْلُق، والملك مظفّر الدين من ملوك أحمد أباد[1]، وأمثالهم من ملوك المماليك الذين حكموا الهند فترة طويلة، والملك العظيم أورنك زيب من ملوك المغول.

ما نشر الإسلامَ في الهند هؤلاء الملوك، بل نشره جماعة من مشايخ الطرق الصوفية، أعظمُهم أثراً في هذا الباب الشيخ معين الدين الجِشْتي المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري، الذي أسلم على يده نحو نصف مليون من المجوس، ثم الشيخ علاء الدين اللاهوري المتوفى في منتصف القرن الخامس الهجري، وقد أسلمت البَنْجاب على يده، والشيخ فريد الدين الأجودهني المتوفى في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري، والسيد علي الهمذاني الذي أسلمت على يده كشمير، وقد توفي في أواخر القرن الثامن.

* * *

(١) في كتابي «رجال من التاريخ» فصل عنه وفصل عن أورنك زيب.

كانت الصوفية هي الطريق الذي دخل منه الإسلام إلى الهند، فملأت مبادئها النفوس وعمّت طرقها المسلمين. وكان أشهر تلك الطرق «الجِشتيّة»، نسبة إلى الشيخ الجشتي، وهي في حقيقتها الطريقة النقشبندية. والمجدّدية، نسبة إلى السِّرهِندي الذي وُصف بأنه مجدد الألف الثاني[1]، وهي من فروع النقشبندية. والقادرية، وهم ينسبونها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.

والصوفية لها وجهان: وجه إسلامي أصيل، هو تنقية الباطن وإصلاح القلوب بصدق التوحيد ودوام المراقبة، والتردد بين الخوف والرجاء، والإخلاص لله في كل عمل، وحمده على كل نعمة، والصبر على فرائضه وعن محارمه وفي بلاياه[2].

ووجهٌ بِدْعيّ دخيل، هو ما أُحدث فيها من القول بأن الشرع شرعان، ظاهر وباطن[3]، ووَحدة الوجود، وسقوط التكاليف، ومسألة القطبانية، ودعوى التصرّف، وأمثالها من الدعاوى الباطلة

---

(١) ومن نسله أسرة المجدّدي الشهيرة التي لها رياسة العلماء في أفغانستان، ومنها الشيخ صادق المجدّدي الوزير المفوض سابقاً في مصر.

(٢) ومشايخ الصوفية الأوَّلون، الجُنَيد وأصحابه، يصرّحون دائماً بأن طريقتهم مقيَّدة بالشرع واقفة عند حدوده، وأيّما قول فيه مخالفة للشرع فليس من الصوفية المقبولة، بل هو من وحي الشيطان يُرَدّ على قائله كائناً من كان، لأن الرجال يُعرفون بالحق والحق لا يُعرف الرجال، وحكم الشرع نافذ في الجميع، ولا حكم لأحد على الشرع.

(٣) وما هو إلا شرع واحد، باطنه كظاهره، عماده كله كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وما فُهِمَ منهما وبُنِيَ عليهما من فقه وتشريع.

المخالفة لما بُعث به محمد عليه الصلاة والسلام.

* * *

وكان من أكبر زوايا الصوفية وأشهرها زاوية الشيخ علم الله النقشبندي في رايْ بَرِيلي في ضواحي لَكْنَو[1]. وهو عَلَم الله ابن معظَّم بن أحمد بن محمود الشريف، من نسل الأمير العالم قطب الدين محمد بن أحمد المدني الكردي. وكان عالماً عاملاً وشيخاً من شيوخ الطريقة، خرج من أولاده وأحفاده ومن تلاميذه عددٌ من العلماء الأعلام ومن المشايخ الكبار، توفي سنة ١٠٩٦ هجرية.

وخلفَه ابنُه آية الله، فسلك مسلكه واتبع طريقته، وتوفي سنة ١١١٦. ونجَبَ أولاده جميعاً وصاروا من صدور العلماء في



(١) على بعد ثمانين كيلاً جنوب شرق لكنو. وفي قرية قريبة منها اسمها «تكيا» وُلد السيد أبو الحسن الندوي (مجاهد).

الهند، منهم محمد المتوفى سنة ١١٥٦، ومحمد حكم المتوفى سنة ١١٥٠، ومحمد عدل المتوفى سنة ١١٩٢، ومحمد ضياء، ومحمد واضح، ومحمد صابر المتوفى سنة ١١٩٣[١].

ونجَبَ من أولاد محمد ضياء أبو سعيد المتوفى سنة ١١٩٣ وأبو الليث ومحمد معين. ونجب من أولاد محمد معين هذا محمد معتصم، وولده عبد المقتدر، ومحيي الدين بن عبد المقتدر، وعبد الشكور بن محيي الدين، وعلي بن عبد الشكور المتوفى سنة ١٢٨٩. ومن أولاد أبي الليث محمد المتوفى سنة ١٢٥٦، وولده عبد الجليل المتوفى سنة ١٣٠٠، ومن أولاد محمد صابر ولده محمد واضح، وغلام جيلاني بن محمد واضح، وسعد الدين بن غلام جيلاني المتوفى سنة ١٢٩٣. وكان لعلَم الله أولاد آخرون نَجَبوا جميعاً، منهم محمد هدى الذي كان أصغرَهم سنّاً وأكبرهم صلاحاً وتقى وأجلّهم أثراً، ونجب من ولده محمد سنا ومحمد حيا بن محمد سنا[٢].

* * *

---

(١) وفي مسلمي الهند ولع بالتسمية باسم محمد، ولو تعدد في البيت الواحد. أعرف إخوة خمسة في لكنو كلّهم اسمه محمد، هم أولاد أخت صديقنا الأستاذ أبي الحسن النَّدْوي، يُعرَفون بمحمد الأول ومحمد الثاني ومحمد الثالث ومحمد الرابع (وهو صديقنا) ومحمد الخامس (وقد لقيته في إذاعة دِهْلي لمّا دُعيت لإلقاء حديث منها).

(٢) هذه السلسلة من الأسماء التي أمللتُ بها القارئ لم أجدها مجموعةً في كتاب، بل استخرجتها من كتب التواريخ والتراجم بعد أن =

وكان من أسباط الشيخ أبي سعيد، أي من أولاد بنته، غلامٌ اسمُه أحمد، أبوه الشيخ محمد عرفان، وهو شيخ جليل من شيوخ الطريقة وعالم من علماء زمانه. رُبِّي هذا الغلام في زاوية، فكانت دنياه كلها الدفاتر والمحابر والصلوات والأذكار ودروس العلم ومجالس الوعظ، لم يعرف من الدنيا غيرها ولم يَرَ سواها.

وأقبل أبناء الشيخ عرفان على الدراسة والطلب، ينظرون في هذه الكتب، يسمعون من أساتذتهم شرحها ثم يحفظونه ليكرّروه على مَن هم أصغر منهم من الطلاب الذين يُناط بهم تعليمهم، ويتلقون الطريقة على القاعدة التي وضعها لهم مَن قبلَهم، وهي الاستسلام للشيخ استسلاماً مطلقاً من كل قيد أو شرط وتلقّي كل ما يقول بالقبول.

وإذا كان العبد يجادل عن نفسه يوم القيامة بنصّ القرآن فليس للمُريد عندهم أن يجادل شيخه، وإذا كان الله قد أنزل على نبيّه عليه الصلاة والسلام قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب﴾ فلا يحتاج مَن يدعوه إلى واسطة، فإن لديهم وسائط سمّوها «رابطة»، ما وردت في كتّاب ولا في سنّة.

= تصفحت في سبيلها تراجم علماء الهند جميعاً في ثلاثة قرون كاملات. أي أنني قرأت أكثر من ألف صفحة لأكتب أقلّ من عشرين سطراً. ولست أمُنّ على القارئ، ولكن أصف الواقع.

وفي الهند أُسَر كثيرة تسلسل فيها العلماء وخرج منها جِلّة الأعلام، من أشهرها أسرة السرهندي والدهلوي والبدايوني، ومنها هذه الأسرة التي حدثتكم طرفاً من حديثها.

فانصرفت نفس أحمد عن هذه الأوضاع ولم يقبلها، ولكنه لم يستطع أن يعلن الاعتراض عليها أو نقدها لِمَا وضعوه في نفسه من تقديسها وتقديرها، ولأنه ليس فيمَن حوله مَن يحتمل نقداً لها أو اعتراضاً عليها. فانصبَّت هذه النقمة على دروس العلم التي كانت تلازمها، فلم يعد يُقبل عليها كما كان يفعل إخوته، لا كرهاً بالعلم، بل كرهاً بالطريقة وما فيها من مُحدَثات لم يعرفها السلف.

وكان أخوه إسحاق هو الموكل بتعليمه، فضاق به ذرعاً وعزم على رفع الأمر إلى أبيه. وأقبل الطلبة يوماً على الشيخ يقبّلون يده -على عادتهم- وينصرفون، وبقي إسحاق واقفاً، على شفتيه كلام يريد أن يقوله، لكنّ آداب الطريقة تمنعه أن يبتدئ شيخَه بالكلام، فهو ينتظر أن يسأله ليبثّه شكواه. فلما سأله شكا إليها ما يلقى من أخيه الصغير أحمد، وأنه يرغّبه في العلم وهو يَرْغَب عنه ويقرّبه إليه وهو ينفر منه.

فتولى الشيخ الوالدُ بنفسه تعليمَ الولد وبذل في ذلك جهده، فما زاد الولد على تعلم القراءة وحفظ سُوَر من القرآن، فتألم ولكنه استسلم لمشيئة الله، وتلقّى ما قدره راضياً وأعفاه من الدراسة.

وكذلك يصنع المسلم: يعمل للوصول إلى غاياته المشروعة كل ما يستطيع، فإن وصل إليها حمد الله، وإن لم يستطع الوصول رضي بما قدّر الله، فلم يقطّع نفسه حسرات، ولم تدفعه الخيبة إلى ذم الأقدار وارتكاب الحماقات.

* * *

وظن أحمد أنه وجد الحرية والانطلاق بالفكاك من قيد الدرس، ولكنه كان كمَن يعيش في الواحة المُخضَرَّة الصغيرة وهو مقيد بالقيود الثقال، فلما حُلَّت عنه قيوده وأراد الانطلاق في الأرض رأى الصحراء محيطة به من كل جانب، تمنعه أن ينطلق، فعاد مقيداً كما كان. ما تبدل عليه إلّا نوع القيد: كان قيداً من حبال فصار قيداً من رمال!

ذلك أنه رُبِّيَ على الدين والتقوى وأحيط بقوم لا يعرفون إلّا الدين والتقوى، لم يعرف طريق اللهو ولا وجد مَن يدلّه عليه، وكان الإيمان الذي رسخ في نفسه من صغره، من يوم أدرك وصار يميز التمرة من الجمرة، أقوى من أن ينال منه انقطاعُه عن الدرس وابتعادُه عن مجالس العلم. فبقي على ما كان عليه، يمشي مع موكب الطلبة وإن لم يُجبَر على السير معهم، ويصنع صنع الطلاب وإن لم يكن من الطلاب.

وأحس كأنما خسر شيئاً بانقطاعه عن الدرس، فعوّض عنه بالإقبال على عبادة الله والإحسان إلى الناس، فلم يكن يلهو لهو الصغار ولا يعبث عبثهم، بل كان في جِدّ كجِدّ الكبار وزهد كزهد الأحبار، لا يبالي بمطعم أو ملبس، يأكل ما وجد ويلبس ما تيسر وينام حيث ينعس، ووقته الذي كان ينفقه في الدرس صار يمضيه في خدمة الأرامل والكهول والأيتام، فلا يسمع بضعيف أو عاجز أو عجوز مسكينة ولا يعلم بأحد من المساكين والمحتاجين إلّا مشى إلى بيته وتعرّف حاله، ثم حمل إليهم بنفسه الماء والحطب وشرى لهم ما يحتاجون إليه وجاء به على رأسه، لا يتكبر عليهم ولا يتجهّم لهم، ولا يسألهم أجراً ولا يقبله منهم إن أعطوه.

وكان دائم الذكر، لا ذكر اللسان والقلبُ لاهٍ والفكرُ غافل، بل ذكر من يفكر في كل لحظة أن الله مطّلع عليه وناظر إليه، وأنه إنْ لم يكن يرى الله فإن الله يراه.

* * *

وضاق بهذا البلد الصغير وهذه الحياة المتشابهة، وكان نشاطه الحبيس يقرع جوانب نفسه كما تلطم الحِمَم جوف الأرض لتتفجر بركاناً من فُوَّهة الجبل، فاستأذن أباه، وهو شيخه في الطريقة، فأذن له بالرحيل إلى لكنو[١].

وفارق بَرِيلي في سبعة من رفاقه، ولم يكن لهم إلّا فرس واحد فكانوا يتناوبون ركوبه، وكان السيد أحمد قوي البنيان متين التركيب شديد الأَسْر، فترك لهم نوبته وقطع الطريق ماشياً.

وكان كل واحد منهم يحمل على كتفيه متاعه، فلمّا رآهم قد تعبوا وطلبوا حمّالاً فلم يجدوه قال لهم: إنّ لي إليكم حاجة أرجو أن تَمُنّوا عليّ بقضائها. قالوا: نقضيها على الرأس والعين. قال: أكدوا قولكم بالأيمان واحلفوا لي أنكم تفعلون ما أطلبه منكم. فحلفوا له. فقال: اجمعوا أمتعتكم كلها ثم ضعوها على ظهري، فإني أقدر أن أحملها. ففعلوا مُكرَهين، فحملها كلها ودخل لكنو على تلك الحال.

* * *

(١) يكتبها الهنود بالحروف العربية لكهنؤ، ولفظها لَكْنَو.

وكان الإنكليز قد وضعوا أقدامهم في الهند وامتلكوا مرافقها، ولكنهم تركوا للإمبراطور المسلم الاسم وتركوا له شارات الحكم. فكانت الهند كلها تابعة له اسماً، ولكنْ في كل إقليم مملكةٌ أو إمارة، منها ما يسيطر عليه الإنكليز، ومنها ما مَدّوا إليه أيديهم المجرمة، ومنها ما تعلقت به أنظارهم الشرهة ومطامعهم الأشعبيّة[١].

وكانت في لكنو مملكة صغيرة يحكمها ملك شيعي، وكان التشيّع قد دخل الهند من قديم، ولكنه قَوِيَ فيها أيام الأباطرة من المغول[٢]. وكانت لكنو من المناطق التي غلب على حكامها التشيع، ولا يزال فيها إلى اليوم أكثر من أربعمئة حسينية[٣]، وفيها البناء العظيم الذي أقيم على مثال مشهد كربلاء، وهو «إمام بارا»، ولا تزال آثاره الباقية آيةً في ضخامة البناء.

فلمّا وصل السيد أحمد إلى لكنو استقبله أحدُ الموظفين الكبار وأكرمه غاية الإكرام. وكان ذلك الموظف مكلفاً بجمع

(١) نسبة إلى أشعب بن جُبَير، مولى عبد الله بن الزبير. كان مشهوراً بالطمع، وله في كتب الأدب نوادرُ كثيرة (مجاهد).

(٢) وهم في الحقيقة من التَّتَر لا من المغول (وإن كان أكثر المؤرخين يخلطون بينهما جهلاً منهم بحقيقة أمرهما) فهم من أبناء تيمور، وتيمور تتري، والمغول هم قوم جنكيز. والمغول والتتر مثل ربيعة ومضر في العرب، والشهرة للتتر ولكن الرياسة والوجاهة للمغول، حتى إن تيمور نفسه لم يدَّعِ الرياسة العليا، بل أبقى على رياسة ملك من آل جنكيز وترك له الاسم وانفرد دونه بالحكم.

(٣) الحسينية عند الشيعة كالمسجد عندنا.

المتطوعين في الجيش، فتطوع السيد حباً منه في الجهاد، فسُرَّ به ومنحه رتبة عسكرية، فتنازل عنها ورضي أن يعمل عمل الجندي العادي، وكان يطرح نفسه على كل خطر وينتدب لكل مغامرة، ابتغاء الثواب ورغبة في الأجر.

* * *

وكان أجمل أمانيه أن يذهب إلى دِهْلي لصحبة الشيخ عبد العزيز الدهلوي، ابن ولي الله الدهلوي، أستاذ الهند وصاحب «الحجّة البالغة» وغيرها من المصنفات.

فاستأذن في ترك الجندية وذهب إليه، فلما عرف الشيخ نسبته أكرمه وعُني به إكراماً لذكرى جده أبي سعيد، فأقبل على العلم، وبدت طلائع نبوغه وبوادر عبقريته، وكان ذلك سنة ١٢٢٢هـ، وكان عمره إحدى وعشرين سنة.

ثم غلب عليه الشوق إلى الجهاد في سبيل الله، فذهب إلى



لكنو: قصر الحكم (جَهْتَر منزل) على نهر غومتي

معسكر الأمير المجاهد نَوّاب ميرخان[١] ولبث عنده بضع سنين، يشاركه في حملاته ويحضر معه حروبه، ولكنه لم يجد عنده ما كان يريد. كان السيد أحمد يريد جهاد الكفار والحرب لإعلاء كلمة الله لعلها تُكتَب له الشهادة. وما كل قتال جهاداً ولا كل موت في المعركة شهادة، إنما المجاهد مَن حارب بقصد إعلاء كلمة الله والشهيدُ من مات في هذا الجهاد، فلما رأى ميرخان يحارب للغلبة والغنائم تركه.

وعاد إلى دهلي[٢] فاشتغل بنصرة السنّة والدعوة إلى الطريقة السلفية. وكان عجباً كل العجب أن ينشأ في رحاب الصوفية وأن يتربى في الطريقة النقشبندية، ثم ينتهي إلى السلفية ويحتجّ لها -كما يقول مؤلف «نزهة الخواطر»- ببراهين ومقدمات لم يُسبَق إليها، ويطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوها وجَسَرَ هو عليها.

ولعل هذه الدعوة كانت نتيجة لمقدمتين، أولاهما: اتصاله بالشيخ الدهلوي وتلاميذه وذهابه مذهبه بالرجوع إلى السنّة ومحاربة المُحدَثات والمبتدَعات. والثانية هي ما انتهت إليه حال الصوفية في الهند، إذ كانوا -كما قال مسعود النَّدْوي- مرتطمين في أوحال الحلول والوحدة، عاكفين على رسوم وشعائر لا صلة لها بالإسلام، ومعظم اشتغالهم بكتب المنطق والفلسفة اليونانية.

* * *

(١) النواب: نائب السلطنة.

(٢) اسمها دهلي، وقد سمّاها الإنكليز بلسانهم الأعوج دلهي.

وأقبل الناس على دعوته وكَثُرَ أتباعه وأنصاره. وكان منهم جماعة من العلماء المشار إليهم، منهم الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي، وهو حفيد ولي الله الدهلوي، وكان أحد أعلام العلم والذكاء وقوة النفس وصلابة الدين، وله مصنفات منها «الصراط المستقيم» الذي جمع فيه أخبار السيد وأقواله، وله «الإيضاح»، وهو من أجمع ما كُتب في السنة والبدعة. وكان أشد الناس في دين الله وأحفظهم للسنّة، يغضب لها ويندب إليها ويشنّع على البدع وأهلها، وقد لازم السيد حتى قضى معه شهيداً سعيداً إن شاء الله.

ومنهم الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوني، وكان من أجلّ تلاميذ الشيخ عبد العزيز. وكانت عمته زوجة الشيخ، ثم زوّجه الشيخ بابنته، وكان مفرط الذكاء قوي الحفظ كثير المطالعة، وكان أحد البلغاء المعدودين، وقد ترجم «الصراط المستقيم» إلى العربية بطلب أهل الحجاز، وكان واعظاً يؤثر وعظه في القلوب لأنه كان تقياً ظاهراً وباطناً.

وألقى الله محبة السيد وهيبته في قلوب الأمراء والعامة، وتبعه أكثر تلاميذ الشيخ عبد العزيز، وذلك كله في حياة الشيخ وبإذن منه. وعمَّتْ دعوته دهلي.

ودهلي مدينة إسلامية لا تزال إلى اليوم عامرة بالمساجد الكبار، منها مسجد موتا، أي اللؤلؤة، والمسجد الجامع الذي بناه شاه جهان والد أورنك زيب، الذي لا نظير له اليوم في بلاد الإسلام.

وبدأ من دهلي سياحاته في البلاد، فزار مع طائفة من أتباعه

رامبور وسهارنبور وبريلي وشاهجهانبور[١]، وغيرها من القرى والبلاد، فانتفع بمجلسه وموافقة عمله لقوله خلقٌ كثير.

وحارب دعوتَه جمعٌ من مشايخ الصوفية ومن المتمسكين بحرفية نصوص الفقهاء المتأخرين، وعارضوه أشد المعارضة وحاولوا أن يؤلّبوا عليه العامة[٢]، وكانت بينه وبينهم مناظرات مشهورة، وكان منهم -كما قال السيد عبد الحي الحسني- مكابرات، وهو ثابت لا يداهن ولا يهاب، وكان إقدامه وشهامة نفسه يوقِعانه في أمور صعبة فيدفع الله عنه.

* * *

وكان دائم الابتهال، له أذكار يحافظ عليها في السفر والحضر والصحة والمرض، يؤديها من قلب خاشع ومراقبة تامة.

وكان متعبداً كثير الصلاة والصيام قائماً بالليل قويّ التوكل على الله، يعمل عمل مَن يعلم أن الدنيا مرحلة من مراحل العمر، ليست هي العمر، وأن الإنسان مهما عاش فيها، ستين أو سبعين أو مئة أو أكثر من مئة، فلا بد من أن يفارقها، وأنه سيبقى بعدها إلى ما شاء الله في النعيم أو في العذاب، فكيف يضيع نعيم الأبد لئلّا يحمل مشقة الطاعة ساعة؟ وكيف يحمل عذاب الأبد لئلّا

(١) بور: بلد، ومعناها بلدة شاه جهان.

(٢) وكان أقوى أسلحتهم تهمة الوهابية، فمن أراد منهم أن يُغري العامة بأحد المصلحين قال لهم: هذا وهابي! والإنكليز في الهند هم الذين يشحذون هذا السلاح ويضعونه في أيدي الناس.

يضيع لذة المعصية لحظة؟ وهل العمر كله إلا لحظة من لحظات الآخرة؟

فكان باطنه كظاهره وسريرته كعلانيته وفعله كقوله، يَعِظُ من قلبه لا من طرف لسانه، فيدخل وعظه قلوب الناس، لا يقف عند أطراف آذانهم.

ثم رأى أن يستكمل دينَه بالزواج. والزواج سنّة من سنن الدين، لا يجوز أن ينصرف عنه المسلم إلا لعلّة شرعية. وكانت في الهند عادة من عادات الوثنيين تسربت إلى المسلمين، هي أنهم لا يتزوجون بالأرملة، ولا يكادون يرعون لها حرمة أو يرون لها حقاً كاملاً، فأقدم السيد على أمر عظيم، الإقدامُ عليه أشدُّ من الإقدام على الموت الجاثم في المعركة الحمراء، فتزوج أرملة أخيه الكبير إسحاق.

وكان أولَ شريف يصنع هذا، فلمّا أقدم عليه اتبعه الناس فيه، فكانت سنّة حسنة له -إن شاء الله- أجرها وأجر من عمل بها بعده، وهدَم بذلك هذه البدعةَ المنكرة.

* * *

أقام مدة في بلدته، رايْ بَريلي، وكان معه الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي وخَلْق من العلماء والمشايخ، يمشون معه ويحضرون مجلسه ويدعون دعوته.

ثم رحل إلى لكنو، فتابعه الناس فيها أفواجاً وأقبلوا عليه، وتلقاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والإكرام، وضيّفَه وعرض

عليه خمسة آلاف دينار، فأباها. وعزم السلطان غازي الدين حيدر، ملك لكنو على لقائه، فخاف مجتهد الشيعة أن يؤثر السيّد في الملك فيصرفه عن التشيع ويعود به إلى السنة والجماعة، فاحتال حتى منع اللقاء.

واتصلت جولات السيد وأصحابه في مدن الهند ورحلاته إلى أقطارها. وكانت البشائر بقدومه تسبقه إلى كل بلد، فإذا ما دنا منه خرج أهل البلد جميعاً إلى استقباله ومشوا في ركابه، ثم اجتمعوا عليه يستمعون منه ومن أصحابه، فيشتد التأثر ويعلو النحيب، فيذكر الغافلون ويتوب العاصون ويعود إلى جادة الهدى الضالّون، فكان نزوله على البلد كنزول الغيث فيه الخير والبركات.

وكانت دعوته إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك، ظاهرِه وخفيّه، وترك البدع، كبيرِها وصغيرها، فأحسّ الناس بهذه الدعوة عزة الإيمان وحلاوته، وشعروا بأنه قد صبّ بين جوانحهم روحاً جديدة عادوا بها إلى مثل حال المسلمين الأوّلين.

❋ ❋ ❋

ثم عزم على الحج سنة ١٢٣٦هـ، فتوجه معه سبعمئة وخمسون من أصحابه، كان في مقدمتهم العلماء والمشايخ والصالحون. فلم يركب البحر إلى جُدّة، بل جاب الهند، ينتقل بذلك الجمع الغفير من بلد إلى بلد، وكلما حلّ بلداً أحيا في أهله شعائر الدين وأعلن فيهم كلمته، فكان الناس يتهافتون عليه، يزدحمون في طريقه ليروا ويسمعوا منه، ويسبقونه إلى البلد الذي

يقصده، يتوب العاصون منهم ويسلم الكفار.

ولقد دخل في الإسلام في تلك الرحلة جماهيرُ لا يحصيهم العد، وكان من تأثير مواعظه -كما يقول السيد أبو الحسن النَّدْوي- ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أنْ وقفت تجارة الخمر في كَلْكُتَة (وهي كبرى مدن الهند، وفيها خمسة ملايين ونصف مليون منهم مليون مسلم)[1] وامتنع أصحاب الحانات عن دفع الضرائب لكساد بضاعتهم وبوار سوقهم.

ركب السفينة من دلمو، من أعمال رايْ بَريلي، وهي على نهر الكانْغ، وسلك خطة غريبة هي أثر من آثار نشأته الصوفية، ما أدري كيف ألّف بينها وبين ما كان يدعو إليه من اتباع السنة، وهي أنه أخرج ما كان معه من مال وفرّقَه في المساكين، وقال: نحن أضياف الله نخرج على الفتح، لا نحتاج إلى الدرهم والدينار.

ومَرّ على «الله أباد»[2] وغازيبور وبنارس وعظيم أباد، حتى وصل إلى كلكتة وأقام بها أياماً، ثم ركب البحر إلى الحجاز، وانتفع به خلق كثير من أهل الحرمين. واستمرت رحلة الحج أكثر من سنتين، وكانت درساً مباركاً لكل مَن صحبه أو لَقِيَه، وكانت بداية نهضة جديدة ما عرف المسلمون مثلَها مِنْ قرون، وكانت مظاهرة إسلامية ليس لها -فيما نعلم- نظير. وكان من بركات الرحلة أنها كانت رداً على علماء السوء الذين كانوا قد أفتوا

(١) فيها اليوم خمسة عشر مليوناً، وهي ثالثة كبرى مدن الهند. يلفظون اسمها كما ضبطتُها في متن النص ويلفظونه أيضاً كُلْكَتا (مجاهد).

(٢) أباد: مثل بور، تدل على المحل أو البلد.

بسقوط فريضة الحج[1] لعدم الأمن وخوف الفتنة في الطريق، وكانت تكذيباً لدعواهم الباطلة.

❋ ❋ ❋

وكان من أكبر مقاصد السيد من دعوته بَثُّ روح الجهاد في المسلمين، عمل على ذلك في جولاته في الهند وفي رحلته إلى الحجاز، حتى إذا استجاب الناس لدعوة الجهاد واستعدوا له هيّأ الله له الأسباب، فلم يكد السيد يعود من الحج حتى تواردت عليه أخبارُ ما يصنع السيخ بالمسلمين في البَنْجاب وما ارتكبوا فيهم من جرائم، من قتل الأبرياء وهتك الأعراض وهدم المساجد أو تعطيلها أو تدنيسها، وأن المسلمين لمّا عجزوا عنهم هجروا من أجلهم بلادهم ونزحوا عنها وأخلوها لهم.

فهاج ذلك في نفسه الغضب لله ولدينه ولمحارمه، وأعلن الجهاد واستنفر الناس إليه، فأقبلوا مُلَبّين، والتفّوا حوله، وبايعوه على الإمارة في الثاني عشر من جُمادى الآخرة سنة ١٢٤٢ (١١ كانون الثاني ١٨٢٧).

والسيخ (أو السيك) طائفة من المجوس، من أتباع غورو نانَكْ، وهو مجوسي قرأ كتب المسلمين فتأثر بها ودعا إلى نحلة جديدة هي فرع من الهندوسية، ومات سنة ١٥٣٣م. وكانت

(١) كما أفتى أمثالهم في بلادنا -في بعض الأوقات- بسقوط فرض الصيام خوف المشقة وبجواز أكل الربا، فعطّلوا الفرائض وأباحوا المحرمات وضيّعوا الدين.

دعوته في أول أمرها أقربَ إلى الإسلام من الهندوسية وكانت أدنى إلى المسالمة، ثم تحولت إلى دعوة شراسة وعنف ووحشية لا نظير لها في الدعوات التي عرفها البشر، وصار أتباعها أعدى أعداء المسلمين، ووقعت بينهم وبين المسلمين على عهد السيد وقبله وبعده (ولا تزال تقع بينهم) أشد المعارك.

وهم من أهل البنجاب. وأهل البنجاب -دون سائر الهنود- أولو بسطة في الأجساد ورجولة وقوة، سواء في ذلك مسلمهم ووثنيّهم، وإن كان المسلم، أعني المسلم الحق، يمتاز بأنه أعزّ في نفسه وأجرأ من كل من يقف أمامه من الناس، لاعتماده على الله، ولاعتقاده أن الذي يموت مجاهداً في سبيله ينال السعادة الدائمة في الجنة، فهو لذلك يطلب الموت كما يطلب الناس الحياة.

* * *

كان يقود جيوشَ السيخ رانجيت سِنْغ، ملك البنجاب، وقد اشتهر بشجاعته وقسوته وخبرته بفنون القتال، فخشي بعض المسلمين ألّا يَقوَى السيد ووزيره الشيخ إسماعيل على مواجهته بأصحابه، وهم أصحاب دفتر وكتاب ومصلّى ومحراب، ما كانوا أهلَ قِراع وضِراب.

ونسي هؤلاء أن الإيمان يصنع العجائب، وأن عمر كان يرسل العربي المسلم الذي لم يدرس في عمره في كلية حربية ولا خاض معركة نظامية، فيقيمه في وجه القائد البيزنطي أو الفارسي، فإذا به ينتصر عليه. نسوا سعداً أمام رستم، ونسوا أبا عبيدة أمام

قُوّاد قيصر، ونسوا أخبار الفتح الإسلامي من لَدُن خالد بن الوليد إلى عقبة وموسى، إلى قتيبة والمهلّب، إلى نور الدين وصلاح الدين والملك الظاهر[1].

ولكن السيد لم ينسَ؛ إنه كان يعلم أن على المسلم أن يبيع نفسه لله في ميدان الجهاد، ويعمل ما يستطيع ويُعدّ للعدو القوة التي يقدر عليها، والنصر من عند الله. ما كان النصر مع العدد دائماً ولا مع السلاح ولا مع الخبرة، ولكنْ لمن يريده له الله، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

وتوجه الشيخ الواعظ ومن معه من المشايخ والمريدين إلى حرب القائد المجرب المحنك البطاش، رانجيت سِنْغ، والوحوش البشرية التي تتبعه وتمشي معه. وكان العدو أكثرَ عَدداً وأكملَ عُدداً وأكثر خبرة بالقتال، ولكنه لم ينتصر؛ انتصر المجاهدون وهزموا جيوش الطغاة الظالمين المعتدين وملكوا بلادهم، وما زالوا يفتحون حصناً بعد حصن حتى احتلوا بيشاور، المدينة العظيمة.

* * *

وأقاموا على الحدود الشمالية للهند دولة إسلامية تحكم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، تقيم العدل وتُحِلّ الحلال وتحرّم

---

(١) إلى محمد الفاتح وسليم وسليمان، إلى عبد القادر في الجزائر وعبد الكريم في الريف، إلى جهاد المجاهدين في سوريا والعراق وفلسطين. أمّة كالغيث لا يُدرى آخرُه خيرٌ أم أوّله؟

الحرام. وأذاقت الناسَ حلاوة الحكم الإسلامي، فانتشر الأمن وعم الرخاء وساد الإخاء، وأحس الناس أنهم يعيشون في «المدينة الفاضلة» التي تخيَّلها الفلاسفة وتصورها الأدباء، ولكن لم يَرَها الناس حقيقةً إلّا في صدر الإسلام، وفي العهود القليلة وفي البلاد القليلة التي ساد فيها حكم الإسلام.

بقي السيد وهو الحاكم المطاع في تلك البلاد الواسعة كما كان وهو مريد في زاوية جَدّه، وكما كان وهو طالب في حلقة شيخه، وكما كان وهو في مجالس وعظه، وكما كان وهو في رحلة حجّه. ما غيّرَته الدنيا ولا بدّلته، ولا استهواه ما بلغ من الجاه ولا استخفّه ما نال من السلطان.

وإذا كان في الناس مَن تُبدّله الرياسة أو يغريه المال أو تبطره النعمة فهذا رجل نال الرياستين، الدينية والدنيوية، وصارت القلوب والجيوب[1] قِيدَ إشارته، وغدت مُتَع المال ولذّات الجمال طوع يمينه، فما وجد فيها كلها ما يُميل نظره إليها أو يغريه بها.

* * *

دامت هذه الدولة أربعَ سنين، وكانت شوكة معترضة في حلق الدولة البريطانية، فجربت في حربها سلاح الحديد والنار وسلاح المكر والخديعة، فما نالت منها منالاً. وأغرت بها السيخ، فردّ الله كيدهم في نحورهم وجعل الكرّة عليهم.

(١) الجيب في الأصل فتحة القميص، لكنا استعملناها هنا بالمعنى الشائع.

فلم تجد لها مخلصاً إلا استغلال السذاجة في بعض النفوس المسلمة، فترمي المسلمين بعضهم ببعض، علماً منها بأنه لا يفلّ الحديد إلّا الحديد. وسرعان ما خدعت شيوخ القبائل الأفغانية وأغرتهم بهذه الدولة الإسلامية الناشئة، وأوهمتهم أنها حكومة وهابية[1] وأنها إنْ قدرت عليهم سلبتهم سلطانهم وصادرت أموالهم.

واستعانت عليهم بجماعة من مشايخ السوء فأفتوهم بجواز قتالهم[2]، فصدّقوهم، وساقوا عليها من قبائل الأفغان سيلاً من الرجال الأشداء له أول وليس له آخر، فوضعوا السيوف في رقاب هذه الفئة من المجاهدين، وقتلوهم راكعين وساجدين، ونصروا استعمار الإنكليز وطغيان السيخ على أهل ملتهم ودينهم.

* * *

لمّا رأى الشيخ أحمد والشيخ إسماعيل ومَن معهما أنه لا طاقة لهم بهم، ولم يجوّزوا لأنفسهم قتل المسلمين وهم إنما خرجوا لقتال الكفار الباغين والدخلاء المستعمرين، انسحبوا قاصدين كشمير[3] يقيمون فيها بعيدين عن السيخ والإنكليز وقبائل الأفغان، فلحقتهم تلك القبائل واعترضتهم دونها، وكانت

---

(١) ليس في الدنيا مذهب اسمه المذهب الوهابي، وأهل نجد من أتباع محمد بن عبد الوهاب نفسه حنابلة متمسكون بمذهب أحمد.

(٢) وهي فتوى ينكرها الإسلام ويأباها الشرع.

(٣) كشمير جنّة من جِنان الدنيا ودارة من دارات الإسلام.

المعركة الأخيرة في بالاكوت، فاستُشهد فيها الإمامان، السيد أحمد بن عرفان والشيخ إسماعيل الدهلوي، في طائفة من خيار مسلمي الأرض، طائفة لم يَجُد تاريخ هذه القرون المتأخرة بمثلها. وكان ذلك يوم الجمعة، الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٤٦.

مات الشهيدان السعيدان، ومات معهما آلاف مؤلفة من المجاهدين، وماتت الحكومة الإسلامية وهي لا تزال في مهدها، ولكنّ الأثر الذي خلّفه الإمامان الشهيدان لم يمت، ولن يموت بإذن الله.

لقد كانت دعوة السيد أحمد بن عرفان إلى إحياء معالم الدين وتخليصه مما علق به من البدع والمحدثات وردّه إلى صفائه ونقائه، وعودة المسلمين إلى عقيدة التوحيد وإلى عزة الإيمان وإلى أخلاق الإسلام وآدابه، وألّا يقبلوا الدنيّة في دينهم وألّا يرضَوا بسلطانٍ إلا سلطان الإسلام، وأن يكون المسلم اليومَ صورة كاملة لِمَا كان عليه المسلم في صدر الإسلام، وأن يكون المَثَلُ الأعلى للمجتمع الإسلامي ما كان عليه مجتمع الرسول ﷺ وأصحابه.

رحمة الله عليهما وعلى من أيّدهما وعلى من استُشهد معهما، ورضوانه وبركاته.

* * *

عبد الرحمن بن عوف

دجا الليلُ فخلت طرق مكة، وانفضَّت مجالس قريش من حول الكعبة وراح السامرون يغشَون البيوت، واجتمع في بيت أبي بكر هؤلاء النفرُ من أصدقائه الذين أخلصوا له الود ومحضوه الحب: عثمان وسعد والزُّبَير وطلحة وابن مظعون وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف[1]. ولكنهم لم يجتمعوا هذه الليلة لحديث يديرونه وليل يمضونه كما يجتمع الأصحاب والأصدقاء، إنما اجتمعوا لأمر جلل دعاهم له أبو بكر.

إنه يحمل إليهم خبراً ليس كالأخبار، خبراً لم يسمعوا مثله قط، هو أن آلهتهم التي عاشوا يعظّمونها ويعبدونها ولا يعرفون لهم آلهة تقرّبهم إلى الله زُلفى غيرَها، اللات والعُزَّى، ليست إلّا أصناماً من حجارة لا تضرّ ولا تنفع، وأنه ليس لهذا الكون كله إلّا إله واحد، له الخلق وله الأمر، وأنه أرسل واحداً منهم رسولاً إليهم، يبشّرهم وينذرهم ويدلّهم على طريق السيادة والسعادة في الدنيا والنجاة والنعيم في الآخرة.

وكانوا يُصغون مَشدوهين، يسمعون عجباً ما بعده عجب. قالوا: من هذا الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً وجاء يدعونا أن نتبع غير ما ألفينا عليه آباءنا؟

---

(١) سمّاه رسول الله ﷺ عبدَ الرحمن، وكان اسمه عبد الكعبة أو عبد عمرو.

قال: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. قالوا: هو والله الأمين؛ ما جرّبنا عليه كذباً أبداً. فمَن اتّبعه؟ قال: ثلاثة، امرأة وصبيّ ورجل. أما المرأة فزوجُه خديجة، وأما الصبي فابن عمه علي، وأما الرجل فهو الذي يكلمكم.

فشرح الله صدورهم للإسلام، وشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

في تلك الساعة وُلد عبد الرحمن ولادة جديدة، كما ولد بالإسلام كل واحد من الصحابة الكرام من جديد. ونَمَت الأمّةُ التي بدأت بثلاثة، رجل وامرأة وصبي، فصارت بهؤلاء النفر أمة من عشرة، ونقلتهم تلك الساعة من حال إلى حال.

كانوا يعيشون في غمار الناس ويتوارَون في ظلام الزوايا، فوضعهم الإسلام على السُّدّة، وما زال بهم يلقي عليهم الأنوار حتى رأتهم العصور كلها. وكانوا على الهامش فصاروا في الصلب، وصارت أسماؤهم عناوينَ ضخمة لفصول ضخمة في تاريخ العظمة، حتى إنه ليهتف بها اليوم مئة ألف خطيب على مئة ألف منبر، يكررونها كل جمعة، لا يملّون تكرارها ولا يمل الناس سماعها. وستبقى مدويّة معلَنة ما بقي الإسلام، وسيبقى الإسلام ما بقيت الدنيا.

* * *

ولزم عبدُ الرحمن رسولَ الله ﷺ في جملة الصحابة الأولين السابقين إلى الإسلام، لا يتركون كلمة منه حتى يسمعوها ويَعُوها ويعملوا بها، ولا يلمسون رغبة له حتى يسارعوا إلى تحقيقها.

يدفعون بأنفسهم عن نفسه ويُؤْثرونه على الأهل والولد، حتى تعجبت قريش منهم فقالوا: ما رأينا أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

لا حبَّ العامة منا الذين ينظمون فيه أشعار الغزل الركيكة ويغنون بها بالألحان الرخوة ثم يخالفون عن أمره ويتبعون غير سبيله، بل الحب الحق الذي فيه إيثار طاعته على هوى نفوسهم ومصالحهم، وترك ما يحبون لما يحب، واحتمال ما يكرهون لدرء ما يكره. وهذا هو الذي أراده رسول الله حين قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهله وولده ونفسه التي بين جنبيه». هذا، لا حب العشق والتغني بأبيات الغزل: ﴿قل إنْ كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحْبِبْكم الله﴾.

فكان عبد الرحمن أحدَ العشرة المبشرة بالجنة. كان الصحابة صفوة الناس ولباب البشر، وكان هؤلاء العشرة صفوة الصفوة ولباب اللباب. نالوا بالإسلام اللذة الباقية في الآخرة، ولكنهم نالوا به الألم في هذه الدنيا، فاحتملوه راضين محتسبين.

* * *

وكانت سلسلةٌ من المتاعب والأهوال. اختفوا في بيت الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي عند الصفا، لا اختفاء ذلّة وهرب، بل اختفاء استعداد وتدريب، كما يتوارى الجنود في الثكنة ليتدربوا على فنون القتال قبل خوض المعركة.

وتركوا الإسلام ينتشر رقيقاً مترسلاً، يزداد على مهل كأشعة الضوء عند الفجر. فلمّا اكتملوا بإسلام عمر أربعين ابْيَضَّ الأفقُ

بالضوء وظهرت تباشير النهار، فخرجوا يَبرزون بالإسلام بمظاهرة كانت بمثابة إعلان حرب على الشرك وأهله.

وهَبَّت قريش تدافع عن آلهتها وعن شركها، ونال الرسولَ والمسلمين من أذاها ما لا تصبر على مثله دَوحُ الغاب وسباع الفلا، فاحتملوه. وكان عبد الرحمن مع الرسول ﷺ في ذلك كله ومع الصحابة الأدْنَين. إذا لم يظهر اسمه ولم تظهر أسماء إخوانه في هذه الفترة، وهم أقمار البشرية وبُدورُها في حالك دُجاها، فلأن الرسول كان حياً فيهم، والبدر إن طلع مع الشمس في فلك بدا معها كاسفاً منطفئاً، وهو هو البدر.

حتى إذا امتد الأذى وطال الأمد، وقريش واقفة في وجه الدعوة، تسد الطريق أمامها أنْ تمضي إلى الأرض الفضاء، حيث تترقبها الأمم المظلومة والشعوب المستضامة في فارس والروم وأقطار الأرض، فكّر النبي ﷺ في نقل مركز القيادة العامة من مكة.

وذهب «سفراؤه» إلى الجنوب يختبرون البلاد ويدرسون أحوال الناس. وكانت هجرة الحبشة، وكان عبد الرحمن من وجوه المهاجرين. ونجحت «السفارة»، ولكن الرسول ﷺ لم يَرَ الانتقال إليها. إن العالم المتمدن يومئذ كان في شمال مكة، فلينتقل المركز العام للقيادة خطوة إلى الشمال ليتقرب من الدنيا التي كُلِّف بفتحها لهذا الخير الجديد.

* * *

وهاجر المسلمون إلى المدينة، وهاجر عبد الرحمن، ترك كل شيء وخرج. وهل يملك الضابط الوقوف عند أهله أو ماله إنْ

تلقى الأمرَ بالمسير مع الجيش؟

غير أن الضابط يبتعد بجسده وفكرُه عند أهله وماله. وعبد الرحمن وإخوانه المهاجرون خلّفوا دورهم وفارقوا أوطانهم ونأوا عنها بأجسادهم وقلوبهم، لأن محمداً علمهم أنه ليس وطنُ المسلم البلدَ الذي وُلد فيه وفيه مسارح صباه ومطارح ذكرياته، ولكنه البلد الذي يستطيع أن ينصح فيه لدينه ويُعلي فيه كلمة ربه.

ودخلوا المدينة مهاجرين فقراء، فما اعتبرهم أهلها دخلاء ولا عدّوهم لاجئين، بل فتحوا لهم دورهم وقلوبهم وأوْلَوْهم من الرعاية ما لا يبلغ إدراكَ حقيقته الخيال.

وآخى الرسول ﷺ بين كل اثنين، فكان أخا عبد الرحمن بن عوف (المهاجرَ) سعدُ بن الربيع (الأنصاري)، فلم يكفِ سعداً أن أنزله في بيته وأكرمه بضيافته وأراه من بِرّه، حتى قال له: إني أكثر الأنصار مالاً، ولقد قسمت مالي نصفين، فخذ أفضلهما يكن خالصاً لك. فقال له عبد الرحمن: بارك الله عليك في مالك. لا أريد منك شيئاً، ولكن دُلَّني على السوق.

إنه يريد أن يعيش بكَدّه ويَغنَى بعمله ولا يكون كلّاً على أحد، وكذلك يكون المسلم الحق.

ودلّه على السوق، فدخل لا يملك شيئاً، ولكنه يملك همّة وعزيمة وخبرة بالتجارة، فجعل يشتري الجمل بالدَّين ثم يبيعه بثمنه، فيربح العِقال، أي قطعة الحبل. وضم عقالاً إلى عقال حتى صار في يده ثمن جمل، واشترى وباع جملاً بعد جمل حتى اجتمعت له صَرْمة من الإبل، وما لبث أن جاء وعليه أثر زعفران،

فقال له رسول الله ﷺ: مَهْيَم[1]؟

قال: تزوجت امرأة. قال: فما أصدقتَها؟ قال: وزن نواة من ذهب. قال: أَوْلِمْ[2] ولو بِشاة.

وإذا كان من يبتغي اللذة بالمرأة بالحرام يتوارى ويستتر فإن مَن يبتغيها بالحلال يعلن ويظهر، واللذة هي اللذة، ولكنها ذِلّة الحرام وعزة الحلال.

* * *

وامتلأت كفه بالمال، ولكنْ لم تمتلئ بحبّه نفسُه، فلما كان جيش العسرة ودعا الرسول ﷺ الصحابةَ إلى البذل كان عنده ثمانية آلاف، فجاء بنصفها، فقدمه إلى رسول الله ﷺ وقال: كان عندي ثمانية آلاف، فأمسكت أربعة آلاف لنفسي وعيالي وأربعة آلاف أقرضها ربي. فروَوا أنه ﷺ قال له: بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت.

بذلها راضياً فرحاً، لأن المال كان في يده لا في قلبه، وهذا هو الزهد، لا زهدَ الذين يسلكون من جهلهم الباديةَ بلا زاد، ولا الذين يتركون الكسب الحلال ويكونون كلّاً على العباد. وأنزل الله فيه وفي عثمان ومَن بذل يومئذ قولَه تعالى: ﴿الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذىً لهم أجرُهم عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾.

---

(١) كلمة استفهام، أي ما حالك وما شأنك؟

(٢) اعمل وليمة.

وضاعف الله ماله وبارك له فيه، لأن الصدقة أربحُ تجارة في الدنيا وفي الآخرة، فقد قال الرسول الكريم ﷺ: «ما نقص مالٌ من صدقة»، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الذين يُنفقون أموالَهم في سبيل الله كمَثَل حَبَّةٍ أنبَتَتْ سبعَ سنابلَ، في كل سُنبلة مئةُ حبّة، والله يضاعف لمن يشاء﴾[1].

وطابت له هذه التجارة، فعاد فتصدّق بأربعين ألف درهم، فضاعف الله ماله وبارك له فيه، فعاد فتصدق بأربعين ألف دينار، قسمها في أمهات المؤمنين وفي بني زُهْرَة[2] وفي فقراء المسلمين. وضاعف الله ماله، وبارك له فيه، فعاد فتبرع للجيش المجاهد بخمسمئة فرس، ثم عاد فتبرع بعدها بألف وخمسمئة فرس.

* * *

من عِقال إلى عقال، أي من قطعة حبل إلى قطعة حبل، اجتمع هذا المال العظيم، جاء به من التجارة ونَمّاه بالصدقة، فلما مرض أخرج ثلث ماله فتصدق به بيده، لأن من ينفق وصيته في حياته كمن يوكل من يسير له بالمصباح بين يديه يضيء له الطريق، ومن يوصي بما ينفق بعده كمن يوكل من يحمل له المصباح ويمشي وراءه. وكلٌّ إلى خير، ولكن الأفضل أن تعطي وأنت صحيح شحيح تخاف الفقر وترجو الغنى، لا أن تنتظر حتى تُحتَضَر فتقول: هذا لفلان وهذا لفلان.

---

(١) رُوي أن هذه الآية نزلت فيه وفي عثمان.

(٢) كان عبد الرحمن من زهرة، ومن هذا البطن من قريش أيضاً أم النبي عليه الصلاة والسلام، ومنه طلحة وسعد بن أبي وقاص (مجاهد).

ثم نادى: يا أصحاب رسول الله، كل من كان من أهل بدر له عليّ أربعمئة دينار. فقام عثمان فذهب مع الناس ليأخذ، فقيل له: يا أبا عمرو، ألست غنياً؟ قال: هذه صلة لا صدقة، وهي من مال حلال. فكان مبلغ ما وصلهم به ووصل غيرهم مئة وخمسين ألف دينار.

وسمعت السيدة عائشة يوماً رَجّة في المدينة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء. وكانت سبعمئة بعير. فقالت: يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً. فلما بلغه ذلك قال: إني لأرجو أن أدخلها قائماً. فجعل القافلة كلها في سبيل الله، الجمال وما عليها، ووزعها على الناس.

وباع أرضاً له بأربعين ألف دينار، فقسم ذلك في فقراء بني زُهرة، وفي ذوي الحاجة من الناس، وفي أمهات المؤمنين. قال ابن أخته المِسْوَر[1]: فأتيت عائشة بنصيبها من ذلك، فقالت: من أرسل بهذا؟ قلت: عبد الرحمن بن عوف. قالت: إن رسول الله ﷺ قال: لا يحنو عليكنّ بعدي إلّا الصابرون. سقى الله ابنَ عوف من سلسبيل الجنة.

وبقي من ماله لمّا مات -بعد هذا كله- شيء لا يكاد يُحصى، حتى أصاب كلَّ واحدة من زوجاته الثلاث من النقد وحدَه دون الإبل والغنم والخيل والعقار ثمانون ألفاً.

* * *

---

(١) المِسْوَر بن مَخْرَمة، أمه عاتكة بنت عوف (مجاهد).

وكان هذا كله ببركة التجارة. وكان هذا شأنَ المسلمين، يَتَّجِرون فيكسبون وينفقون ويتصدقون، كعثمان والزبير، أو يصبرون ويَقْنَعون بما يجدون، كأبي عبيدة وسلمان، ولا تجد فيهم مَن يَمُدّ إلى الناس يدَه ليأكل الدنيا بالدين ويعيش من كَدّ غيره.

كان في نعمة سابغة، وكان يلبس البُرْد[1] بأربعمئة درهم أو بخمسمئة، وتزوج امرأة من الأنصار فجعل مهرها ثلاثين ألفاً. وما في ذلك من بأس، والإسلام لا يحرّم الغِنى ولا يمنع العَيش الرَّخِيّ ما دام المسلم قد جمع المال من حلال وأنفقه في غير الحرام: ﴿قُلْ مَن حَرَّمَ زينةَ الله التي أخرجَ لعباده والطيّبات من الرزق؟﴾ والغنيُّ الشاكر هو في الفضل كالفقير الصابر.

ولكنه كان يخاف أن يكون الله قد عجّل له المكافأة في الدنيا. جلس يوماً مع أضيافه، وأُتُوا بصَحْفة[2] فيها خبز ولحم،

---

(١) البُرد كساء مخطط كانوا يلتحفون به، يشبه العباءة، وأحسب أنه هو نفسه الذي ما زلنا نشاهده على عواتق الأعراب في بوادي بلاد الشام وغيرها إلى اليوم (مجاهد).

(٢) فائدة: يظن بعض الكتّاب أن الصحفة هي الطبق ويستعملونها بهذا المعنى في كتاباتهم، وهذا غير صحيح، فالصحفة كالقصعة، يوضَع فيها مقدار كبير من الطعام ويتحلق حولها الآكلون أو يُطاف بها عليهم، في القرآن: ﴿يُطاف عليهم بصِحاف﴾. وفي «التاج» وغيره من المعجمات عن الكسائي: "أعظم القِصاع الجَفْنَة، ثم القَصْعَة تليها وتُشبع العشرة، ثم الصَّحْفَة تُشبع الخمسة". فما كان من أواني الأكل للفرد الواحد فهو الطبق، لفظة فصيحة، أو الصحن، وهي لفظة مَجْمَعية، اعتمدها مجمع اللغة العربية في القاهرة (مجاهد).

فلما وُضعت بكى، فقالوا له: ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: مات رسول الله ﷺ ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير، ولا أرانا أُخِّرنا لما هو خير لنا.

وأُتي مرة بطعام، وكان صائماً، فلما تقدم ليأكل كَفّ يده وقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، فكُفِّن في بُرْدة إنْ غُطي بها رأسه بدت رجلاه وإنْ غُطيت رجلاه بدا رأسه. وقتل حمزة وهو خير مني، فلم يوجد ما يكفَّن به، ثم أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عُجِّلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام.

* * *

لزم عبد الرحمن رسول الله ﷺ في حِلّه وترحاله، وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد العشرة الذين بُشِّروا بالجنة، هاجر الهجرتين وكان من أفاضل المهاجرين.

قال المِسْوَر بن مَخْرَمة: كنت في ركب بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وعبدُ الرحمن قُدّامي عليه خَميصةٌ سوداء، فقال عثمان: مَن صاحب الخميصة السوداء؟ قالوا: عبد الرحمن ابن عوف. قال: فناداني عثمان فقال: يا مسور. قلت: لبيّك يا أمير المؤمنين. قال: من زعم أنه خير من خالك في الهجرة الأولى وفي الهجرة الآخرة فقد كذب.

وشهد معه المشاهد كلها، وكان مع الذين كانوا حوله في بدر، وكان ممّن ثبت معه لما انهزم الناس في أحد، وكان أحدَ الثلاثة الذين تخيّرهم رسول الله ﷺ ليشهدوا على المعاهدة في

الحديبية وليكونوا مندوبي المسلمين في مؤتمر الصلح، وهم أبو بكر وعمر وعبد الرحمن.

ولمّا ولّاه رسول الله ﷺ إمارة السرِيّة التي وجّهها إلى دُومة الجندل[١] وجاء يودّعه رأى عليه عمامة، فكأنه لم يرتَضِها، فأخذها بيده الكريمة فنفضها وعمّمه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفَيه عَذَبة منها[٢]. وقد نجح في تلك السريّة؛ قدم دومة فدعاهم إلى الإسلام، فأبَوا أولاً، ثم أسلم رأسُهم الأَصْبَغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، فكتب بذلك عبد الرحمن إلى النبي ﷺ، فكتب إليه أنْ تزوج تُماضِر بنت الأصبغ، فتزوجها.

وفي هذا الزواج حكمة عالية، لأنه يجعل أعداء الأمس أصهاراً وأقرباء ويكوّن منهم ومن المسلمين أسرة واحدة، لذلك كان ﷺ يتزوج، ولهذا أخذ بنت حُيَي بن أخطب وغيرها، ما أخذَهنّ شهوة للزواج كما ظن الخصوم، وما كان يبتغي فيهن الجمال، وأكثرهن ثَيّبات كبيرات، ولو ابتغى الجمال لكانت كل

---

(١) دومة الجندل هي المعروفة اليوم بالجوف.

(٢) العمائم تيجان العرب، ولكن الرسول ﷺ لم يكن يلتزمها دائماً، بل كان يتخذها غالباً، ولم يكن يلتزم فيها شكلاً خاصاً ولا لوناً خاصاً، ولم تكن عمامته كعمائمنا اليوم، بل كانت أشبهَ بما يصنعه أهل الحجاز، تكون الطاقيّة على رؤوسهم فيلفّون عليها الحطة كيفما اتفق، فإن أحبوا نزعوها وألقوها على أكتافهم، وإن احتاجوا إلى صَرّ شيء صَرّوه بها، وربما بسطوها فقعدوا عليها، وربما كتّفوا بها الأسير في الحرب. وقد تكون الحَطّة (وهي العمامة) بيضاء أو سوداء أو ملونة.

جميلة في الجزيرة قِيدَ إشارته. ولقد أمضى سِنِي الشباب كلها، وهي أشد سني العمر شهوة وضراماً، وهو مُكتفٍ بزوجته الأرملة الكبيرة التي تزيد سنها على سنه، والتي طلبته هي ورغبت فيه، لم يكن هو الذي رغب فيها وطلبها.

* * *

وكان الرسول ﷺ في غزوة تبوك، فخرج في السحَر فرأى المغيرة بن شعبة، فضرب عنق راحلته[1]. قال المغيرة: فظننت أن له حاجة، فعدلت معه حتى تبرزنا عن الناس[2]، فنزل عن راحلته، ثم انطلق فتغيَّب عني حتى ما أراه، فمكث طويلاً، ثم جاء فقال: حاجتك يا مغيرة؟ قلت: ما لي حاجة. قال: فهل معك ماء؟ قلت: نعم.

فقمت إلى قِربة معلقة في آخر الرحل فأتيته بها، فصببت عليه، فغسل يديه فأحسن غسلهما، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يَحْسُر عن يديه، وعليه جبة شامية ضيّقة الكم، فضاقت فأخرج يديه من تحتها إخراجاً، فغسل يديه، ثم مسح بناصيته ومسح على العمامة ومسح على الخفين. ثم ركبنا فأدركنا الناس وقد أقيمت الصلاة، فتقدمهم عبد الرحمن بن عوف، وقد صلى بهم ركعة وهم في الثانية، فذهبت أؤذنه[3] فنهاني، فاقتدينا به، فلما انتهت

(١) الهاء عائدة على المغيرة لا على النبي، فهو ﷺ ضرب عنق راحلة المغيرة كما في رواية أحمد، أي أنه دفعها لتتحرك (مجاهد).

(٢) أي خرجنا منهم.

(٣) أي يخبر عبدَ الرحمن بقدوم الرسول ﷺ.

الصلاة أقبل على الناس فقال: قد أصبتم وأحسنتم.

رضي عنهم وصوّبَهم لأنهم أقاموا الصلاة على وقتها ولم ينتظروا بها رسول الله ﷺ، ونحن نرى اليوم مِن أئمة المساجد مَن يؤخر إقامة الصلاة ينتظر قدوم أحد الجيران!

وفي هذا الحديث صورة حية من سيرته ﷺ في أصحابه وأسلوب معاملته إياهم، وفيه منقبتان لعبد الرحمن تتضاءل معهما المناقب. الأولى أنه ﷺ عَمَّمَه بيده الشريفة، فتصوروا رئيس دولة يولي قائداً من القواد، فيحضر لوداعه في الاحتفال الرسمي، فيرى الرئيس في ثيابه خللاً، فينزعها ويُصلحها بيده ويُلبسه إياها!

هذه هي «ديمقراطية» الإسلام الحقيقية، لا ديمقراطية أميركا المزعومة، أميركا التي تفرق بين الناس لاختلاف ألوانهم، فيُشنَق الأسود إنْ مس امرأة بيضاء ويُطرد إن دخل ناديهم(١)، على حين أن الإسلام جاء ببلال، وهو عبد أسود حبشي، فجعله وزير الدعاية (أعني المؤذن) في أول حكومة إسلامية!

والثانية: أن المسلمين لمّا غاب رسول الله ﷺ رضوا

(١) كان الأمر كذلك يوم كتب الشيخ رحمه الله هذه الرسالة. لقد كان التمييز العنصري ضد السود شديد القسوة في الولايات المتحدة، واستمر كذلك لمدة قرنين تقريباً، مما دفع السود إلى إطلاق حركة حقوقية مدنية استمرت بالنضال السلمي لعدة عقود حتى تكلل نضالها أخيراً بالنجاح، فأُلغِي التمييز العنصري قانونياً سنة ١٩٦٨، واستغرق الأمر عقداً آخر حتى استطاع المجتمع امتصاص القوانين الجديدة والتعايش معها بسلام (مجاهد).

بعبد الرحمن وقدموه إماماً، وأن الرسول ﷺ اقتدى به في صلاته، وما اقتدى إلا به وبأبي بكر الصديق.

* * *

شهد عبد الرحمن بدايةَ الإسلام وضعفه، ثم رأى انتشاره وعزَّه، فدخل الناس في دين الله أفواجاً، واجتمع العرب كلهم تحت راية محمد ﷺ، فاستبدلوا بفُرقتهم اتحاداً، وبجهلهم علماً، وبشركهم ديناً اهتدوا به وهَدَوا الدنيا، وسعدوا به وأسعدوا أهل الأرض.

أصبح المسلمون يوماً وإذا النبي عليه الصلاة والسلام قد فُقد من بين ظهرانيهم وخلا مكانه فيهم، فرُوّعوا وزُلزلوا، لأنهم كانوا -لفرط حبهم إياه ﷺ وتعلقهم به- ينسَون أنه بشر مثلهم يموت كما يموتون، ولم يطيقوا حمل الرَّزِيّة[1]، فطاشت أحلامهم. هؤلاء الذين لم تزعزعهم المعارك ولا الخطوب زعزع موتُ الرسول كل قَرْم[2] فيهم، حتى عمر العظيم.

ولبثوا على حيرتهم إلى أن قدم شيخ الإسلام أبو بكر، فقال لهم: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وتلا عليهم قول الله عز وجل: ﴿وما محمَّدٌ إلّا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُل، أفإنْ ماتَ أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟﴾ فصَحَوا وتبينوا وسكنوا إلى قول الله تعالى، وعاشوا

(١) الرزيئة بالهمز والرزيّة بالتسهيل: الرُّزء والمصيبة (مجاهد).
(٢) القَرْم من الرجال: السيّد المُعَظَّم، الجمع قُروم (مجاهد).

بعده كما كانوا يعيشون معه، وعلموا أنه إن غاب فالله حاضر والشريعة واضحة، فاتبعوا الشريعة وأخلصوا العبودية لله.

كانوا كالأقمار التي تبدو منطفئة أمام الشمس، فلما غابت الشمس أضاءت تلك الأقمار فضوَّأَت الدنيا.

وبقي عبد الرحمن بن عوف في دولة الخلفاء الراشدين كما كان على عهد رسول الله ﷺ، كان عَلَماً من أعلام الإسلام ورأساً من رؤوس الصحابة، وولّاه عمر في خلافته إمارة الحج، ولمّا حجت زوجات الرسول ﷺ لم يجد عمر من هو أوثق من عثمان ومن عبد الرحمن ليكون معهنّ، فكان عثمان يسير على راحلته أمامهنّ فلا يدع أحداً يدنو منهن، وكان عبد الرحمن يسير على راحلته وراءهنّ فلا يدع أحداً يدنو منهن، ويَنزلن مع عمر في كل منزل.

وزوجات الرسول أمهات المؤمنين، لذلك كُنَّ يُكرَمْنَ تكريم الأمهات.

* * *

وكان مستشارَ الدولة، فكان الفزع إليه في المُلِمّات وكان حلّال الأزمات.

لما أحسّ أبو بكر من نفسه الموت لم يشغله ما نزل به عن التفكير في مصالح المسلمين، وكان يؤثرهم على نفسه، حتى في تلك الساعة التي يضعف فيها أقوام فيبكون ويجزعون، ويكون أكبرُ همِّ آخَرين أهلَهم وأولادهم، لا ينظرون إلا إليهم ولا يُعنَون إلا بهم.

ونظر فرأى أنه إن اختار المسلمون خليفته في حياته كان أجدر ألّا يختلفوا بعده. فدعا رؤوس الناس فأراهم رأيه، فذهبوا فتشاوروا، فلم يتفقوا على أحد، فعادوا إليه فوكلوه أن يختار لهم، فقال لهم: أمهلوني حتى أنظر لله ولدينه وعباده. ثم بدأ استشاراته، فكان أول من دعاه فاستشاره عبد الرحمن.

ولما أراد عمر أن يوجّه الجيش الفاتح إلى العراق (وكانت جبهة العراق أخطر الجبهات، لعظم دولة فارس وقرب عاصمتها من الحدود العربية) جمع الناس ليستشيرهم فيمَن يوليه قيادة الجيش، وقال لهم: أشيروا عليّ. فكان أول من سُئل وأول من أجاب عبد الرحمن. قال: وجدته. قال عمر: ومن هو؟ قال: الأسد عادياً، سعد. فانتهى عمر إلى رأيه وأخذ بمشورته، وكان فيها النجاح والفلاح وكان من ورائها النصر والظفر.

وكان عمر قد عزم -قبل ذلك- على قيادة الجيش بنفسه، وخرج فعلاً واستخلف على المدينة عليّ بن أبي طالب، فلما صار على بعد ثلاثة أميال عن المدينة، وهو في طريقه إلى الجبهة، قال له عبد الرحمن: إذا كنت ترى القعود عجزاً فاجعل عجزها بي وأقم وابعث جندياً، فإنه إنْ يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إنْ تُقتَل أو تُهزَم في أول الأمر خشيت ألّا يكبّر المسلمون وألا يشهدوا أن «لا إله إلا الله» أبداً.

فأخذ عمر برأيه، وكان فيه الخير كل الخير.

* * *

ولمّا خرج عمر إلى الشام في إحدى سفراته لقيه في سَرْع[1]، قرب تبوك، قُوّاد الجيش أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الطاعون وقع في أرض الشام. فقال عمر لابن عباس: ادعُ لي المهاجرين الأوّلين. فحضروا، فاستشارهم فاختلفوا، فقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. وقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه.

وكان مما قاله أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟

وجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فجاء معه حل المشكلة، ونقل النص الشرعي الذي يؤيد ما رآه عمر بعقله العبقري. روى لهم الحديث الذي يُعَدّ معجزةً من معجزات الإسلام وأمارة من أمارات صدق رسالة محمد ﷺ، الذي قرر به الرسول قاعدة «الحَجْر الصحي» المتبَع اليوم، يوم لم يكن على ظهر الأرض من يدري ما مسير الأمراض وكيف يكون انتقالها.

---

(١) قال ياقوت: هي بالغَين المعجمة، والعين لغة فيها. وكذا أثبتها العلامة حمد الجاسر في «أماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة»، وجعلها آخر منازل أهل الشام قبل تبوك. (مجاهد).

قال عبد الرحمن: إن عندي من هذا علماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به (أي بالمرض الساري) بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها».

وكان عمر -لِمَا يعلم من إخلاصه وصحة رأيه- يقبل منه ويستمع إليه، حتى صار أجرأ الناس على عمر، إذا أرادوا منه شيئاً سألوه أن يكلمه.

وقد اجتمع مرة عثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد، فقالوا له: لو كلمت أمير المؤمنين أن يَلين للناس، فإنه قد أخافنا حتى ما نستطيع أن نُديم إليه أبصارنا، وإن الرجل طالب الحاجة يأتيه فتمنعه هيبته أن يكلمه في حاجته.

فدخل عبد الرحمن عليه فكلمه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِنْ للناس، فإنه يقدم عليك القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته. فقال: يا عبد الرحمن، أنشدك الله، أعليٌّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد آمروك بهذا؟ قال: اللهمّ نعم. قال: يا عبد الرحمن، لقد لِنتُ للناس حتى خشيت الله في اللين، ثم اشتددت حتى خشيت الله في الشدة، وأيْمُ الله[1] لأنا أشد منهم فرقاً منهم مني[2] فأين المخرج؟

وقام يجر رداءه يبكي، فجعل عبد الرحمن يقول: أفٍّ لهم من بعدك.

---

(١) وأيْمُ الله قسَم، أصله «أيْمُنُ الله» وهي جمع يمين.
(٢) أي أنه يخشاهم أكثر ممّا يخشونه هم.

وكان أقربَ الناس إلى عمر وأدناهم إليه، يتوجه إليه في جليل الأمور وفي صغيرها. إنْ جاء الأعرابي يستفتي في شيء من أمر الحج أمر عمر عبد الرحمن أن يفتيه، ولام الأعرابي إن لم يأخذ بفتواه[1]. وإن أراد عمر أن يعسّ في الليل ويحرس الأعراب النازلين في ضاحية المدينة صحب عبد الرحمن، فذهبا معاً يحرسانهم ويصلّيان[2].

وكان عمر أول من جلد في حد الخمر ثمانين، أخذ في ذلك بقول عبد الرحمن بن عوف. ولما نشأت مشكلة المجوس وحار عمر في أمرهم، كيف يعاملهم، فسأل الصحابة، جاء الجواب على لسان عبد الرحمن حلاّل المشاكل، إذ وثب فقال: أشهد على رسول الله أنه قال: سُنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب. فمضى الحكم على ما روى عبد الرحمن.

ولمّا وردت كنوز فارس (التي لا يصل إلى حقيقة أثمانها التقديرُ ولا تقوم بها الخزائن) وضعها عمر في المسجد وجعل حارسها عبد الرحمن. ولما طُعن عمر وهو قائم في الصلاة تناول يد عبد الرحمن من بين الصحابة فقدمه، فاستخلفه في الإمامة.

* * *

توفي سنة إحدى وثلاثين للهجرة وهو ابن خمس وسبعين سنة، وصلى عليه عثمان ودُفن في البقيع. ولمّا نزل به الموت

---

(١) الخبر في كتابي «أخبار عمر».
(٢) «أخبار عمر»، ص٤٣٧.

أرسلت إليه عائشة أن هَلُمّ إلى رسول الله وإلى أخويك (تدعوه ليُدفَن في بيتها) فقال: ما كنت مضيّقاً عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أيُّنا مات دُفن إلى جانب صاحبه.

مات بعدما رأى الأمة التي كانت مؤلفة من ثلاثة، رجل وامرأة وصبي، قد نمت حتى شملت العرب جميعاً والعجم جميعاً، وضمّت من سائر الأمم أقواماً لا يحصيهم العد. كانت تجمعها كلَّها دارُ الأرقم فتتسع لها وقد تزيد عنها، فامتدت دارها حتى وصلت من تونس إلى تركستان. وكانت مستخفية ضعيفة تخاف أن تطيش بها جبابرة قريش، فصارت قريشٌ حَمَلة رايتها وجند دعوتها، وصارت لها السيادة على ثلث المعمور من الأرض.

مات بعدما بلغ بالإسلام أعلى ما يبلغ بشرٌ من العزة والجاه والمال، وسيبلغ بالإسلام -إن شاء الله- في الآخرة أقصى ما يبلغ المؤمنون.

* * *

هذه ملامح من سيرة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه، إن لم تكن واضحة المعالم فلأن الرجل لم تكن له حياة مستقلة لتكون لحياته سيرة مستقلة تُكتَب وحدَها وتؤرَّخ على حدة، بل كانت حياته فصلاً من الحياة العامة للصحابة الكرام. كانوا يعيشون جميعاً حياة واحدة متداخلة مترابطة، لا تستطيع أن تؤرخ لأحدهم إلّا إذا أرَّخْت لجميعهم. كانوا كأبطال الرواية العبقرية، كل له دور فيها، ومن هذه الأدوار كلها تتألف قصة

أبطالها جميعاً، قصة السموّ والعلاء، قصة الإيمان والجهاد، قصة العلم والخُلُق، قصة الكمال البشري.

وهذه صفةٌ أجدها كلما حاولت الكتابة عن واحد منهم ولا أجد مثلها لعظماء أمة من الأمم، وهي مزية من مزايا هذا العهد الذي لم يعرف تاريخ البشر كله عهداً أطهر ولا أشرف ولا أعظم منه أبداً. فعودوا إلى هذا التاريخ فاقرؤوه وجدّدوا العهد به، ثم حاولوا أن تكتبوا مثله مرة أخرى.

ورحمة الله ورضوانه على عبد الرحمن وعلى إخوانه الطيبين الطاهرين.

* * *

الإمام النووي

نحن في قرية نَوَى في حوران في رمضان سنة ٦٣٨ للهجرة. كانت نوى في تلك الأيام قاعدة الجولان، وكان أهل البلد يحتفون بضيف كريم زار بلدهم، هو شيخٌ حَجّام أسود، له دكان في باب الجابية بدمشق. لم يكن عالماً ولكنه كان صالحاً متعبداً، قد حج أكثر من عشرين مرة، صاحب كرامات، اسمه الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي. وكانت الصوفية منتشرة يومئذ وكان الناس «يعتقدون» بمثل هذا الرجل.

ومر الشيخ بسوق القرية فرأى النووي، وكان ولداً عمره سبع سنين، يشتغل أجيراً في دكان. فنظر إليه وكلّمه، ثم قال: مَن أبو هذا الصبي؟ قالوا: رجل من بلدنا. قال: من أين هو؟ قالوا: أصله من العرب، نزل جده الأعلى بهذه القرية وتناسلت ذريته فيها. قال: دُلّوني عليه. قالوا: نحن ندعوه لك. قال: بل أنا الذي يمشي إليه. فمشى إليه، فلما رآه سأله عن الصبي، فقال: هو ابني. قال: استَوْصِ به ولقِّنْه العلم، فإنه يُرجَى أن يكون أفضل أهل زمانه. قال: أمنجِّمٌ أنت؟ قال: لا، وإنما أنطقني الله بذلك.

* * *

وجاء اليوم السابع والعشرون من رمضان، فأفاق الولد قُبَيل السحر وأيقظ أباه وقال: يا أبَتِ، ما هذا الضوء الذي ملأ الدار؟

واستيقظ أهله جميعاً، فنظروا فلم يروا شيئاً. قال أبوه: فعرفت أنه رأى ليلة القدر(!)

وتذكر أبوه ما كان قاله الشيخ الزاهد من أيام، فأخرجه من الدكان وبعث به إلى مَن يعلمه العلم. فلبث يقرأ على مشايخ أهل قريته وما حولها، وكان رفاقه من الصبيان يسحبونه من يده ليلعب معهم، فيُفلت منهم ويعتزلهم فيقرأ في كتابه، حتى بلغ مبلغاً من العلم وهو دون الحلم.

ومن طريف ما حدّث به عن نفسه أنه قرأ تلك الفترة أنه "يجب الغسل من إيلاج الحشفة"، فلم يدر ما معناها، فاعتقد أنه قرقرة البطن، فكان يغتسل كلما قرقر بطنه!

إلى أن بلغ التاسعة عشرة، فقدم به أبوه إلى دمشق.

* * *

وكان في دمشق (كما كان في أكثر البلاد الإسلامية) مدارسُ لطلبة العلم، يجد فيها الطالب طعامه وشرابه وغرفة ينام فيها ومدرّسين يقرأ عليهم. وكانت تلك المدارس في المساجد أو إلى جوارها، يتلقى فيها الطالب العلم والعمل ويكون على صلة بالله، فيُخلص النية في طلب العلم له ويقصد به وجهه، لا يقصد به الشهادات ولا الرواتب ولا الدنيا، فيكرمه الله بذلك فيعطيه عزّ الدنيا والآخرة.

ومَن يرى اليوم هذه المدارس القديمة المنثورة في أزقّة دمشق وطرقها (التي اختلس الناس جُلّها وأجَلّها) يعجب من

كثرتها، ويظن أنها كانت مفتَّحة الأبواب لكل عالم أو متعلم، تُعقَد فيها الحلقات كما تعقد في المساجد، فمَن شاء من العلماء جلس للإقراء حيث شاء، ومن أراد من الطلاب دخل في أي حلقة أراد، لا يدري أنها كانت درجات كدرجات المدارس اليوم، فمنها ما هو كالابتدائية ومنها ما هو كالثانوية ومنها ما هو كالجامعة، وكان منها مدارس اختصاص مثل الكليات، مدارس للاختصاص في القرآن وعلومه ومدارس للحديث، ومدارس للفقه الحنفي والفقه الشافعي والفقه الحنبلي، ومنها ما كان فيها فروعٌ لذلك كله كالمدرسة العُمَرية في الصالحية التي لم يبقَ منها إلّا أنقاض.

وكان من المدرّسين من هو كالمحاضر اليوم، ومنهم المدرس الثابت الأصيل، ومن كان معيَّناً في مدرسة ويحاضر في أخرى. ومن قرأ كتاب «الدارس في المدارس»[1] عرف ما هذه المدارس وما شأنها.

* * *

وكانت دار الحديث (وهي المدرسة العالية في مادة الحديث) قد افتُتحت رسمياً يوم النصف من شعبان سنة ٦٣٠، قبل ولادة النووي بسنة، وكان أول مدرّس فيها الشيخ الأجل تقي الدين ابن الصلاح، صاحب التصانيف المشهورة، وكان من تلاميذه فيها ابن رُزَين وابن خَلِّكان والكمال سلامة والكمال

(١) «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي، أصدره المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٨ (مجاهد).

إسحاق وعبد الرحمن بن نوح المقدسي وأبو شامة. فكان هؤلاء هم أساتذةَ النووي في دمشق.

واجتمع النووي أولَ ما قدم دمشق بالشيخ جمال الدين بن عبد الكافي خطيب الجامع الأموي وإمامه، فعرّفه مقصده، فأخذه وتوجه به إلى حلقة الشيخ تاج الدين الفزاري المعروف بابن الفركاح، فقرأ عليه دروساً ولازمه أياماً. ولم يكن له موضع يأوي إليه، ولم يكن بيد تاج الدين من المدارس سوى الصارمية، ولا بيوت لها (أي ليس فيها غرف) فدلّه على الشيخ الكمال إسحاق المغربي بالمدرسة الرواحية[1]، وهو من تلاميذ ابن الصلاح الذين تخرجوا عليه في دار الحديث، فأعجب به لِمَا رأى من دأبه على القراءة وجِدّه وانصرافه إلى العلم والعبادة وعدم اختلاطه بالناس، وأحبه محبة شديدة، وجعله معيد الدرس بحلقته لأكثر الجماعة، وأعطاه غرفة صغيرة في الرواحية، فبقي فيها إلى أن مات.

وأمضى في المدرسة الرواحية سنتين لمّا قدمها، لم يضطجع فيهما أبداً، بل كان يقرأ ليلاً ونهاراً، لا يقوم إلّا إلى الوضوء أو الصلاة. وكان إذا غلبه النعاس أسند رأسه إلى الكتب، وكانت ركاماً حوله، فأغفى ساعة ثم قام. وكان يعيش على جراية المدرسة، وكانت قليلة، ولكنه كان يكتفي بها، وربما تصدق منها.

---

(١) وكانت لصق الجامع الأموي من جهة باب جيرون (باب النوفرة).
والكمال هو إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي ثم المقدسي، الإمام المتفَق على علمه وزهده وورعه.

فلما كانت سنة ٦٥١ حَجّ مع أبيه. وارتحلوا في رجب، فاستطاع بذلك أن يقيم في المدينة المنوَّرة نحواً من شهر ونصف شهر. وكانت الوقفة في تلك السنة يوم الجمعة. ولزمت الشيخَ الحمّى من ساعة خروجه مع أبيه من نَوَى إلى أن رجع، وهو صابر محتسب، ما تأوّه ولا شكا.

وفتح الله عليه بهذه الحجة ونَوّرَ قلبه، ولحقته فيها يقظة روحية عجيبة، فلما رجع إلى دمشق صبّ الله عليه العلم صباً، ولاحت عليه أمارات النجابة والنبوغ.

* * *

وقد حفظ لنا المؤرخون وصفاً صادقاً لما كان يقرأ من الكتب، نجد فيه اليومَ صورةً كاملة لأسلوب التعليم في تلك الأيام والكتب التي كانوا يدرسونها. ذلك أنه كان يقرأ كل يوم اثنَي عشر درساً: درسَين في كتاب «الوسيط»(١)، وثالثاً في كتاب «المهذَّب»(٢)، ودرساً في كتاب «الجمع بين الصحيحين»(٣)،

---

(١) في الفقه الشافعي، للغزالي، مطبوع، وهو مختصر «البسيط» الذي ما زال ينتظر التحقيق والطباعة (مجاهد).

(٢) للشيرازي، وهو الذي شرحه النووي في كتابه العظيم، «المجموع»، ولم يتمّه (مجاهد).

(٣) ألّفَ في «الجمع بين الصحيحين» عددٌ من المتقدمين والمتأخرين، المشهورون الذين سبقوا زمانَ النووي منهم ثلاثة: الجَوْزَقي والحُمَيدي والإشبيلي. ويغلب على ظني أن المقصود هنا هو الأخير، لأن النووي نقل عنه في شرحه على صحيح مسلم (مجاهد).

ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في كتاب «اللُمَع» لابن جِنّي في النحو، ودرساً في كتاب «إصلاح المنطق» لابن السِّكّيت في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، تارة في «اللمع» لأبي إسحاق وتارة في «المنتخب» للفخر الرازي، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين.

وكانت طريقة الدرس أنّ الطالب كان يراجع الباب قبل الدرس، ثم يتلوه المعيد في الحلقة، ثم يشرحه الشيخ، ثم يجيب



عن الأسئلة الواردة عليه، ثم تكون المناقشة فيه. وهي الطريقة التي لا تزال متَّبَعة في كثير من جامعات أوربا إلى اليوم، وهي خيرُ الطرق لتحصيل العلم. قال الشيخ النووي: وكنت أكتب جميع ما يتعلق بذلك من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي وأعانني عليه.

* * *

وفكر في دراسة الطب ثم عدل عنه. قال: خطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشتريت «القانون» لابن سينا وأخذت أنظر فيه، فأظلم قلبي وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت

في أمري: من أين دخل عليّ الداخل؟ فألهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه، فبعت في الحال الكتاب المذكور وأخرجت من بيتي ما يتعلق بعلم الطب، فاستنار قلبي ورجع حالي[1]، وعدت لما كنت عليه أولاً.[2]

* * *

وكان من المألوف في ذلك العصر أن طالب العلم كما يختار لنفسه من يقرأ عليه العلم يختار كذلك من يوجهه التوجيه الروحي، أي يسلكه «الطريق» إلى معرفة الله. وكان شيخ النووي في الطريق هو الشيخ المراكشي الذي كان بشّره بالنبوغ وهو صغير في الدكان، وكان النووي يزوره ويستشيره في أموره ويرجو بركته.

وكان أول شيوخه الكمال إسحق المغربي، ثم قرأ على غيره من تلاميذ ابن الصلاح وعلى أقرانهم. منهم عبد الرحمن بن نوح المقدسي[3]، وقرأ الحديث على المحدّث الضياء بن تمام

---

(١) الحال والداخل (وهو الخاطر المشوش) من اصطلاحات الصوفية.

(٢) وددت لو أن جدي علّق على هذه الحادثة (إن صَحَّت) بما يقتضيه المقام، فإنّ دراسة علوم الأبدان والأكوان لا يمكن أن تتسبب في ظلمة القلب. ثم إن الناس يحتاجون إلى مَن يصلح معاشهم ويعالج أمراضهم، ولكل علم أهله وكلٌّ ميسَّر لما خُلق له. ولعل الله أراد بالنووي والأمة خيراً فصرفه عن الطب لحالة خاصة، ليكون ذلك العالمَ الكبير الذي كانَه ويترك لنا العلم الوفير الذي تركه (مجاهد).

(٣) الذي كان يدعى «مفتي الشام»، وهو لقبُ علم لا لقب منصب، فلم يكن هذا المنصب معروفاً. وهو أبو محمد عبدٌ الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي ثم الدمشقي.

الحنفي، و«اللمع» لابن جني قرأه على الفخر المالكي، و«إصلاح المنطق» لابن السكّيت قرأه على الشيخ أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي، وقرأ عليه بعده كتاب سيبويه. وقرأ «المنتخب» للفخر الرازي وقطعة من «المستصفى» للغزالي على القاضي ابن الفتح عمر بن بندار. ثم سمع الحديث من جماعة كثيرين، منهم الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر بن أحمد بن قدامة المقدسي، وهو أجلّ شيوخه، ومنهم القاضي عبد الكريم بن عبد الصمد الحرستاني خطيب دمشق.

* * *

أما الكتب التي سمعها في الحديث ودرسها مع هؤلاء المشايخ فهي الكتب الستة والموطأ لمالك، ومسند أحمد ومسند الشافعي والدارمي وأبي يعلى، وصحيح أبي عوانة والسنن للدارقطني وللبيهقي والبغوي. وكان اشتغاله بالحديث متأخراً، ولو اشتغل به أولَ قدومه دمشق لَلَحِق -كما قال الذهبي- طبقة أعلى من الطبقة التي سمع منها، كمكي بن علان والرشيد بن مسلمة.

ومما قرأه من الكتب قراءة ضبط وتحقيق على المشايخ (لا قراءة مرور ونظر): تفسير البغوي، و«عمل اليوم والليلة» لابن السني، و«الجامع لآداب الراوي والسامع» للخطيب، و«الرسالة القشيرية» في التصوف، و«الأنساب» للزبير بن بكار.

وأنا أعدّ هذه الكتب وأسمي هؤلاء المشايخ لتكون من ذلك صورة كاملة لأسلوب هذه الدراسة في تلك الأيام، ولنشأة الشيخ

النووي ودراسته. وهذه الكتب كلها كتب معروفة لا تحتاج إلى تعريف بها، وأكثر هؤلاء المشايخ مشهورة أسماؤهم، ومن كان من القراء لم يسمع بهم فإنه يستطيع -إذا أحب الاطلاع ورغب في البحث- أن يجد الكلام عنهم في مثل «طبقات» السبكي أو «الخلاصة» للخزرجي أو «الأعلام» للزركلي. ولو قرأ «الدارس في المدارس» لكان أجدى عليه.

وقد استطاع أن يقرأ هذه المجموعة الضخمة من الكتب في هذا الأمد القصير من الزمن لأنه لم يكن يضيع دقيقة من ليل ولا نهار إلا في الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه وإيابه يكرر في ذهنه ما حفظ، أو يفكر بعقله في حل مشكلة أو توضيح مسألة، وكان -مع ذلك- كثير الذكر كثير التلاوة للقرآن.

* * *

ثم اشتغل بالتصنيف وأخرج هذه المصنَّفات الكبار التي بقيت إلى اليوم، وستبقى -إن شاء الله- إلى يوم القيامة ينبوعَ علم ومددَ هدى وحسنةً مكررة لمؤلفها.

من أجلّها وأعظمها كتاباه: «شرح صحيح مسلم»، وهو كتاب جليل جداً، ليس في شروح الحديث (بعد شرح البخاري لابن حجر) ما هو أكثر منه فوائد وأجزل نفعاً، وهو مطبوع معروف. و«المجموع» شرح المهذب للإمام العظيم أبي إسحاق الشيرازي، وهو من أوسع المراجع الفقهية، وقد طُبع القسم الذي وجد منه.

و«رياض الصالحين» و«الأذكار»، وهما مطبوعان يغني العلم

بهما عن وصفهما. و«تهذيب الأسماء واللغات»، وهو مطبوع. و«الأربعين النووية»، وقد لقي من العناية والانتشار والإقبال على شرحه وخدمته ما لم يلقَ مثلَه إلا الأقلُّ من الكتب.

وله كتب أخرى كثيرة، منها: «مختصر أسد الغابة»، و«بستان العارفين» في الزهد والتصوف، و«مناقب الشافعي»، اختصر فيه كتاب البيهقي، وله «المنهاج» في الفقه الشافعي، وهو كتاب عظيم النفع.

* * *

ومؤلفاته تبلغ الخمسين كتاباً، عدّ أكثرَها السخاوي في الجزء الذي أفرده لترجمته[1]، ومنها كتب شرع بها ولم يتمّها. وقد أعطى أحد تلاميذه مرة (وهو ابن الملقن) نحو ألف كرّاس بخطه وأمره بإبادتها، فلم يسعه أن يخالف أمره وأبادها وفي نفسه حسرات.

بدأ بتأليف هذه الكتب وسِنُّه نحو الثلاثين، وتوفي ولم يجاوز الخامسة والأربعين، فكان تأليفها في نحو خمس عشرة سنة فقط! وانتشرت في الأقطار وعَمَّ النفع بها في حياته وبعد مماته، فكتابه «المنهاج» مثلاً لا يحصى عدد مَن حفظه، لحسن اختصاره وعذوبة ألفاظه، وأكثرَ العلماءُ والناظمون القولَ في مدحه على ذلك حتى سارت أقوالهم فيه مسير الأمثال. وقال

(١) الكتاب المقصود هو «المنهل العذب الروي»، وقد استفاد السخاوي فيه ممّا كتبه عن النووي تلميذُه ابن العطار (مجاهد).

التاج السبكي في أول القطعة التي شرحها منه: "هذا الكتاب في هذا الوقت هو عمدة الطلبة وكثير من الفقهاء في معرفة المذهب". قلت: ولا يزال كذلك إلى أيامنا هذه.

وقد اشتغل به شرحاً أو تعليقاً أو نظماً أكثرُ من أربعين من فقهاء الشافعية، عدّهم السخاوي، ومن هذه الشروح ما هو موجود معروف ومنها ما ضاع، ومما ضاع شرح كبير في عشر مجلدات لأبي الفداء إسماعيل بن خليفة، فيه -كما قالوا- نقول نفيسة وأبحاث كثيرة، ولم يكن ولده يمكّن أحداً من نسخه ففُقِد.

* * *

أما شرح المهذب فهو أعظم ما كتب النووي في الفقه، لم يصنَّف في مذهب الشافعية على مثل أسلوبه. قال الأسنوي وابن الملقن: ليته أكمله ونقصت كتبه كلها. وقال ابن كثير في تاريخه: إنه لو كمل لم يكن له نظير في بابه، لأنه أبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاء، وحرر الفقه في المذهب وغيره، وحقق الحديث على ما ينبغي، وبحث في اللغة، ولا أعرف في كتب الفقه (يريد الفقه الشافعي) أحسن منه، على أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة تُزاد عليه وتُضاف إليه.

وقال في «طبقات الشافعية»: سلك فيه طريقاً وسطاً سهلاً جامعاً لأشتات الفضائل وعيون المسائل، ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ وبيان صحة الحديث من سقمه. وبالجملة فهو كتاب ما رأيت أحداً نسج على منواله من المتقدمين ولا حذا على مثاله مصنِّف من المتأخرين. وقال

العثماني (قاضي صفد): إنه لا نظير له ولم يصنَّف مثله، ولكن ما أكمله ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذ لو أكمله ما احتيج إلى غيره (أي في فقه الشافعية) وبه عُرف قدره واشتهر فضله.

حاول التقي السبكي تكملته، وقال في أول التكملة: وقد طالت الرغبة إلى تكملة شرح المهذب وكثر الإلحاح عليّ، وأنا أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى وأقول: قد يكون تعرضي لذلك -مع قصوري عن مقام هذا الشارح- إساءة إليه وجناية مني عليه. وكيف أنهض بما نهض به وقد أُسعف بالتأييد، وساعدته المقادير فقرّبت منه كل بعيد؟ وإن ذلك يحتاج -بعد الأهلية- إلى ثلاثة أشياء. أحدها: فراغ البال واتساع الزمان، وكان رحمه الله قد أوتي من ذلك الحظ الأوفى، بحيث لم يكن له شاغل عن ذلك من تعيّش ولا أهل. والثاني: جمع الكتب التي يُستعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء. وكان رحمه الله قد حصل له من ذلك حظ وافر لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت. والثالث: حسن النية وكثرة الورع والزهد والأعمال الصالحة، وكان رحمه الله قد اكتال من ذلك بالمكيال الأوفى. فمَن تكون اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث؟ وأنَّى يضاهيه أو يدانيه مَن ليست فيه واحدة منها؟ إلى أن قال: وقد استخرت الله تعالى وقلت في نفسي: لعله ببركة صاحبه ونيّته يعينني الله تعالى عليه.

قال السخاوي: ولم يتهيأ إكماله لأحد ممن انتدب لذلك من العلماء، لا إسماعيل الحسباني ولا التاج السبكي ولا الشهاب ولا ابن النقيب ولا السراج البلقيني (وقد سمى ما كتب «الينبوع في تكملة المجموع» وكتب منه مجلداً من النكاح) ولا الزين العراقي

ولا ولده. وعدّ ذلك من كرامات مؤلفه.(١)

أما كتابه «الروضة» فقد صار -كما قال الأذرعي- عمدة أتباع المذهب الشافعي في هذه الأمصار وكتابه المطول، يلجأ إليه المفتي في فتاواه والقاضي في أحكامه، وقد استمده -كما قال السخاوي- من كتاب الإمام الرافعي، واعتمد على نسخة البادرائي التي بخزانة مدرسته «البادرائية» بدمشق، وهي نسخة سقيمة، فجاء في مواضع منها خلل. وقد عُني بالروضة جماعة من العلماء واشتغلوا بها اختصاراً وتعليقاً، ولقد عزم النووي قبل وفاته على غسلها (أي محوها) كما غسل غيرها، فقيل له: قد سارت بها الركبان. فقال: في نفسي منها أشياء. وكان يريد مراجعتها وتحريرها فلم يتسع له العمر.

وأما شرح مسلم فهو كتاب جليل، لا أعرف في الشروح

---

(١) طُبع «المجموع» في عصرنا في ثلاثة وعشرين مجلداً، التسعة الأولى هي التي كتبها النووي بنفسه، والثلاثة بعدها من تتمة السبكي المذكورة، وهي دون كتابة النووي من حيث المضمون والأسلوب، والبقية صنعها محمد نجيب المطيعي، وهي دون القسمين الأوَّلين في أصالة المادة وعلوّ البيان.
والظاهر أن ما طُبع من تكملة السبكي ناقص غير تام، فقد ذكر ولده التاج في «طبقات الشافعية» أن التكملة تمتد من باب الربا إلى باب التفليس في خمس مجلدات، والجزء المطبوع منها ينتهي بباب الرد بالعيب. وهذا يعني أن نحو نصف تكلمة السبكي ما تزال مفقودة، وهي تمتد من باب بيع المرابحة في كتاب البيوع إلى باب التفليس في كتاب الرهن (مجاهد).



أجَلّ منه إلا شرح ابن حجر على البخاري. قال ابن كثير أنه جمع فيه شروح مَن سبقه من المغاربة وغيرهم. وقد اختصره وتعقّبه في مواضع محمد بن يوسف القونوي الحنفي وابن عبد الهادي. قال السخاوي: وقد استدرك شيخنا (يعني ابن حجر العسقلاني) على الشيخ مواضع كان غرضه إفرادها بالتأليف فما اتفق له، وكان شديد الأدب معه حتى سمعته مراراً يقول: لا أعرف نظيره.

* * *

في رمضان من سنة ٦٦٥ توفي الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي شيخ دار الحديث[١]، وقد تطلع كبار علماء دمشق إلى هذا المنصب الذي كان أجلَّ مناصب التدريس فيها، وكان بمثابة مشيخة الإسلام، وكان النووي شاباً لا تتجاوز

(١) المعروف بأبي شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر. وهو المقرئ النحوي المؤرخ صاحب كتاب «الروضتين في تاريخ الدولتين» المشهور، وهو ثالث شيخ ولي دار الحديث.

سنه أربعاً وثلاثين سنة، وكان كثيرٌ من مشايخه لا يزالون أحياء، ولكنه صار المرجع في الحديث وفي علم الرجال وفي التصريف والعربية، أما الفقه الشافعي فقد كان فيه (كما قال السبكي في الطبقات): "شيخ الإسلام، بركة الطائفة الشافعية، محيي المذهب ومنقّحه، ومن استقر العمل بين الفقهاء على ما يرجّحه، وتصانيفه هي العمدة فيه".

فولَّوه مشيختها، وقَبِلَ بعد تردد وتمنّع، فأعاد إليها أيام ابن الصلاح، وأفاد فيها الطلبة فوائد عظيمة، وصارت به محجّةَ القاصدين، وكان مما قرأه فيها للطلاب الصحيحان سماعاً وبحثاً، وسنن أبي داود، والرسالة القشيرية، وشرح معاني الآثار للطحاوي (الحنفي).

ولم يكن يكتفي بتلقين تلاميذه العلم، بل كان يأخذهم بحسن السلوك مع الله ومع الناس. قال تلميذه السخاوي: "وكنت مدّةَ صحبتي له مقتصراً عليه دون غيره، من أول سنة سبعين (أي ٦٧٠) وقبلها بيسير، إلى حين وفاته. وقرأت عليه الفقه



تصحيحاً وعرضاً وشرحاً وضبطاً، خاصاً وعاماً، وقرأت عليه تصانيفه ضبطاً وإتقاناً، وأذن لي في إصلاح ما يقع من تصانيفه، فأصلحت بحضرته أشياء أقرّني عليها، وكتب بخطه. وكان رفيقاً بي شفيقاً عليّ، مع مراقبته لي في حركاتي وسكناتي، ولطفه بي في كل ذلك، وتواضعه معي في جميع الحالات، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات".

وأخذ عنه وتخرج به جماعات يطول ذكرهم وتعداد أسمائهم.

* * *

وبعد، أفرأيتم هذا كله؟ هذا الجِدّ في الطلب وهذه السعة في العلم وهذه العبقرية في التأليف؟ إن له بعدها شيئاً، إنْ لم يكن أعظمَ منها كلها فليس بدونها، هو أخلاقه وسيرته.



مئذنة مسجد دار الحديث الأشرفية
كما تبدو من سوق العصرونية

وإن في تاريخنا وتواريخ الأمم كثيراً من العلماء الأجلاء ومن المصنّفين المُكثرين المجوّدين، ولكن ليس في تاريخنا إلا القليل ممن يماثله في هذه السيرة وهذه الأخلاق. أما تاريخ غيرنا فما فيه مثله على الإطلاق.

إنْ أهمَّت الناسَ شهوةُ البطن أو شهوة الفرج أو شهوة المال أو شهوة الجاه، فإن النووي قد فرغ من أثر هذه الشهوات جميعاً ولم يكن لها في قلبه مكان.

أما الطعام، فكان قد ترك جميع ما في الدنيا منه واقتصر على ما كان يرسله إليه أبوه من حوران، من الخبز الذي كان يخبزه له وينشّفه، فيبقى عنده جمعة أو عشرة أيام، يبلّه ويأكل منه، والتين الحوراني، وربما أكل مع الخبز الدبس أو الزيت، ولا يأكل اللحم إلا في نوى عندما يزور والديه فيها. وكان يأكل أكلة واحدة بعد العشاء ويشرب في السحر.

ولم يكن يأكل من فواكه دمشق، ولقد سُئل عن سبب ذلك فقال: إن دمشق كثيرة الأوقاف وفيها الأملاك الكثيرة لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في الوقف وفي ملك الصغير والمحجور عليه إلا على وجه المصلحة للوقف والصغير والمحجور عليه، والناس لا يفعلون ذلك، فلا تطيب نفسي بالأكل منها.

وجاء أخوه مرة من نوى فلم يستطع أن يأكل من طعامه، فقام إلى السوق وأحضر شواء وحلوى وقال له: كُلْ. فلم يأكل، فقال له: يا أخي أهذا حرام؟ قال: لا، ولكنه طعام الجبابرة. وكان

يخشى أن يكثر من الطعام فيغلبه النوم فيضيع به وقته، ولقد قشّر له رجل خيارة وقدمها إليه، فامتنع عن أكلها وقال: أخشى أن ترطب جسمي وتجلب لي النوم.

أما لباسه فكان -كما قال الذهبي- مثل آحاد الفقهاء من الحوارنة، لا يؤبَه له، وهو ثوب خام وشيء كالجبّة الضيقة.

أما شهوة الفرج فقد تخلص منها، فلم يتزوج ولم ينظر إلى امرأة[1]، وكان يحصر نفسه وسط سور من كتب العلم ومجالسه وخلوات الذكر والعبادة، وكانت حياته جِدّاً خالصاً، فلا تسلية ولا ضحك ولا لهو، ولا يضيع منها لحظة في شيء من ذلك.

* * *

قال السخاوي: وذكر لي العلامة رشيد الدين إسماعيل ابن المعلم الحنفي قال: عذلته في تضييق عيشه في أكله ولباسه وجميع أحواله، وقلت له: أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء

---

(١) وإذا كان قد ترك الزواج -على صلاحه وفضله- فليس ترك الزواج فضيلة يُقتدَى به فيها ولا هو من مطالب الشرع. ولعل له عذراً خفياً أو مانعاً منه لم يعلنه، فلا يحتجّ به أحدٌ من الشباب في ترك الزواج، فإن الزواج من سنن الإسلام، ولَفَتحُ بيت مسلم وتنشئة أولاد صالحين والكدّ في الدنيا للإنفاق عليهم من الحلال أفضل في نظر الإسلام قطعاً من الانقطاع للعبادة والعلم، فلا رهبانية في الإسلام. ولو انقطع الرجال جميعاً للصلاة والذكر لما بقيت في الدنيا بقية من أمة محمد ﷺ. لا، ولكن نسلك مسلك الرسول وصحابته، ونقتدي بهم ونتبع سبيلهم.

أفضل مما تقصده. فقال لي: إن فلاناً عَبَدَ الله حتى اخضرَّ عظمه. قال: فعلمت أنه ليس له غرض من المقام في دارنا ولا الالتفات لما نحن فيه.

أما المال فإن النووي قد نفض يده منه أصلاً. وماذا يصنع بالمال من كان كل مطلبه من دنياه مسكناً يُكنّه وثوباً يستره، وشيئاً يمسك به صلبه؟

ولقد كان لدار الحديث الأشرفية راتب كبير، جامكية[1] واسعة، فما أخذ منها فلساً، بل كان يجمعها عند ناظر المدرسة، وكلما صار له حق سنة اشترى به مِلْكاً ووقَفه على دار الحديث، فإن لم يكفِ لذلك اشترى به كتباً فوقفها على خزانة المدرسة، ولم يأخذ من غيرها شيئاً.

وكان لا يقبل من أحد هدية ولا عَطيّة، إلا إن كانت به حاجة إلى شيء وجاءه ممّن تحقق دينه ولم تكن له به صلة إقراء أو انتفاع، قصداً للخروج من حديث إهداء القوس[2]. وكان لا يقبل إلا من والديه وأقاربه، فكانت أمه ترسل إليه القميص ونحوه ليلبسه، وكان أبوه يرسل إليه ما يأكله، وكان ينام في غرفته التي

---

(١) في معجم لغة الفقهاء أن الجامُكية (بضم الميم، وهو لفظ فارسي معرَّب) هي الراتب الشهري الذي يحصل عليه أصحاب الوظائف من الأوقاف (مجاهد).

(٢) الذي أخرجه البيهقي في سننه، وهو أن أُبيّ بن كعب علّم رجلاً القرآن فأهدى إليه قوساً، فقال له النبي ﷺ: إن أخذتها فخذ بها قوساً من النار. وقد تكلموا في هذا الحديث.

سكن فيها يوم نزل دمشق في المدرسة الرواحية، ولم يكن يبتغي وراء ذلك شيئاً.

فكان زاهداً حقيقة، لا يتظاهر بالزهد في الدنيا ليأكل بالزهد الدنيا، ولا يُعرض عنها ونفسه متعلقة بها، بل كان إعراضه عنها بقلبه أكثرَ من إعراضه عنها بجوارحه.

* * *

ولكن لا تظنوا أنه كان كالرهبان في الأديار والدراويش في الزوايا، قد اعتزل دنياه فلا يدري ماذا فيها وانقطع عن الناس فلا يعرف ما هم عليه. لا، بل كان المرجع في كل مُلِمّة تُلِمّ بالبلد، وكان مَفزعُ الناس في الخطوب إليه، واعتمادُهم بعد الله في الملمات عليه، وكان سفيرَهم إلى الملوك والسلاطين.

ولم يكن يلين للسلاطين ويتذلل لهم حتى لا يبالوا به، ولم يكن يغلظ عليهم ويشتد معهم حتى ينفروا منه، بل كان يعرف كيف يخاطبهم، فيمدحهم بما هو فيهم من فضيلة، وينكر عليهم ما هم فيه من مخالفة، ومن نظر في كتبه إليهم لم ينتهِ إعجابه بها.

وكان أعظم مزاياه أنه لا يسكت عن قولة الحق أبداً ولا يراعي في ذلك أحداً. ولما أفتى شيخه، ابن الفركاح، في قضية الجواري بما رآه غيرَ الحق لم يمنعه أنه شيخه من الكتابة في الرد عليه[١]، مع أنه بلغ الغاية في تعظيم شيوخه وخدمتهم، حتى إنه

(١) وتفصيل الخبر في رسالة السخاوي التي اعتمدت عليها، ولم أعرض للتفصيل فيها لأنها مسألة علمية دقيقة لا يهتم بها أكثر القراء.

حمل الإبريق بنفسه لأبي حفص الربعي إلى بيت الخلاء!

ولم يكن يبالي في الحق لا ملكاً ولا سلطاناً، وهاكم طرفاً من أخباره في هذا الباب.

* * *

لما ورد دمشقَ من مصر السلطانُ المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال (وزير المالية) أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة، فأمر الملك بالحوطة عليها، أي بحجزها وتكليف واضعي اليد على شيء منها إثباتَ ملكيته وإبراز وثائقه، فلجاؤوا إلى الشيخ في دار الحديث، فكتب إلى الملك هذا الكتاب:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وذكِّرْ فإنّ الذكرى تَنفعُ المؤمنين﴾، وقال تعالى: ﴿وإذْ أخَذَ الله ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لَتُبيِّنُنَّهُ للناسِ ولا تكتمونه﴾، وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعدوان﴾. وقد أوجب الله على المكلَّفين نصيحة السلطان -أعزَّ الله أنصاره- ونصيحة عامة المسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة، لله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم». ومِن نصيحة السلطان -وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته- أن ينهي إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام.

وقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم. قال الله تعالى: ﴿واخفِضْ جَناحَك

للمؤمنين﴾. وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «إنما تُنصَرون وتُرزَقون بضعفائكم». وقال رسول الله ﷺ: «مَن كشف عن مسلم كُربةً من كُرَب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». وقال «ص»: اللهمّ مَن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شَقَّ عليهم فاشقق عليه». وقال ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته». وقال ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا».

وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان أعز الله أنصاره، فقد أقامه لنصرة الدين والذبّ عن المسلمين، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات الشهيرة في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومهّد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين وزيادتها في خير وعافية، آمين.

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين، فقال تعالى: ﴿لئِنْ شكرتُم لأزيدَنَّكم﴾. وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل مَن في يده شيء فهو ملكه، فلا يحل الاعتراض عليه ولا يكلَّف بإثباته. وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوّابه به، فهو أَولى من عمل به،

والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم.

فأطلِقْهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضَعَفة، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والصالحون، وبهم تُنصَر وتغاث وترزق، وهم سكان الشام المبارك، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم وسكان ديارهم، فلهم حرمات من جهات. ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتدّ حزنه عليهم وأطلقهم في الحال ولم يؤخرهم، ولكنْ لا تُنهَى إليه الأمور على وجهها.

فيالله! أغث المسلمين يغثك الله، وارفق بهم يرفق بك الله، وعجل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء[1] وقد نُهبت كتبهم، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ويظهره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: ﴿إنْ تَنصروا الله يَنصُرْكم﴾. وتتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارَك له في جميع ما يقصده من الخيرات. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن سَنَّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

فنسأل الله الكريم أن يُوفق السلطان للسنن الحسنة التي يُذكَر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة، فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله

---

(١) أي أسناد تمليك.

فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، والحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه".

فغضب السلطان من هذه الجرأة عليه، وخشي إذا لانَ له أن يعيد معه في الشام سيرةَ العزّ بن عبد السلام في مصر، فأجابه بالرد الشديد وأراد أن يعجل عليه العقوبة، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه، فقالوا له: إنه ليس للشيخ راتب وليس له منصب!

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يُفِدْ وأنّ هذا اللين منه لم يأتِ بنفع مشى إليه بنفسه وقابله وكلمه كلاماً غليظاً، وأراد السلطان البطش به، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه، وأبطل الأمر بالحوطة وخلّص الله الناس من شرها.

* * *

وهذه قصته العجيبة مع الاستسقاء.

انقطع المطر في الشام على أيام الشيخ النووي، وتوالت السنون حتى أجدبت الأرض وصارت سهولها صحارى، وجف الضرع وهلكت المواشي، وشَحَّت الينابيع ونشفت العيون، وكان الماء تحت وجه الأرض يَحفر الحافر ذراعين فيصل إليه، فصار يحفر في الأرض عشرين ذراعاً فلا يجد ماء! وهجر أهلُ القرى قراهم وأَمُّوا دمشق لعلهم يجدون فيها ماء، وغدا بردى كأنه ساقية من السواقي، الماء الذي يجري فيه لا يكاد يبلّ أرضه، بعد أن كان يهدر صَخّاباً يُترع المجرى ويضرب الضفتين.

وغلت الأسعار وضجّت العامة، ولجؤوا إلى الشيخ النووي

في دار الحديث. وكانت دار الحديث -كما قدمنا- كالجامعة اليوم، وكان أستاذها الأكبر النووي، ولكنها كانت جامعةً الناسُ كلهم تلاميذُ فيها منقادون إلى مدرّسيها، لأنهم علماء الدين ولأنهم ورثة الأنبياء، وكان النووي أستاذَ البلد كله، لا أستاذ طلاب الجامعة وحدهم.

ودعا النووي علماء دمشق، كما يدعو الرئيس البرلمان إذا دهم الخطر أو تجلت المشكلة. وكان العلماء هم أهل الحل والعقد، وهم كانوا مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم.

وبحث العلماء وتذاكروا: ماذا يصنعون ليستنزلوا الغيث ويستمطروا المطر؟ فلم يجدوا لتلك العلة إلا دواء واحداً، أنزله الذي ينزل المطر وخبّر به عباده على لسان نبي من أنبيائه حين قال: ﴿فقلتُ استغفِروا ربَّكم إنه كان غَفّاراً، يُرسِلِ السماءَ عليكم مِدْراراً، ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنينَ ويجعلْ لكم جنّاتٍ ويجعلْ لكم أنهاراً﴾.

كل ذلك بالاستغفار، فبالاستغفار تهطل الأمطار وبالاستغفار تجري الأنهار، ولكن الاستغفار لا يكون باللسان وحده، بل يكون بالإقلاع عن الذنوب والعزم على عدم العودة إليها.

وكانت في الشام في تلك الأيام -كما يروي المؤرخون- منكرات معلنة ومعاصٍ ظاهرة، فلا بد من إزالتها قبل إحياء سنّة الاستسقاء، ولا يقدر على إزالتها إلا السلطان. وكان السلطان -كما عرفتم- هو الملك الظاهر، الرجل العظيم والقائد المظفر الذي طهر البلاد من الأعداء الثلاثة الكبار: المغول والصليبيين

والبيزنطيين، وأنقذها من الاستعمار، وأعاد الوحدة بين مصر والشام. وكان مظفراً في حروبه وكانت له المهابة في الدول، ولكنه لم يتفرغ للإصلاح الديني والخُلُقي في الداخل كما وُفِّق للظفر العسكري والسياسي في الخارج.

وخاف بعض العلماء من الكتابة إليه. وفي العلماء في كل زمان ومكان أهل ضعف وخَوَر، فتولى الشيخ النووي الأمر، وكتب إليه هذا الكتاب الفريد الذي جمع الفقه وبيان حكم الاستسقاء، إلى الصراحة والبيان، إلى الأدب والحكمة في خطاب السلطان.

تاريخ هذا الكتاب يوم الأحد ١١ جُمادى الأولى سنة ٦٦٨هـ، أي أنه قد مَرّ عليه الآن سبعمئة واثنتا عشرة سنة[١]، وهذا هو نصه:

خَدَمةُ الشرع العلماء بدمشق المحروسة يُنهون: أن الله سبحانه وتعالى أخذ عليهم العهد بتبليغ الشرع إلى المكلَّفين، ونصيحة الله تعالى وكتابه ورسوله ﷺ وولاة الأمر وعامة المسلمين. ونصيحةُ الله ورسوله امتثالُ أوامرهما، ومن نصيحة ولاة الأمر تبليغهم شرائع الأحكام وإرشادهم إلى شعائر الإسلام والإشارة عليهم بفعلها وإشاعتها ونشرها، ومَن قال إن هذا ينافي التوكل أو إنه اعتراض على الله تعالى فهو مخطئ جاهل، بل إنه كافر، لأن ما فعله رسول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كل

(١) أي يوم نشر هذه المقالة أول مرة سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠) (مجاهد).

مكلَّف الانقياد له والمسارعة إلى قبوله وانشراح الصدر له.

قال الله تعالى: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحَكِّموك فيما شَجَرَ بينهم، ثم لا يَجِدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسلمياً﴾. وقال تعالى: ﴿إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليَحكُمَ بينهم أن يقولوا سَمِعْنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون﴾. وكل ما خالف سُنّة رسول الله ﷺ فهو البدعة والضلالة والغباوة والجهالة والسفاهة والرذالة، بل هذه طريقة الكفار في مدافعة دين الإسلام: ﴿ويأبَى الله إلا أن يُتِمَّ نورَه ولو كَرِهَ الكافرون﴾.

ويجب على وليّ الأمر -وفّقه الله لطاعته- إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضالّ الغاشم المتجاهل، وغيره ممن يقول نحو هذا القول في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ أن يؤدبه تأديباً بليغاً ينزجر به هو وأمثاله، ويشهر أمره لينكفّ أهل الجهالة والضلالة عن مثل فعله.

وَلْيُعلمْ أن المراد بالاستسقاء امتثالُ أمر الله تعالى والاقتداء برسول الله ﷺ، وهو مصلحة فاخرة وسعادة معجَّلة ومِنَّة من الله تعالى يُشكَر على التوفيق لها، وأما نزول المطر فهو إلى الله تعالى. فليس المراد بالاستسقاء تيقّن نزول المطر، فإن علم الغيث وإنزال الغيث وغيره من الكائنات إلى رب العالمين، وقد أمرَنا الله تعالى بدعائه ووعدَنا بالإجابة، وهو لا يُخلف الميعاد، قال الله تعالى: ﴿ادعوني أستَجِبْ لكم﴾، وقال تعالى: ﴿ادعوا ربَّكم تَضَرُّعاً وخُفْيَة﴾، وقال تعالى: ﴿أمَّنْ يُجيب المُضطَرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوء﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإني

قريب، أجيب دعوة الداعِ إذا دَعَانِ، فَلْيستجيبوا لي ولْيُؤمنوا بي لعلهم يَرشُدون﴾.

وليعلم أنه ليس للاستقساء شروط تُعتبر في صحته سوى اجتماع الناس والصلاة، وهذا متيسر لا مانع منه. لكن قال العلماء: يُستحَبّ لوليّ الأمر أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء بالتوبة من المعاصي والصدقة وصيام ثلاثة أيام، ويخرجون في اليوم الرابع صياماً. وهذا أدب مُستحَبٌّ ليس بواجب ولا شرط، لو تُرك صَحَّ الاستسقاء، ومع هذا فهو هَيِّنٌ بحمد الله تعالى لا كلفة فيه، فإن معناه أن ولي الأمر يأمر بعض نوابه أن ينادي في الناس بذلك، وليس معناه أن يحكم على قلوبهم بفعله، فإن ذلك لا يقدر عليه إلّا رب العالمين. بل هو يأمرهم به، فمن وُفِّق له فهو نعمة من الله تعالى عليه، ومن حُرمه فلا يضرّ إلا نفسه، ويرجى للمسلمين الرحمة والخير بامتثال الموفَّقين.

وما يخلو هذا الأمر من مصالح كثيرة، من صلاة وصيام وصدقة وذكر وتوبة، وإقلاع عن المعاصي وإقبال على الطاعات، لا سيما وقد مَنّ الله تعالى (وله الحمد والنعمة على المسلمين) بما وفق له السلطان، زاده الله فضلاً وخيراً وتمكيناً وعلواً ونصراً، وأدامه ظاهراً على أعداء الدين وسائر المخالفين، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكرات، مبطلاً للحوادث مظهراً للمحاسن والخيرات، بما فعله من إزالة هذا المنكر العظيم الفاحش الجسيم[1] الذي لم يُسبَق إلى إزالته. ﴿ولَيَنصُرَنَّ الله مَن ينصره﴾.

---

(١) يريد قضية الحوطة التي مر ذكرها.

فهذه نصيحة الخَدَمة أنهَوها إلى الأمير، وهم راجون من فضل الله تعالى مسارعتَه إلى هذه المصلحة، وقد ضاق الوقت عن تأخيرها، وهذه المصلحة لا تحصل بفعل آحاد الناس بل باجتماع الناس كلهم، ومنهم العلماء والصالحون والصغار والضعفاء والمساكين والمضطرون. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟» والله يوفق الأمير لكل مكرمة، ويديمه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حاثاً على الاهتمام بشعائر الدين ومصالح المسلمين.

آمين، والحمد لله رب العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

لمّا وصلت الرسالة إلى السلطان وفّقَه الله فأمرَ محتسب البلد، فأغلق الحانات وأراق الخمور ومنع المنكرات وقمع أهلها، ونادى في الناس بصيام ثلاثة أيام أولها يوم الإثنين ١٢ جُمادى الأولى من تلك السنة، أي بعد كتابة رسالة النووي بيوم واحد. وأمر بالصدقة والمعروف وغير ذلك من آداب الاستسقاء، ثم خرج السلطان بنفسه يوم الخميس صباحاً إلى المصلى، وكان في أول الميدان بدمشق[١]، وخرج معه الناس في ثياب رثة، متذللين متواضعين خاشعين لله ناكسي رؤوسهم، وقد قدموا التوبة وردّوا المظالم وتصدقوا وصاموا الأيام الثلاثة قبل الخروج، فصلى بهم الشيخ النووي بأمر السلطان، ثم قام للخطبة، فوعظ وذكّر، وبكى

---

(١) ولا يزال اسم «باب المصلى» باقياً إلى اليوم.

واستبكى، فخشعت القلوب وذرفت العيون، وتوجه الناس إلى الله تعالى داعين مخلصين، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه تذللاً واقتداءً بالرسول ﷺ، ودعا ودعا معه الناس وأمّنوا على دعائه.

وخرج الناس في بلاد الشام كلها كما خرج أهل دمشق. ورجعوا بقلوب صافية ونفوس مؤمنة واثقين من الإجابة، فما مَرَّت سبعة أيام حتى أغيثت البلاد غيثاً عاماً، وترادفت الأمطار وأمرَعَت الأرض، واستبشر الناس بعد أن حصل القنوط لكثير منهم، وزادت الغلات حتى كان أخصبَ موسم رأته الشام من ثلاثين سنة.

* * *

كان النووي يوماً في المدرسة الرواحية، وهو في ذروة الشباب لم يجاوز الخامسة والأربعين، وكان يشتهي أن يسافر إلى بيت المقدس، فدخل عليه تلميذه السخاوي، فقال له النووي: قد رأيت في المنام أنه قد أُذن لي بالسفر، فقم بنا حتى نودع أصحابنا وأحبابنا.

قال السخاوي: فخرجت معه إلى المقبرة التي فيها بعض شيوخه، فزار ودعا وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء ورَدَّ الكتب المستعارة. وتوجه إلى نوى، فخرج معه جماعة من العلماء إلى ظاهر دمشق وسألوه: كم تطول الغيبة؟ ومتى يكون الاجتماع؟ قال: بعد زمن طويل.

ولما وصل إلى نوى مرض في بيت والده، فذهبتُ لزيارته فيها، فسُّر بذلك. ورأيته قد أشرف على العافية، ثم أمرني

بالرجوع إلى دمشق، فما مرت أيام حتى توفي في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء ١٤ رجب سنة ٦٧١.

ولما وصل الخبر بوفاته إلى دمشق ارتجَّت البلد وزُلزل الناس ولم يصدقوا الخبر، فلما تحققوه علموا أنهم فقدوا رجلاً لن يروا مثله أبداً. وزحفت دمشق إلى حوران، ومشى جِلّة أهلها يتقدمهم قاضي القضاة ابن الصائغ وجماعة العلماء، وتزاحم الشعراء على قبره يرثونه والخطباء يؤبنونه، وكان يومٌ[١] من الأيام التي لا تُنسى.

وأراد أقارب الشيخ أن يقيموا على قبره قُبّة، فرأته عمته في النوم وكأنه كاره لذلك، فأخبرتهم فلم يسمعوا منها وبَنَوا القبة، فسقطت، فرجعوا عن بنائها وحوّطوا على قبره حجارة وتركوه، فكان نصيرَ السنة ومنكر البدع في حياته وبعد مماته.

مضى شاباً، ولكنه خلّف من العلم النافع ما لم يخلف مثلَه كبارُ الشيوخ، وترك مع ذلك سيرة لا تزال قدوة لكل من أراد أن يخلص في العلم لله، ويَقنع من الدنيا بمثل زاد الراكب ويكون زاهداً حقاً، زهد العلماء العاملين والصالحين المصلحين، لا زهد الذين يتوارون وراء جدران التكايا أو في مغارات الجبال، لا ينفعون الناس بعلم يبثّونه ولا معروف يأمرون به ولا منكر ينكرونه.

---

(١) كان هنا تامة غير ناقصة، فهي تدل على حدث وزمن وليس على الزمن وحده كالناقصة، ومنه قوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة فنَظِرة إلى مَيسَرة﴾ (مجاهد).

ورأت دار الحديث أئمة كباراً[1]، وما أظنها رأت مثله.

رضي الله عنه وفسح له في جناته، ووفق ناشئتنا إلى الاقتداء بسيرته وسلوك طريقه.

* * *

(١) أولهم ابن الصلاح، ثم ابن الحرستاني، ثم أبو شامة، ثم النووي، ثم الفارقي، ثم ابن المرحل (وفي «الدارس» الذي نشره المجمع العلمي ابن مراجل، وهو غلط)، ثم ابن خطيب زملكا، ثم الشربشي، ثم الحافظ المِزّي. ومنهم التقي السبكي وابن كثير والتاج السبكي وابن ناصر وابن حجر العسقلاني، وأخبارهم في «الدارس»، وآخرهم الشيخ بدر الدين الحسني، رحمة الله على الجميع.

المحتويات



صورة المؤلف
في إذاعة الشرق الأدنى عام ١٩٥٢
قريباً من تاريخ إذاعة وكتابة أكثر مقالات هذا الكتاب

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

من آثار المؤلف

(١) أبو بكر الصديق	١٩٣٥
(٢) قصص من التاريخ	١٩٥٧
(٣) رجال من التاريخ	١٩٥٨
(٤) صور وخواطر	١٩٥٨
(٥) قصص من الحياة	١٩٥٩
(٦) في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
(٧) دمشق	١٩٥٩
(٨) أخبار عمر	١٩٥٩
(٩) مقالات في كلمات	١٩٥٩
(١٠) من نفحات الحرم	١٩٦٠
(١١) حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
(١٢) هتاف المجد	١٩٦٠
(١٣) من حديث النفس	١٩٦٠
(١٤) الجامع الأموي	١٩٦٠
(١٥) في أندونيسيا	١٩٦٠
(١٦) فصول إسلامية	١٩٦٠
(١٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠

(١٨) فِكَر ومباحث	١٩٦٠
(١٩) مع الناس	١٩٦٠
(٢٠) بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
(٢١) تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
(٢٢) فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
(٢٣) ذكريات علي الطنطاوي (١-٨)	١٩٨٥-١٩٨٩
(٢٤) فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
(٢٥) فصول اجتماعية	٢٠٠٢
(٢٦) سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢
(٢٧) نور وهداية	٢٠٠٦
(٢٨) فصول في الثقافة والأدب	٢٠٠٧
(٢٩) فصول في الدعوة والإصلاح	٢٠٠٨
(٣٠) البواكير	٢٠٠٩
(٣١) الذكريات: الفهارس والصُّوَر	٢٠١١
(٣٢) كلمات صغيرة	٢٠١٦
(٣٣) أعلام من التاريخ	٢٠١٩